بسم الله الرحمن الرحيم

الأدب في دانية والجزائر الشرقية في القرن الخامس الهجري

إعداد

خالد سليمان الخلفات

١٩٩٧

بسم الله الرحمن الرحيم

جامعـة مؤتـة

كلية الآداب

قسم اللغة العربية وآدابها

الأدب في دانية والجزائر الشرقية في القرن الخامس الهجري

إعداد

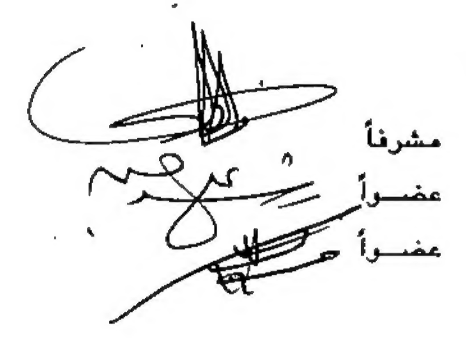
خالد سليمان الخلفات

بكالوريوس لغة عربية / الجامعة الأردنية / ١٩٨٤م

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات درجة الماجستير في اللغة العربية من جامعة مؤتة

لجنة المناقشة

١- الدكتور فايز القيسي	مشرفاً
٢- الأستاذ الدكتور رشدي الحسن	عضــواً
٣- الدكتور محمد الشوابكة	عضــواً



تاريخ تقديم الرسالـة : ١/ ٧/ ١٩٩٧

تاريخ مناقشة الرسالة: ٣٠/ ٧/ ١٩٩٧

لجنة المناقشة

د. فايز القيسي	(المشرف) رئيساً	....
أ.د. رشدي الحسن	عضواً	....
د. محمد الشوابكة	عضواً	....

الإهداء

إلى روح والدي رحمه الله وأسكنه فسيح جناته.

إلى والدتي العزيزة أطال الله في عمرها.

إلى زوجتي الغالية وأبنائي يزيد وأحمد وشذى.

إلى إخوتي الأعزاء.

أهدي هذا العمل.

خالد

إهداء خاص

إلـــى روح الدكتور حلمـــي عبدالفتـــاح الكيلانـــي

الأخ والأستاذ والصديق الـــذي بدأ معي رحلـــة البحـــث

فـــي هـــذا العمـــل وغابت روحـــه الطاهـــرة

قبـــل أن يـــرى هـــذا البحـــث النـــور

المقدمة

كانت دانية أول إمارة أندلسية أعلنت استقلالها عن قرطبة أيام الفتنة البربرية التي اجتاحت الأندلس، حيث استطاع مجاهد العامري أن ينتزي على دانية سنة ٤٠٣هـ وأن يؤسس دولة قوية الأركان، حيث تمكن من بسط سلطته على الجزائر الشرقية سنة ٤١٣هـ وقام مجاهد العامري بدور كبير هام على المسرح السياسي في الأندلس في عهد ملوك الطوائف، وبخاصة بعد سقوط الخلافة الأموية، مما يدل على مهارته السياسية ومقدرته الحربيّة.

ووصلت دانية عاصمة مجاهد العامري وميورقة عاصمة أمير الجزائر الشرقية مبشر بن سليمان إلى مجد مرموق في الحياة العلمية والأدبية في الأندلس ، حتى أصبحتا مركزين هامين من مراكز النشاط الثقافي والأدبي والحربي في القرن الخامس الهجري

وظهر في دانية والجزائر الشرقية عدد كبير من الشعراء والكتّاب الذين كانت لهم شهرة واسعة في مختلف أرجاء الأندلس، وتركوا آثاراً شعرية ونثرية غزيرة، لم تخصص لها دراسة علمية وافية، ولم تلق العناية اللازمة، وظهرت بعض الدراسات والبحوث في العصر الحديث التي أشارت بإيجاز شديد إلى هذه الحركة الأدبية، في إطار الحديث عن قضية من قضايا الأدب الأندلسي آنذاك. ومن هذه الدراسات بحث للدكتور جمعة شيخة قدّمه ضمن أعمال الملتقى الرابع الإسباني التونسي (١٩٨٣)، بعنوان: « الحياة الفكرية والأدبية بالجزائر الشرقية في القرنين الخامس والسادس الهجريين »، حيث عالج بعض الأغراض الشعرية والموضوعات النثرية التي تناولها الأدباء المشهورون في الجزائر الشرقية، ولم يلتفت لكثير من القضايا المضمونية والفنية. ومنها دراسة الدكتور عبدالرزاق حسين المعنونة بـ « الأدب العربي في جزر البليار » التي اقتصرت على دراسة عامة للأدب العربي في هذه الجزر خلال الحكم العربي الإسلامي الذي امتد حوالي مئتي سنة منذ مطلع القرن الخامس الهجري وحتى منتصف القرن السابع الهجري كما ترجم لعدد من الشعراء والكتاب.

ومن أهم هذه الدراسات أيضاً دراسة كليليا سارنللي تشركوا المعنونة بـ

«مجاهد العامري قائد الأسطول العربي في غربي البحر الأبيض المتوسط في القرن الخامس الهجري» وهي دراسة تاريخية لشخصية مجاهد العامري ودورها الخطير في الأحداث التي شهدتها الأندلس في تلك الفترة.

ولعل هؤلاء الدارسين لم يهتموا بالأدب في دانية والجزائر الشرقية، من حيث المضمون والخصائص الفنية واللغوية الاهتمام المناسب، إذ شغلوا أنفسهم بالقضايا العامة؛ لهذا جاء هذا البحث الذي يهدف إلى دراسة الأدب في دانية والجزائر الشرقية في القرن الخامس الهجري، الذي انقسم إلى صنفين أساسين هما الشعر التقليدي وأدب الرسائل. كما يهدف إلى بيان مدى مساهمة أدباء دانية والجزائر الشرقية في الازدهار الأدبي الذي شهدته الأندلس، في القرن الخامس الهجري.

وتتكون هذه الدراسة من تمهيد، وبابين وخاتمة. يعرض التمهيد الإطار السياسي والاجتماعي والفكري في إمارة دانية والجزائر الشرقية في القرن الخامس الهجري. وتناول الباب الأول دراسة الشعر العربي في دانية والجزائر الشرقية، وجاء ذلك في فصلين. تناول أولهما دراسة أغراض الشعر وموضوعاته، ومن ذلك الشعر السياسي، والشعر الاجتماعي، والغزل، ووصف الطبيعة، وصورة دانية والجزائر الشرقية.

والفصل الثاني، تعرض للدراسة الفنية للشعر، من حيث بناء القصيدة، والألفاظ والتعبير عن المعاني، والصورة الشعرية والخيال، والأوزان الموسيقى.

أما الباب الثاني فيعتنى فيه بأدب الرسائل في دانية والجزائر الشرقية، وجاء في فصلين. عرض الفصل الأول اتجاهات أدب الرسائل وأغراضه، ومن ذلك الاتجاه السياسي، والاتجاه الاجتماعي، ووصف الطبيعة، ووصف المظاهر الحضارية، والمفاضلات والمفاخرات، والمناقضات. ويدرس الفصل الثاني الخصائص الفنية واللغوية لأدب الرسائل. واشتملت الخاتمة على النتائج التي توصل إليها البحث.

وتنوعت مصادر هذا البحث، ومن أهمها كتاب الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام (ت٥٤٢هـ)، إذ اشتمل على مجموعة كبيرة من أشعار الادباء الأندلسيين ورسائلهم، وهي آثار لا توجد في غيره من المصادر الأندلسية، ومما يزيد من أهمية هذا المصدر تعدد موضوعات هذه الأشعار والرسائل وتنوع أغراضها.

وكتاب جذوة المقتبس للحميدي (ت٤٨٨هـ)، الذي تضمن تراجم لعدد كبير من أمراء دانية والجزائر الشرقية وشعرائها وكتابها. وكتاب أعمال الأعلام للسان الدين ابن الخطيب (ت٧٧٦هـ) الذي تضمَّن معلومات هامة حول الحياة السياسية التي عاشتها دانية والجزائر الشرقية في عصر ملوك الطوائف.

وكتاب نفح الطيب للمقَّري (ت١٠٤١هـ)، الذي يعدُّ موسوعة شاملة في تاريخ الأندلس الأدبي وحضارته، وهو مصدر هام لدراسة دانية والجزائر الشرقية في القرن الخامس الهجري، إذ أنَّ صاحبه احتفظ بمجموعة كبيرة من المعلومات والأشعار التي نقل بعضها من مصادر لم تصلنا.

وبعد فلا يسعني إلاَّ أن اتقدَّم بجزيل الشكر إلى أستاذي الدكتور فايز القيسي الذي تفضل برعاية هذه الدراسة، منذ ان كانت فكرة حتى ظهرت إلى حيز الوجود، فلم يبخل علي بملاحظاته القيمة وتوجيهاته السديدة، وغمرني بعلمه ولطفه، فالله أسأل أن يجزيه خير الجزاء.

ولا يسعني أيضاً إلاَّ أن أشكر الأستاذين الجليلين الدكتور رشدي الحسن، والدكتور محمد الشوابكة على ما بذلاه من جهد في قراءة هذه الدراسة، والملاحظات التي يبديانها ستثرى الدراسة وتفيدها.

والله ولي التوفيق

خالد سليمان الخلفات

التمهيد

الإطار السياسي و الاجتماعي والفكري في مدينة دانية والجزائر الشرقية في القرن الخامس الهجري

كانت الثورة التي حدثت في قرطبة نهاية القرن الرابع الهجري، وبداية القرن الخامس الهجري، بداية لفتنة كبيرة اجتاحت قرطبة، وتركت آثاراً سيئة على الأندلس بشكل عام، إذ سقطت الدولة العامرية في قرطبة، وكانت بداية لسقوط الخلافة الإسلامية في الأندلس سنة (٤٢٢هـ)(١). وقد نتج عن ذلك أن دبت الفوضى، وانعدم النظام، وزال الأمن والاستقرار، مما أدّى إلى انقسام الأندلس إلى دويلات صغيرة، وإمارات متعددة يتنازع الحكم فيها العرب والصقالبة والمولّدون(٢). واستطاع الصقالبة الذين عرفوا بالفتيان العامريين أن يسيطروا على شرق الأندلس، وأن يقيموا فيها عدداً من الإمارات، كان من أشهرها إمارة دانية والجزائر

---

(١) أنظر أحداث الفتنة في:

- ابن عذارى، أبو عبدالله أحمد بن محمد المراكشي (ت٦٩٥هـ)، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق: ج. س كولان وأ. ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، ط٣، ١٩٨٣، ج٣، ص٣، ص٣٨-١١٤.
- لسان الدين بن الخطيب، أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن سعيد (ت٧٧٦هـ)، تاريخ إسبانيا الإسلامية أو كتاب أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، تحقيق وتعليق: أ.ليفي بروفنسال، دار المكشوف، بيروت، ١٩٥٩م، ص٨٩-١٣١.
- ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد الحضرمي (ت٨٠٨هـ)، تاريخ ابن خلدون، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٦، ج٤، ص٣٥٤.
- محمد عبدالله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ج١، ق٢، مؤسسة الخانجي، القاهرة، ١٩٦٠، ص٥٨٠-٥٨٥.
- أحمد الطاهري، «ثورة العامة في قرطبة في أواخر عصر الخلافة»، مجلة البحث العلمي، جامعة محمد الخامس، الرباط، العدد ٣٦، ١٩٨٦م ص٩١-١١٩.

(٢) يقول لسان الدين بن الخطيب مصوراً هذه الأحوال: «وذهب أهل الأندلس من الانشقاق والانشعاب والافتراق إلى حيث لم يذهب كثير من أهل الأقطار، مع امتيازها بالمحل القريب، والخطة المجاورة كعبّاد الصليب، ليس لأحدهم في الخلافة إرث، ولا في الإمارة سبب، ولا في الفروسية نسب، ولا في شروط الإمامة مكتسب، اقتطعوا الأقطار واقتسموا المدائن الكبار، وجبوا العمالات والأمصار، وجندوا الجنود، وقدموا القضاة وانتحلوا الألقاب، وكتبت عنهم الكتّاب الأعلام». أعمال الأعلام، ص١١٩.

الشرقية (جزر البليار)([3])، التي كانت عاصمتها مدينة دانية([4]) وقد ضمت الجزائر

---

(٣) البليار (Baliares) اسم أطلقه اليونانيون والرومان على هذه الجزر التي تقع شرق الأندلس، وكلمة البليار مأخوذة من كلمة (بالين Ballein) اليونانية التي معناها (ألقى أو رمى)، حيث كان يعرف سكان هذه الجزر القدماء ببراعتهم في رمي الحجارة بالمقلاع. (انظر: دائرة معارف البستاني، ١٨٨١م. ج٥، ص١٤٩، دائرة المعارف الاسلامية، ج٣، ص٣٠٧).
ويرى البعض أن التسمية هذه منسوبة إلى قبيلة كانت تعيش في جزيرة سردانية المجاورة لهذه الجزر، وكانت تدعى هذه القبيلة (بالاري Balari)، هاجرت إلى جزر البليار في العصر الحجري الحديث، والشواهد التاريخية الموجودة في كل من جزيرة سردانية وجزر البليار تدل على وجود تشابه وتماثل في الآثار التي تعود إلى ذلك العصر؛ أي العصر الحجري الحديث.
(انظر:عصام سالم سيسالم، جزر الأندلس المنسية (لتاريخ الإسلامي لجزر البليار)، دار العلم للملايين، بيروت، ط١، ١٩٨٤، ص١٦).

(٤) دَانِيَة: مدينة بالأندلس من أعمال بلنسية تقع على ضفة البحر شرقاً، وهي مدينة حسنة عامرة، لها رَبَض عامر، وعليها سور حصين، وسورها من ناحية البحر شرقاً، وقد كانت هذه المدينة داراً لصناعة السفن، حيث كان الأسطول البحري يخرج منها إلى الغزو، وهي مدينة مشهورة بكثرة أشجارها، فقد اختصّت جبالها بالنارنج والخروب الطيب، وهي من بنيان القوطيين، الذي كانوا في هذه الأرض في عهد موسى عليه السلام، وقد عرفت هذه المدينة بقصرها العظيم المسمى بقصر الحبور الذي لم يرَ مثله.
أما اسمها القديم الذي عُرفت به فهو (استرابون) وهي كلمة تعني الحارس النهاري، ثم عرفت بعد ذلك باسم ارتميزيوم، نسبة إلى معبد أرتميس المشهور القائم على الأكمة التي بنيت عليها المدينة. ثم عُرفتْ هذه المدينة في العهد الروماني باسم (ديانيوم Dianium)، أي مدينة ديانا. وحين جاء المسلمون إلى هذه المدينة، أطلقوا عليها اسمها الحالي دانية، وهي بالإسبانية (دِنْيَا Denia).
انظر حول هذه المدينة ما يلي:

- ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبدالله الحموي الرومي البغدادي (ت٦٢٦هـ)، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧م، ج٢، ص٤٣٤.
- الزهري، أبو عبدالله محمد بن أبي بكر (ت أواسط القرن ٦هـ)، كتاب الجغرافية، تحقيق محمد حاج صادق، دمشق، ١٩٦٨م، ص١٠٢.
- الحميري، أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن عبدالمنعم (ت٨٦٦هـ)، صفة جزيرة الأندلس (منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار)، نشر وتحقيق أ.ليفي بروفنسال، دار الجيل، بيروت، ط٢، ١٩٨٨م، ص٧٦.
- محمد عبدالله عنان، الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال، دراسة تاريخية أثرية، مؤسسة الخانجي، القاهرة، ط٢، ١٩٦١م، ص١٤٦.
- Seybold, C. F.., ADaniya, The Encyclopaedia of Islam, new edition. ed. by B. Lewis, Ch. Pellate, and Schacht, Leiden, E. J. Brill, 1983, vol, 2, PP. 111-112.

الشرقية بعض الجزر الهامة التي كان أكبرها جزيرة ميورقة(٥)، ويليها في الحجم

(٥) مَيُوْرقَة: إحدى جزر البليار وأكبرها، وهي من أخصب بلاد الله أرجاء، واكثرها زرعاً ورزقاً وماشية، فهي على انقطاعها عن البلاد، مستغنية عنه!ا يصل فاضل خيرها إلى غيرها، إذ فيها من الحضارة والتمكن والتمصر وعظم البادية ما يغنيها، وفيها من الفوائد ما فيها، وفي وسط هذه الجزيرة جبل يهبط منه نهر يشقها، ويسقي جميع أرضها، وفي هذه الجزيرة مدينة ميورقة المعروفة بأعاجيب بنائها، وفيها برج عظيم وحصن مشهور، اسمه (ألأرون). وقد أطلق الإسبان على مدينة ميورقة اسم (بالمادي)، وتعتبر العاصمة الإقليمية لجزر البليار (الجزائر الشرقية). ومن مدنها الأخرى مدينة والوطة التي أشار إليها الجغرافيون العرب في كتاباتهم. وقد اشْتهرت هذه الجزيرة بكثرة الزرع والفاكهة وزراعة القطن والكتان، أكثر كسبهم من الأغنام، وتربيتها والمتاجرة بها. وأهلها -إلى الآن- مشهورون بهذه المحاصيل الزراعية، وتربية الأغنام. انظر حول هذه الجزيرة وأشهر مدنها ما يلي:

- ابن حوقل، أبو القاسم بن حوقل النصيبي (ت٣٦٧هـ)، صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، (د.ت)، ص١١٠.
- الزهري، كتاب الجغرافية، ص١٢٩.
- ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٥ ص٢٤٦.
- المراكشي، عبدالواحد، (ت٦٤٧هـ)، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، لجنة إحياء التراث الاسلامي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، مصر، ١٩٦٣، ص٣٤٣.
- أبو الفداء، عماد الدين اسماعيل بن محمد بن عمر (ت٧٣٢هـ)، تقويم البلدان، دار صادر، بيروت، (د.ت)، ص١٩١.
- القزويني، زكريا بن محمد بن محمود، (ت٦٨٢هـ)، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، ص٥٦٨.
- ابن سعيد المغربي، أبو الحسن موسى (ت٦٨٥هـ)، المغرب في حلى الغرب. تحقيق: شوقي ضيف، دار المعارف بمصر، القاهرة، (د.ت)، ج٢، ص٤٦٦.
- المقّري، أحمد بن محمد التلمساني (ت١٠٤١هـ)، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق الأستاذ يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٩٨٦، ج٤، ص٢١٠.
- الموسوعة العربية الميسرة، ج٢، ص١٦١٠.
- John, Yalon," Amjorca", in The EncyclopediA Americana, Grolier incorporated, Danbary, U. S. A 1989, vol, 18, PP. 146-149.

جزيرة مَنُورْقَة(٦) التي تقع إلى الشرق منها. أما الجزيرة الثالثة فهي جزيرة يابسة(٧)، أمَّا الجزيرة الرابعة فهي جزيرة(فُرمنتيرة)(٨)، وهي جزيرة صغيرة.

ويرجع الفضل في تأسيس هذه الإمارة إلى مجاهد بن عبدالله العامري، الذي

---

(٦) مَنُورْقَة: ثاني الجزائر الشرقية مساحة بعد جزيرة ميورقة، وهي تقع شرق هذه الجزيرة، وبينها وبين ميورقة خمسون ميلاً، وهي مستطيلة قليلة العرض، وفي وسطها حصن مانع.وقد اشْتُهِرَت هذه الجزيرة بكثرة زروعها وثمارها وبساتينها وخصوبة أرضها. من أشهر مدن هذه الجزيرة مدينة مَنُورقة، ويطلق عليها الآن اسم (ثيوداريلا) وهي كلمة إسبانية تعني (القلعة والقصبة)، وهي مدينة تقع في شمال غرب الجزيرة.أما العاصمة الحالية لهذه الجزيرة فهي مدينة (بورت ماهون)، وتقع في الجنوب الشرقي من الجزيرة. انظر حول هذه الجزيرة ما يلي:
- الزهري، كتاب الجغرافية، ص١٢٩.ياقوت الحموي، ج٥، ص٢١٦.ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ج٢، ص٤٦٩، أبو الفداء، تقويم البلدان، ص١٩١، البغدادي، صفي الدين عبدالمؤمن بن عبدالحق (ت٧٣٩هـ): مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، تحقيق وتعليق: علي محمد البجاوي، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيرت، لبنان، ط١، ١٩٥٤م، ج٣، ص١٣٢٥، الحميري، صفة جزيرة الأندلس، ص١٨٥، الموسوعة العربية الميسرة، ص١٨٠٩.

(٧) يابِسة: إحدى الجزائر الشرقية، وهي جزيرة طويلة تقع في البحر المتوسط، طولها خمسة وأربعون ميلاً، وعرضها خمسة عشر ميلاً، أشتهرت بشجر الصنوبر، وبكثرة الفواكه فيها والأعناب. كما اشتهرت بصناعة السفن وإنتاج الخشب، وفيها عشرة مراس، وبها أنهار جارية وقرى كثيرة وعمائر متصلة، وبها ملاّحة لإنتاج الملح، الذي ما زالت حتى الآن مشهورة به. انظر حول هذه الجزيرة ما يلي: ابن بسام الشنتريني، أبو الحسن علي (ت٥٤٢هـ)، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق، د. احسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ط٢، ١٩٧٩، ق٣ م١، ص٣٤٠، الزهري، كتاب الجغرافية، ص١٢٨، الشريف الإدريسي، أبو عبدالله محمدبن محمد بن عبدالله بن إدريس الحسني (ت ق٦هـ)، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٩٨٩، ج٢، ص٥٥٦.ابن خُرْدَاذْبَهْ، أبو القاسم عبيدالله بن عبدالله (ت٢٨٠هـ): المسالك والممالك، لَيْدَن، مطبعة بريل، ١٨٨٩، ص٢٠٢.ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٥، ص٤٢٤، ابن دحية، أبو الخطاب عمر بن حسن (ت٦٣٣هـ): المطرب من أشعار أهل المغرب، تحقيق ابراهيم الأبياري وحامد عبدالمجيد وأحمد بدوي، مراجعة د. طه حسين، دار العلم للجميع، ص١٣٠، القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، ص٢٨٢، ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ج٢، ص٤٧٠، البغدادي، مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، ج٣، ص١٤٧٠، الحميري، صفة جزيرة الأندلس، ص١٩٨، الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، ٦١٦، عصام سالم سيسالم، جزر الأندلس المنسية، ص(٣٠-٣١).

(٨) فُرمنتيرة: «جزيرة في البحر المحيط، طولها عشرون ميلاً، وعرضها ثلاثة أميال، وهي في وسط البحر، وهواؤها طيب، وتربتها كريمة، ومياه آبارها عذبة، وبها عمارات ومزارع...» انظر: (القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، ص٥٤٩-٥٥٠).

يعد المؤسس الفعلي لها، حيث أرسى دعائمها وأركانها في شرق الأندلس.

وقد اختلفت الروايات في أصل مجاهد العامري؛ فإحدى هذه الروايات تشير إلى أنه من الموالي العامريين(٩)، وأنه كان مولى للمنصور محمد بن أبي عامر(١٠). وكان مجاهد من أشهر هؤلاء الفتيان العامريين، وكان معظم هؤلاء الفتيان من الصقالبة، الذين كانوا من «أصول إفرنجية كالألمان واللنبارد والإيطاليين والجلالقة، وأهل البلقان، وغيرهم، يؤتى بهم أطفالاً، ويربّون في البلاط تربية عربية إسلامية»(١١).

وتشير بعض الروايات إلى أنه من الفتيان الصقالبة، وأنه روميّ الأصل(١٢). وقد اختلف في أصله الصقلبي؛ نظراً لأن كلمة الصقالبة -كما أشرت- تدل على أكثر من جنسية.

فالمستشرق أماري Amari يرى أن مجاهداً العامري من أصل إسباني(١٣). وكذلك المؤرخ الإيطالي سفورزا Sforze(١٤) أما المستشرق Codera فيرى أنه

---

(٩) الحميدي، أبو عبدالله محمد بن أبي نصر فتوح بن عبدالله الأزدي (ت٤٨٨هـ): جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٦٦، ص٣٥٢.

(١٠) وهو أبو عامر محمد بن عبدالله بن عامر بن أبي عامر محمد بن الوليد بن يزيد بن عبدالملك المعافري، وعبدالملك جدّه هو الداخل إلى الأندلس مع طارق مولى موسى بن نصير في أول الداخلين من المغرب، وقد ولد سنة ٣٢٨هـ، وتربى في قرطبة، ونشأ فيها، وتقرب من الحكم ثم تلقب بالمنصور سنة ٣٧١هـ، وتدرج في مناصب متعددة في الدولة، وكانت له غزوات وحروب مختلفة ضد الممالك المسيحية، وكانت وفاته سنة ٣٩٢هـ (انظر ترجمته في: الحميدي: جذوة المقتبس، ص٧٣، ابن بسام: الذخيرة ق٤، م١، ص٥٦، عبدالواحد المراكشي: المعجب، ص١٢٠، ابن الأبار: الحلة السِّيراء، ج١، ص٢٦٨-٢٧٧، لسان الدين بن الخطيب: أعمال الأعلام ص٦٤، ابن عذارى، البيان المغرب، ج٢، ص٢٧٩، أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص٢٢٦).

(١١) محمد عبدالله عنان: دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٩، ط٢، ص١٨٨.

(١٢) المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص١٢٧.

(١٣) عنان، دول الطوائف ، ص١٨٨.

(١٤) كليليا سارنللي تشركوا، مجاهد العامري قائد الأسطول العربي في غربي البحر الأبيض المتوسط في القرن الخامس الهجري، لجنة البيان العربي، القاهرة، ١٩٦١، ط١، ص١٢٤.

إيطالي([15]). ويعتقد Nykl أن مجاهداً العامري من أصل إفريقي([16]).

ويميل الدكتور عصام سالم سيسالم إلى أنه من أصل إسباني؛ نظراً لأن كلمة رومي كانت تطلق في المصطلح الأندلسي على من تعود أصولهم إلى جذور إسبانية([17]). ويستند كذلك في ترجيحه لهذا الرأي إلى ما ورد في رسالة الكاتب الإسباني الأصل ابن غرسية([18])، الذي عاش في كنف مجاهد العامري في مدينة دانية، الذي يقول في احدى فقرات رسالته الشعوبية المشهورة، مدافعاً عن أصل مجاهد العامري الإسباني، واصفاً له([19]): «أرومة رومية وجرثومة أصفرية».

ويميل محمد عبدالله عنان إلى أن مجاهداً العامري من الموالي، وليس من الفتيان الصقالبة، كما تشير الدراسات والمصادر الأخرى، ويستند في هذا الترجيح إلى اسمه وكنيته، فهو أبو الجيش مجاهد بن عبدالله، أو مجاهد بن يوسف بن علي([20]) ويؤيد هذا الترجيح ما كانت تتمتع به شخصية مجاهد العامري من عروبة قوية، ومن اضطلاعه بعلوم القرآن واللغة العربية([21]).

ونحن أمام رأيين، الأول: أن مجاهداً العامري صقلبي إسباني والرأي الثاني: أنه مولى من الموالي وليس من الصقالبة.

---

(١٥) تشركوا، المرجع السابق، ص١٢٤.

(١٦) Nykl A. R., Hispano-Arabic Poetry, and its Relations with the Troubadaurs, Baltimore , 1946. P. 69.

(١٧) تشركوا، مجاهد العامري، ص١٢٤.

(١٨) هو أبو عامر أحمد بن غرسية، من أبناء البشكنس، سبي صغيراً، وعاش في كنف مجاهد العامري، وكان من كبار أدباء عصره، وقد خاطب في رسالته هذه الأديب أبا جعفر بن الجزار يعاتبه فيها على تركه مدح مجاهد واقتصاره على مدح المعتصم بن صمادح. (انظر ترجمته: في ابن بسام، الذخيرة ق٣م٢، ص٧٠٤، ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ج٢، ص٤٠٦).

(١٩) ابن بسام: الذخيرة ق ٣م١، ص٧٠٦، وانظر: عبدالسلام هارون، نوادر المخطوطات، ط٢، ١٩٧٣، المجموعة ٣، ص٢٤٧.

(٢٠) اختلفت الروايات في نسبه، فالمشهور أنه مجاهد بن عبدالله، ولكن ابن خلدون يشير إلى أنه مجاهد بن يوسف بن علي (انظر: تاريخ ابن خلدون، ج٤، ص٣٥٤) أما القلقشندي، أحمد بن علي (ت٨٢١هـ) فيذكر أن اسمه مجاهد بن علي بن يوسف) انظر: صبح الاعشى في صناعة الإنشاء، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر (د.ت) ج٥، ص٢٥٦.

(٢١) انظر: عنان: دول الطوائف، ص١٨٨.

أما الرأي الأول فهو الأقرب إلى الترجيح، لأمور عديدة، أهمها:

- أن اسم مجاهد العربي وكنيته، لا يُعوَّل عليهما في نسب مثل هؤلاء الموالي، فورود الاسم العربي لمجاهد عند ابن خلدون، والقلقشندي لا تعني عروبيته، وثبات نسبه العربي، إذ نجد أن الصقالبة كانوا يطلقون على أنفسهم أسماءً وألقاباً وكنىً عربية إسلامية، لأن هذا الأمر كان مدعاة للفخر والاعتزاز لهم في ظل دولة إسلامية قوية، وخلافة إسلامية سيطرت على بلاد الأندلس عامة.

- الأمر الثاني: أن كلمة رومي كانت تطلق في المصطلح الأندلسي على من تعود أصولهم إلى جذور إسبانية[٢٢]، ولم تتجاوز هذه الكلمة جنسية أخرى غير الإسبانية، وهذا الأمر يؤكد -على الأقل- أن مجاهداً العامري هو من الفتيان الصقالبة.

- الأمر الثالث: ما ورد في رسالة ابن غرسية الذي سبق ذكره، يؤكد نسب مجاهد العامري الرومي الإسباني، وقد أكد المراكشي هذا النسب الرومي[٢٣].

- الأمر الرابع: لم تذكر المصادر أيَّة إشارة أو حديث من شعر أو نثر عن نسب مجاهد العامري العربي، أو أنه مولى من أصل عربي، فلم يرد أي إشارة إلى هذا النسب في قصيدة مدح أو رسالة نثرية ، ذكر أصحابها مجاهداً العامري، أو تحدثوا عن صفاته أو صفات ابنه إقبال الدولة، ولم يتحدثوا عن صفة النسب العربي، ولو كان عربياً لتناولها الشعراء والكتاب في شعرهم ونثرهم، لأن هذه الصفة من الصفات التي كان يتوقف عندها الشعراء بشكل عام في قصائد المدح.

- الأمر الخامس: أن ما تتمتع به شخصية مجاهد العامري، من عروبة قوية واضطلاع بالعلوم الدينية وعلوم اللغة، لا يعدُّ دليلاً على نسبه العربي، وأنه من الموالى فعلينا أن نتذكر أن هؤلاء الفتيان الصقالبة قد أُتي بهم أطفالاً صغاراً، وعاشوا في قرطبة، ودرِّبوا على فنون القتال، وتعلموا علوم القرآن واللغة وسائر العلوم الاخرى، وكان الاهتمام بهم في هذه البيئة واضحاً.

وقد نشأ مجاهد العامري في قرطبة، تحت رعاية المنصورمحمد بن أبي عامر،

---

(٢٢) تشركوا: مجاهد العامري، ص١٢٤.

(٢٣) انظر: المعجب، ص١٢٧.

الذي رباه وعلمه مع مواليه علوم القرآن واللغة والحديث، فكان مجيداً في ذلك(٢٤).

وقد أتيحت الفرصة لمجاهد وللفتيان الصقالبة، ليتدربوا على الفروسية، وفنون القتال والحرب، وقد كان المنصور يهدف إلى إعداد هؤلاء الفتيان إعداداً عسكرياً ليسند إليهم أمور الدولة والجيش عند نضوجهم وبلوغهم سنَّ القتال والحرب(٢٥)

وقد أصبح مجاهد العامري من أحد كبار فتيان عبدالملك المظفر بالله بن المنصور محمد بن أبي عامر(٢٦)، ثم أصبح بعد وفاته كبير فتيان الحاجب عبدالرحمن الناصر(٢٧) الملقب بشنجول، غير أن مجاهداً تخلى عنه لسوء تصرفاته في الحكم، حيث ظل مجاهد يراقب الأحداث في قرطبة، عندما وقعت الفتنة، فغادرها إلى مدينة دانية على رأس مجموعة من أتباعه، فملكها، واستقل بها، وملك الجزائر الشرقية، وأسس إمارته هناك(٢٨).

وهناك رواية أخرى تشير إلى أن مجاهداً العامري كان وقت نشوب الفتنة والياً على الجزائر الشرقية، وكان يشغل هذا المنصب منذ أيام المنصور بن أبي عامر، وعندما انتهت الفتنة سار مجاهد إلى دانية وأسس إمارته هناك(٢٩).

ويبدو أن هناك أكثر من عامل ساعد على أن تكون دانية هي مركز هذه الإمارة وعاصمتها، أهمها موقعها الجغرافي التجاري المطل على البحر المتوسط. وقربها من الجزائر الشرقية المتميزة بموقعها الهام وسط البحر، وقربها من السواحل

---

(٢٤) انظر: تاريخ ابن خلدون، ج٤، ص٣٥٤.

(٢٥) انظر: لسان الدين بن الخطيب، أعمال الأعلام، ص٢٥٠.

(٢٦) هو أبو مروان المظفر بالله بن المنصور محمد بن أبي عامر المعافري، ولي الحجابة بعد موت أبيه سنة ٣٩٢هـ ولقب المظفر بالله وسيف الدولة، له في بلاد الروم آثار عظيمة، غزا سبع غزوات، قيل أنه مات مسموماً، وقيل مات من علة الذبحة، وكان ذلك في أرملاط سنة ٣٩٩هـ انظر (ابن عذارى، البيان المغرب، ج٢، ص٤٠٣).

(٢٧) هو عبدالرحمن الناصر بن المنصور محمد بن أبي عامر، تولى الحجابة بعد موت أخيه المظفر بالله سنة ٣٩٩هـ وشنجول لقب غلب عليه من قبل أمه عَبْدة بنت شنجة النصراني الملك، تذكراً منها لاسم أبيها. وقد تلقب بالناصر، ثم بالمأمون، وكان يدعى بالحاجب الأعلى، فنظر في الأمور نظراً غير سديد، وانصرف إلى اللهو والترف. (ابن عذاري: البيان المغرب، ج٣، ص٣٨).

(٢٨) انظر: تاريخ ابن خلدون، ج٤، ص٣٥٤.

(٢٩) انظر: ابن عذارى، البيان المغرب، ج٣، ص١٥٦.

الأوروبية. إضافة إلى بُعد دانية والجزائر الشرقية عن قرطبة، التي كانت آنذاك مركزاً للفتن والاضطرابات والصراعات السياسية والعسكرية.

وحتى يضفي مجاهد العامري الشرعية على إمارته، نصّب الفقيه القرطبي عبدالله بن الوليد المعيطي خليفة(٣٠) في دانية، وأعلن له البيعة، وسمّاه أمير المؤمنين المستنصر بالله، وكانت هذه البيعة سنة (٤٠٥هـ)(٣١).

وقد عرف مجاهد العامري خلال فترة حكمه بين سنة ٤٠٦-٤٣٦هـ بعدد من الصفات. كالذكاء والنباهة والشجاعة والفروسية، كما عرف بسياسته الحكيمة للأمور الداخلية والخارجية، مما ساعده على تكوين هذه الإمارة الآمنة، وإقامة هذه الدويلة المستقرة، وإلى ذلك يشير ابن عذاري بقوله: «وكان ذا نباهة ورياسة، زاد على نظرائه من ملوك الطوائف بالأنباء البديعة، منها العلم والمعرفة والأدب، وكان مع ذلك من أهل الشجاعة والتدبير والسياسة»(٣٢).

وقد عُرِف مجاهد باهتمامه بعلوم القرآن وعلوم اللغة والأدب، على الرغم من انشغاله بالحروب والغزوات الداخلية والخارجية، ويشير إلى هذا الاهتمام ابن بسام نقلاً عن ابن حيان، حيث يقول: «كان مجاهد فتى أمراء دهره، وأديب ملوك عصره، لمشاركته في علم اللسان، ونفوذه في علم القرآن، عني بذلك من صباه، وابتداء حاله، إلى حين اكتماله، ولم يشغله عن التزيّد عظيم ما مارسه من الحروب براً وبحراً، حتى صار في المعرفة نسيج وحده...»(٣٣)

---

(٣٠) هو عبدالله بن الوليد بن محمد بن يوسف بن عبدالله بن عبدالعزيز بن خالد بن عثمان بن عبدالله بن عبدالعزيز بن خالد بن عقبة بن أبي معيط، كان متفقهاً بقرطبة، ثم خرج إلى دانية أثناء الفتنة البربرية. حيث بويع بالخلافة هناك، ثم خلعه مجاهد العامري بعد عودته من غزوة سردانية. (انظر ترجمته في: ابن بسام، الذخيرة، ق١ م١، ص٤١، ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص١١٥، القاضي عياض: ترتيب المدارك، ج٨، ص٢٦-٢٧.

(٣١) انظر: ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم، محمد بن محمد بن عبدالكريم بن عبدالواحد الشيباني (ت ٦٣٠هـ)، الكامل في التاريخ، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، ١٩٦٧، ج٧، ص٢٩٣.

- تاريخ ابن خلدون، ج٤، ص٣٥٤، عنان: دول الطوائف، ص١٩٠.

(٣٢) ابن عذاري، البيان المغرب، ج٣، ص١٥٥.

(٣٣) الذخيرة، ق ٣م١، ص٢٣، وانظر البيان المغرب، ج٣، ص١٥٦.

وقد جذب هذا الاهتمام بالعلوم والأدب، والمعرفة عدداً كبيراً من العلماء والأدباء الذين أمّوا دانية فأكرمهم، وألّفوا له التصانيف والكتب في مجالات مختلفة، فقدّم لهم الجوائز والهبات على مؤلفاتهم هذه(٣٤) وإلى ذلك يشير ابن بسام بقوله «جمع من دفاتر العلوم خزائن جمّة، فكانت دولته أكثر الدولِ خاصة، وأسراها صحابة، لانتحاله العلم والفهم، فأمّه جملة العلماء وأنسوا بمكانه، وخيموا في ظلّ سلطانهِ، واجتمع عنده من طبقات علماء قرطبة، وغيرها جملة وافرة، وحلبة ظاهرة»(٣٥). وقد نوّه المؤرخون بفروسية مجاهد وشجاعته، واهتمامه بجمع الفرسان والقادة من حوله، وإعدادهم للحرب والقتال، نظراً لحاجته لمثل هؤلاء الفرسان في قيادة جيشه وأسطوله البحري في المعارك والغزوات البحرية المختلفة(٣٦).

وعلى الرغم من كل هذه الصفات والمحامد التي أجمع المؤرخون على ذكرها في مجاهد العامري والحديث عنها، إلا أن مجاهداً لم يسلم من نقد ابن حيّان اللاذع له حيث يقول: «ثم أكثر التخليطَ مجاهدٌ في أمره، فطوراً كان ناسكاً مخبتاً معتكفاً متبرئاً من الباطل كله، يعكف على دفاتر يقرؤها، وتارة يعود خليعاً فاتكاً، لا يساتر بلهو ولا لذّة، ولا يستفيق من شرب وبطالة، ولا يأنسُ بشيء من الجدّ والحقيقة»(٣٧).

أما في المجال العسكري فقد عرف مجاهد بخوضه عدداً من الغزوات الخارجية والمعارك الحربية الداخلية، فقد غزا مجاهد جزيرة سردانية(٣٨) على رأس أسطول

---

(٣٤) ابن عذاري، البيان المغرب، ج٣، ص١٥٦.

(٣٥) ابن بسام، الذخيرة، ق ٣م١، ص٢٣.

(٣٦) المصدر نفسه، ق ٣،م١، ص٢٣.

(٣٧) المصدر نفسه، ق٣م١، ص٢٣-٢٤.

(٣٨) سُرْدَانيَة: جزيرة في البحر كبيرة القطر، كثيرة الجبال، قليلة المياه، طولها مائتان وثمانون ميلاً، وعرضها من المغرب إلى المشرق مائة وثمانون ميلاً، وطولها مار من الجنوب إلى الشمال، مع قليل تشريق، وفيها ثلاث مدن هي: القيطنة، وقالمرة، وقشيلية، وأهل جزيرة سردانية -في الأصل- روم أفارقة، متبربرون، ومتوحشون من أجناس الروم، وهم أهل نجدة وحزم، لا يفارقون السلاح. وفي جزيرة سردانية معادن الفضة الجيدة، ومنها تخرج الفضة، إلى كثير من بلاد الروم، (انظر: الشريف الادريسي، نزهة المشتاق، ج٢، ص٥٨٤، أبو الفداء، تقويم البلدان،ص١٩١).

بحري، يتألف من مئة وعشرين مركباً، بين كبير وصغير ، ومعه ألف فارس(٣٩)، واستطاع مجاهد الاستيلاء على هذه الجزيرة، فقتل بها كثيراً من النصارى وسبى مثلهم(٤٠). واستطاع أن يفرض الجزية على بعض ملوكها، وشرع في بناء مدينة له فيها، فانتقل إليها بأهله وولده(٤١).

وقد كان الدافع لهذه الغزوة، هو رغبة مجاهد العامري في الاستفادة من الموقع الاستراتيجي لهذه الجزيرة؛ لقربها من ايطاليا، الذي يجعل من السهولة بمكان مهاجمة السواحل الإيطالية، التي كانت تشن منها الغارات على الأندلس.

وقد شعرت القوى المسيحية بخطورة هذه الغزوة، خطورة استيلاء مجاهد العامري على جزيرة سردانية، لهذا فقد حشدوا الحشود، وجهزوا الجيوش لاستعادة هذه الجزيرة، حيث يقول لسان الدين بن الخطيب(٤٢): «وتداعى عليه ملوك الأرض الكبيرة، واستجاشوا، وبلغه من أمرهم ما لا يطيقه، فعزم على التحول إلى محلّه، والقفول إلى دار ملكه بدانية وميورقة» وقد عاد مجاهد إلى دانية بعد أن خسر معظم سفن أسطوله، وأسر بعض أفراد أسرته، ومنهم ابنه علي، الذي استطاع أن يفتديه بعد مدة من الزمن(٤٣).

وعندما وصل مجاهد إلى مدينة دانية وجد المعيطي الذي أخذ له البيعة كخليفة في هذه الإمارة، قد استبد بالملك، فقام بتنحيته عن الحكم، وقبض عليه وعلى

---

(٣٩) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٧، ص٢٩٣ وانظر كذلك لسان الدين، بن الخطيب، أعمال الأعلام، ص٢١٩.

(٤٠) ابن الأثير، المصدر السابق، ج٧، ص٢٩٣، ولسان الدين بن الخطيب، المصدر السابق، ص٢١٩.

(٤١) لسان الدين ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص٢١٩.

(٤٢) المصدر السابق، ص٢١٩.

(٤٣) انظر حول هذه الغزوة: الحميدي: جذوة المقتبس، ص٣٥٢، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٧، ص٢٩٣، ابن عذارى، البيان المغرب، ج٣، ص١٥٦، لسان الدين بن الخطيب، أعمال الأعلام، ص٢١٩، تاريخ ابن خلدون، ج٤، ص٣٥٤، عنان: دول الطوائف، ص١٩١، أحمد مختار العبادي، والسيد عبدالعزيز سالم، تايخ البحرية الإسلامية في حوض البحر المتوسط (البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس) مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، ج٢، ص٢٠٣.

أتباعه[43]. ثم انصرف مجاهد إلى تثبيت دعائم حكمه في دانية والجزائر الشرقية، واشترك في الحروب والأحداث العسكرية الداخلية مع أمراء الطوائف[44]. وقد كانت وفاة مجاهد العامري سنة ٤٣٦هـ[45].

وقد تولى الحكم بعد مجاهد ابنه إقبال الدولة علي، الذي أُسر في غزوة سردانية، وعاد إلى دانية بعد افتدائه «وهو فتى كاهل، يتكلم بلسان الروم، الذين رُبِّي فيهم، ويتزيا بزيّهم، ويقول بقولهم، فعرض عليه والده الإسلام، فقبله وحسن إسلامه»[47].

وقد ظهرت علامات النباهة والفروسية على علي بن مجاهد، فاهتم والده -بعد الأسر- بتربيته وتأديبه، وتدريبه على فنون القتال، فَعَوَّل عليه في قيادة الجيش، وجعله ولياً للعهد، بعد أن كان قد أعطى ولاية العهد لابنه الأصغر حسن، عندما كان علي في الأسر، وقد دفع هذا الأمر بحسن إلى الغدر بأخيه بعد وفاة مجاهد، واستلام علي الحكم في دانية، حيث اشترك حسن مع المعتضد بن عباد في تنفيذ مؤامرة فاشلة ضد أخيه[48].

وقد كان علي معروفاً بصفاته الحميدة وعفته، وحبه للعلوم الدينية واللغوية، وكان ميالاً إلى السلم والدعة، وإلى ذلك يشير ابن بسام بقوله: «فلما خفق علمه، وتمكن في مقام أبيه قَدَمُه، ألقى السلمَ وأغمد السيف...»[49].

ويقول عبدالواحد المراكشي ذاكراً الصفات التي تميز بها علي «لا أعلم في المتغلبين على جهات الأندلس أصون منه نفساً، ولا أطهر عِرْضاً، ولا أنْقَى ساحة، كان لا يشرب الخمر، ولا يقرب من يشربُها، وكان مؤثراً للعلوم الشرعية، مكرماً

---

(٤٤) لسان الدين بن الخطيب، أعمال الأعلام، ص٢٢٠.

(٤٥) عنان، دول الطوائف، ص١٩٦.

(٤٦) تاريخ ابن خلدون، ج٤، ص٣٥٤.

(٤٧) لسان الدين بن الخطيب، أعمال الأعلام، ص٢٢١.

(٤٨) ابن عذاري، البيان المغرب، ج٣، ص١٥٧-١٥٨-، لسان الدين بن الخطيب، أعمال الأعلام، ص٢٢١.

(٤٩) الذخيرة، ق٤م١، ص٢٦٥.

لأهلها»(٥٠).

وقد ابتعد علي عن الحروب والمعارك والاشتراك في الفتن السياسية التي شهدتها الأندلس، وكان ميالاً إلى الاستقرار والسلام، محباً لجمع المال والخراج، همّه الأول تنمية الأموال من خلال التجارة، يقول ابن بسام «همّته كانت في خراج يجبيه، لا في معقل يجتبيه، وهمّه المتجر ينميه لا المفخر يحميه، أحبُّ خلق الله بلبوسٍ ومطعم، وأصباه إلى دينار ودرهم»(٥١).

وقد اتسمت سياسته بالتسامح المطلق مع النصارى في إمارته، وقد يرجع هذا التسامح «إلى ظروف حياته، وإلى نشأته خلال أسره الطويل بين نصارى سردانية، واعتناق دينهم قبل ان يعود إلى الاسلام»(٥٢).

وقد تمثل هذا التسامح بأن وضع سائر الكنائس والبيع التي في إمارته تحت رعاية أسقف برشلونه، وان يتولى هو تعيين سائر رجال الدين، الذين يعملون في هذه الكنائس، ثم السماح للنصارى بذكر اسم أسقفهم في خطبهم ومواعظهم(٥٣).

وقد اتخذ علي من المصاهرة والنسب مع ملوك الطوائف وسيلة إلى تقوية علاقاته معهم، وبعث الأمن والاستقرار في إمارته، من خلال تزويج بناته لبعض أفراد هذه الأسر الحاكمة، ولكن هذه المصاهرة السياسية ذات الأغراض الشخصية سرعان ما انقلبت لغير صالحه، وكانت نهايته ونهاية إمارته على يد أحد أصهاره. وهو المقتدر بن هود(٥٤) إذ يقول ابن بسام مبيناً نتيجة هذا اللون من المصاهرة ومتحدثاً عن علي بن مجاهد، الذي جعل من بناته عيوناً له على هؤلاء الأمراء: «ورزق عدّة بنات أحسنَ من الشموس، وأفنن من الطواويس، فتبارى ملوك الطوائف بأفقنا في

---

(٥٠) المعجب،ص١٢٧.
(٥١) الذخيرة، ق٤ م١، ص٤٣.
(٥٢) عنان، دول الطوائف ص٢٠٣.
(٥٣) المصدر السابق،ص٢٠٣.
(٥٤) المقتدر بن أحمد بن سليمان بن أحمد أمير سرقسطة، كان بينه وبين النصارى حروب عظيمة، استرد فيها بربشتر سنة ٤٥٧هـ واستولى على دانية عندما كانت بيد إقبال الدولة علي بن مجاهد العامري، توفي سنة ٤٧٥هـ (انظر ترجمته في: ابن سعيد، المغرب، ج٢، ص٤٣٦، لسان الدين بن الخطيب، أعمال الأعلام، ج٢، ص١٧١، المقّري، نفخ الطيب، ج١، ص٤٤١).

نكاحهن، وتنافسوا في غدوهن إليهم ورواحهنّ، واغتنم هو ذلك منهم، وأذكاهنّ عليهم عيوناً، وبناهنّ بينه وبينهم دروباً وحصوناً، معتقداً أن الصهر رحم لا تُجْفَى، وطريق إلى رَعْي الذمم لا تخفى، فَقَلّ ملك منهم إلا وقد عَلق له به حبلٌ، واتصل بينه وبينه نسل، فسما إليه منهم، ابن هود المذكور سنة سبع وستين يريه أن الناس مأكول وآكل، وأن القياس أكثره باطل»(٥٥).

وقد عرف علي أيضاً بعلاقاته الخارجية الطيبة مع بعض البلاد الاسلامية خارج الأندلس، ومنها مصر، التي وجّه لها عندما شهدت المجاعة سنة (٤٤٧هـ) مركباً كبيراً مملوءاً طعاماً، حيث عاد هذا المركب مملوءاً ياقوتاً وجوهراً وذهباً وذخائر(٥٦).

وقد انتهت إمارتُه سنة ٤٦٨هـ باستيلاء المقتدر بن هود على دانية(٥٧).

أما الجزائر الشرقية في عهد مجاهد العامري وابنه إقبال الدولة، فقد كان يحكمها ولاة تابعون لمجاهد وابنه إقبال الدولة، وكان أول هؤلاء الولاة هو عبدالله ابن أخي مجاهد العامري، وقد كانت ولايته سنة ٤١٣هـ واستمرت حتى عام ٤٢٨هـ(٥٨).

ثم تولى الولاية بعده الأغلب مولى مجاهد العامري(٥٩)، ثم سليمان بن

---

(٥٥) الذخيرة، ق ٤م١، ص٢٦٥-٢٦٦.

(٥٦) انظر ابن عذارى، البيان المغرب، ج٣، ص٢٢٨، لسان الدين بن الخطيب، أعمال الأعلام، ص٢٢١.

(٥٧) انظر حول سقوط دانية: ابن بسام، الذخيرة ق ٤م١، ص٢٦٧-٢٦٨، ابن عذاري: البيان المغرب، ج٣، ص٢٢٨، لسان الدين بن الخطيب، أعمال الأعلام، ص٢٢٢، تاريخ ابن خلدون، ج٤، ص٣٥٥.

(٥٨) انظر: تاريخ ابن خلدون، ج٤، ص٣٥٤.

(٥٩) وقد استلم الولاية سنة ٤٢٨هـ، وقد كان صاحب غزو وجهاد في البحر، واستمر حتى سنة ٤٣٦ هـ أي سنة وفاة مجاهد العامري، ثم أبقاه إقبال الدولة والياً عليها، حتى سنة ٤٥٨هـ بحين استأذن الأغلبُ إقبال الدولة لأداء فريضة الحج فأذن له. (انظر: تاريخ ابن خلدون، ج٤، ص٣٥٤، عنان، دول الطوائف، ص٢٠٢).

مشكيان[60]، ثم عبدالله المرتضى أغلب، الذي استقل بحكمها سنة ٤٦٨هـ أي سنة سقوط دانية بيد المقتدر بن هود، واستمر حتى سنة ٤٨٦هـ وقد كان قد تولى الولاية فيها سنة ٤٦٣هـ[61].

ثم خلفه بعد وفاته ولي عهده ناصر الدولة مبشر بن سليمان، وأصله من شرق الأندلس، سباه العدو صغيراً، وكان المرتضى أغلب قد أرسل رسولاً إلى الروم، فاستحسن عقل هذا الفتى ونبل ذاته «ففداه، وقدم به على المرتضى، فسُرَّ به، وقرَّبه، ووجد عنده حسن خدمة الملوك ما تمناه»[62].

وقد تولى مبشر بن سليمان الحكم سنة ٤٨٦هـ واستطاع أن يوفر الأمان والاستقرار لإمارته هذه في الجزائر الشرقية، حيث كانت ميورقة عاصمة إمارته، ثم أصبحت مركزاً ثقافياً مشهوراً، إذ وفد عليه عدد من الأدباء، الذين وجدوا في إمارته الأمان والاستقرار، بعد الحروب والثورات التي اجتاحت مدن الأندلس. وكان من

---

(٦٠) وهو صهر إقبال الدولة استلم ولاية الجزر سنة ٤٥٨هـ واستمرت ولايته ٥ سنوات حتى وفاته سنة ٤٦٣هـ (انظر: تاريخ ابن خلدون، ج٤، ص٣٥٤، عنان: دول الطوائف، ص٢٠٢).

(٦١) عنان، دول الطوائف، ص٢٠٢.

(٦٢) ابن الكردبوس: تاريخ ابن الكردبوس، قطعة من كتاب الاكتفاء في أخبار الخلفاء، ص١٢٢-١٢٣.

أشهر الشعراء الذين وفدوا على بلاطه: ابن اللبانة([63])، وابن حمديس([64]).

وقد استمر حكم مبشر حتى سنة ٥٠٨هـ([65]).

---

(٦٣) هو أبو بكر محمد بن عيسى الداني المعروف بابن اللبانة، قدم إلى ميورقة من إشبيلية سنة ٤٨٩هـ بعد سقوط دولة بني عباد، واستقر في ميورقة في بلاط ناصر الدولة مبشر بن سليمان، ومدحه بالعديد من القصائد التي خلدت ذكره بين الأمراء، إلى أن توفي سنة ٥٠٧هـ في ميورقة، (انظرترجمته في: ابن خاقان: قلائد العقيان ص٧٧٩-٧٩٠، ابن بسام، الذخيرة ق٣م٢، ص٦٦٦-٧٠٢، العماد الأصفهاني، خريدة القصر، ج٢، ص١٠٧-١٣٩، الضبي: بغية الملتمس، ص١٠٩، ابن دحية، المطرب، ص١٧٨، عبدالواحد المراكشي، المعجب، ص٢١١، ابن الأبار: التكملة، ج١، ص٤١٠، ابن سعيد، المغرب، ج٢، ص٤٠٩-٤١٣، والمرقصات والمطربات، ص٨٦، رايات المبرزين، ص١٢٠، الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٤، ص٢٩٧، ابن شاكر، فوات الوفيات، ج٤، ص٢٧١، لسان الدين، بن الخطيب، جيش التوشيح، ص٥٩، المقري، نفح الطيب، ج١، ص١٦١، ج٤، ص٢٢٨).

(٦٤) هو عبدالجبار بن محمد بن حمديس الصقلي، ولد بسرقوسة سنة ٤٤٧هـ هاجر إلى الأندلس، ووفد على المعتمد بن عباد، وكان من أشهر مداحيه، إلى أن خلع عن ملكه سنة ٤٨٤هـ فغادره إلى جزيرة ميورقة، ومدح ناصر الدولة، وغادر الأندلس إلى المغرب، وتوفي سنة ٥٢٧هـ «انظر ترجمته في: ابن بسام: الذخيرة ق٤م١، ص٣٢٠، العماد الأصفهاني، خريدة القصر، ج٢، ص١٩٤، ابن دحية: المطرب، ص٥٤، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٣، ص٢١٢، مقدمة ديوان ابن حمديس، تحقيق إحسان عباس، ص١٢-١٥)

(٦٥) انظر ترجمته في: ابن الكردبوس، ص١٢٢-١٢٣، تاريخ ابن خلدون، ج٤، ص٢٥٤، ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٥، ص٣٩.

- عنان، دول الطوائف، ص٢١٠-٢١١.
- شكيب أرسلان، تاريخ غزوات العرب، ص٣٠١-٣٠٢.

كان مجتمع دانية والجزائر الشرقية جزءاً لا يتجزأ من مجتمع عصر الطوائف في القرن الخامس الهجري، إذ كان سكان هذه المدينة وهذه الجزر، يتألفون من عناصر مختلفة، من العرب والبربر والموالي والمولدين والصقالبة. كما كانوا يتكونون من المسلمين واليهود والنصارى.

وكان أصحاب الحكم والنفوذ في الدولة هم الصقالبة، وعلى رأسهم مؤسس الدولة مجاهد العامري وأبناؤه، وقد وفر مجاهد لسكان هذه الإمارة الأمن والاستقرار، في فترة كانت فيها الفتن والحروب قد سادت معظم المدن الأندلسية، خاصة قرطبة. وكانت هذه الحياة الآمنة مدعاة إلى لجوء عدد من العلماء والأدباء للعيش في دانية وفي جزر البليار. وقد انعكس هذا الأمن والاستقرار على حياة العامة والخاصة، فأقبلوا على العلوم والآداب ينهلون منها، حتى تفشى العلم في الجواري والغلمان في قصر مجاهد العامري(٦٦).

إن انتشار العلم والأدب في مجتمع دانية والجزائر الشرقية، حتى بين الجواري والغلمان، يعكس مظهراً من مظاهر الحياة الاجتماعية في هذه الإمارة، إذ انصرف معظم الناس إلى العلم والثقافة، لهذا نصبح أمام عناصر سكانية مثقفة من مختلف الأجناس، جمعهم الدين والعلم والأدب، فكانت هناك طبقة الفقهاء ورواة الحديث، الذين كانت لهم منزلة عظيمة في بلاط مجاهد وابنه إقبال الدولة، وولاته على الجزائر الشرقية. وكان مجاهد يقرب هؤلاء، ويهتم بهم، فقد كان بلاطه مركزاً للعديد من الفقهاء والرواة الذين سنتحدث عنهم عند تناولنا للإطار الفكري.

إنّ ما تقدّم لا يعني أن الطبقة الحاكمة المتمثلة في أسرة الصقالبة الحاكمة في دانية، وطبقة الفقهاء هما الطبقتان المتميزتان في دانية والجزائر الشرقية فقط، بل إننا نجد أن الثراء له تأثيره في إيجاد طبقة التجار؛ نظراً لازدهار الحياة الاقتصادية والصناعية والتجارية والزراعية في أركان هذه الإمارة، فقد عرفت

---

(٦٦) لسان الدين بن الخطيب، أعمال الأعلام، ص١١٨.

مدينة دانية والجزائر الشرقية بدور صناعة السفن بأشكالها المختلفة. وقد عمل في هذه الصنعة عدد كبير من الفنيين المهرة. كذلك كانت الحركة التجارية النشطة بين دانية والمدن الواقعة على ساحل البحر الأبيض المتوسط، وخاصة الاسكندرية، التي كانت تربطها بمدينة دانية طريق تجاري بحري.(٦٧) وقد كانت البضائع ترسل في سفن شحن حربية خوفاً من تعرض الأساطيل الإيطالية لها عبر طريقها إلى الاسكندرية(٦٨).

إضافة إلى ذلك كان إقبال الدولة كما أشرت سابقاً -مهتما بالتجارة وجلب الأرباح، وتنمية الأموال وجمعها، وقد أشار إلى ذلك الأمير عبدالله الصنهاجي أمير غرناطة في مذكراته، حيث يقول: «بأنه كان يحب المال ويغالي في جمعه»(٦٩).

ولذلك نجد أن الحركة التجارية هذه، جعلت هذه الإمارة من الإمارات الغنية في هذا العصر، وطبيعي أن تنعكس حياة الثراء والغنى على المشتغلين بالمال وجمعه، فتجعل منهم طبقة ثرية متميزة.

وتميزت دانية والجزائر الشرقية ميورقة ومنورقة ويابسة وفرمنتيرا بالزراعة؛ وذلك لكثرة الأنهار التي تخترق هذه الجزر، حيث اشتغل أهلها بالزراعة وتميزوا بها(٧٠).

ونتيجة للحياة الاقتصادية المزدهرة التي عاشها سكان هذه الإمارة، فقد انتشرت حياة البذخ والترف واللهو والمجون، ولم تقتصر مظاهر ذلك على عِلْية القوم، بل شملت عامة الناس، وخاصة الشعراء، كما يشير الشاعر إدريس بن

---

(٦٧) انظر: ابن عذاري: البيان المغرب، ج٣، ص٢٢٨، لسان الدين ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص٢٢١-٢٢٢.

(٦٨) انظر: ابن بسام: الذخيرة، ق٣م١، ص٣٩٥-٣٩٧.

(٦٩) عبدالله بن زيري الغرناطي (ت٤٨٣هـ)، كتاب التبيان، مذكرات الأمير عبدالله، نشر وتحقيق ليفي بروفنسال، دار المعارف بمصر، ١٩٥٥، ص٧٧-٧٨.

(٧٠) انظر هذه الدراسة، ص٥، ص٦، ص٧، ص٨.

اليماني اليابسي(٧١) وهو يلبي دعوة من يدعوه إلى حضور أحد مجالس اللهو، حيث يقول(٧٢):

لبيك لبّيك داعي اللهو من كثب   إلى معاطفه الأغصان في الكتب

ومقابل حياة اللهو والترف والثراء، التي انتشرت كانت هناك ردّة فعل معاكسة تمثلت في ظهور تيار زهدي، وميل بعض الناس إلى الزهد والعزلة في هذه الحياة، والابتعاد عن الناس ومجالسهم وقصورهم، وقد ظهر هذا الاتجاه في نتاج بعض الشعراء في دانية والجزائر الشرقية، كما سنرى في حديثنا عن اتجاهات الشعر في دانية والجزائر الشرقية وقد كان ازدهار حركة العمران من مظاهر الحياة الاجتماعية في دانية الجزائر الشرقية، وهي بالتالي صدى للحياة الاقتصادية المزدهرة، فقد اهتم الأمراء بإنشاء المدن وتخطيطها، كما لاحظنا ذلك عند مجاهد عندما غزا سردانية الذي بدأ بإنشاء مدينة له ولأهله وأسرته.

كذلك اهتم الأمراء ببناء القصور البديعة المليئة بالذخائر من الذهب والجواهر، مثل قصر الحبور في دانية، وقصر الناصرية في جزيرة ميورقة. وقد استطاع الشعراء -كما سنرى- تصوير هذه القصور وتخليدها بشعرهم.

أما المرأة في دانية والجزائر الشرقية، فقد كانت ذات منزلة عالية، وكان لها دَوْر في إدارة شؤون الحكم والسياسة، وتوجيه الجيوش، فقد كانت زوج مجاهد العامري، وهي نصرانية تمارس دورها كزوجة لأمير وقائد عسكري، فقد حاولت أن تثني مجاهداً عن غزو سردانية؛ لأن هذا الغزو كان موجهاً ضد النصارى، وهي لا تريد أن ترى دماء نصرانية مراقة، كذلك أمه جود النصرانية كان لها دور كذلك إذْ

---

(٧١) إدريس بن اليماني، أبو علي شاعر جليل، عالم، ينتجع الملوك، فينفّق عليهم، وشعره كثير مجموع، ولم يكن بعد ابن درّاج من يجري عندهم مجراه، وكان لا يمدح إلا بجائزة وكان يقول: أشعاري مشهورة وبنات صدري كريمة، فمن أراد أن ينكح بكرها، فقد عرف مَهْرها، وكانت جائزته مائة دينار وقد توفي سنة ٤٥٠هـ أو ٤٧٠هـ.

- انظر ترجمته في : الحميدي: جذوة المقتبس، ص١٧٠، ابن بسام: الذخيرة (ق م ص،، ابن سعيد، المغرب ج١، ص٤٠٠، الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٢، ص٣٢٧-٣٢٨، ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، ج١، ص١٦١-١٦٢، المقرّي، نفح الطيب، ج٥، ص٢١٦.

(٧٢) ابن بسام: الذخيرة، ق٣م١، ص٣٥٣.

آثرت البقاء عند قومها، عندما عاد مجاهد من سردانية[73].

وعُرِفَتْ المرأة الدانيّة بمكانتها العلمية والأدبية، فقد انتشر العلم بين الجواري، فوجدت الجارية العالمة الأديبة اللغوية -كما نرى ذلك في جارية مجاهد (العبادية) جارية المعتضد) التي أهداها إلى المعتضد فقد كانت أديبة، شاعرة، نحوية، تميزت بالظرف وحدة الذكاء، ولم يستطع علماء إشبيلية[74] على براعتهم في علوم اللغة وآدابها مجاراتها في غريب اللغة[75].

واحتل الكتاب في هذه الإمارة مكانة بارزة؛ نظراً لحاجة كل دولة لمثل هؤلاء، وكذلك حاجة الأمراء إليهم، ليعينوهم في تصريف أمور الدولة والحكم، أكثر من حاجتهم إلى شاعر يمدحهم، ويتغنى ببطولاتهم وعطاياهم.

ولذلك كان الكاتب رجل حكم وسياسة، وكثيراً ما يجمع بعض الكتّاب بين لقبي الوزارة والكتابة[76].

وكان من أشهر هؤلاء الكتاب في هذه الإمارة: أبو محمد بن عبدالبر[77]، وابن

---

(٧٣) عنان، دول الطوائف، ص١٩٥.

(٧٤) اشبيلية: مدينة كبيرة بالأندلس غربي قرطبة بينهما ثلاثون فرسخاً، وهي مدينة قديمة ويقال أن الذي بناها هو يوليوس قيصر (انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج١، ص١٩٥، البغدادي، مراصد الاطلاع، ج١، ص٨٠، الحميري، الروض المعطار، ص٥٨).

(٧٥) المقّري، نفخ الطيب، ج٤، ص٢٨٣، وانظر كذلك: عمر رضا كحالة: أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٣، ١٩٧٧م، ص٢٢٧ وكذلك: زينب العاملي، الدر المنثور في طبقات ربات الخدور، المطبعة الأميرية، القاهرة ١٣١٢هـ، ص٣٢٧.

(٧٦) انظر حول خطة الكتابة: (المقري: نفخ الطيب، ج١، ص٢١٧، إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي، عصر الطوائف والمرابطين، دار الثقافة. بيروت، ط٧، ١٩٨٥، ص٨٢، فايز القيسي: أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري، دار البشير للنشر والتوزيع، عمّان، ط١، ١٩٨٩، ص٤٢).

(٧٧) هو أبو محمد عبدالله بن أبي عمر يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبدالبر، من أعلام الكتابة في عصره، ومن أهل الأدب البارع والبلاغة الرائعة والتقدم في العلم والذكاء، مات قبل أبيه، بعد الخمسين واربعمائة، كما يذكر الحميدي، (انظر ترجمته في الحميدي: جذوة المقتبس، ص٢٦٨، ابن خاقان، قلائد العقيان، ص٥٣٨، ابن بسام، الذخيرة، ق٣م١، ص١٢٥، ابن سعيد، المغرب، ج١، ص٤٠٢.

أرقم[78]، وابو عبدالله بن مسلم[79]، وابن غرسية الذي كان كاتباً وشاعراً.

الإطار الفكري

لقد كان من نتائج ثورة قرطبة وقيام الفتنة البربرية، أن ظهرت دول الطوائف التي اصبحت عواصمها مراكز إشعاع فكري وثقافي بارز، وكان لأصحاب الحكم في هذه العواصم دورٌ بارز في اجتذاب العلماء والأدباء، ورعاية العلم، وكان التنافس قوياً بين هؤلاء الأمراء في رعاية العلماء واحتضان الأدباء الشعراء والكتّاب[80].

وقامت مدينة دانية، عاصمة هذه الإمارة بدور متميز في ازدهار الحركة الفكرية في الأندلس في القرن الخامس الهجري، وساعد على ذلك مجموعة من العوامل، اهمها:

أولاً: اهتمام مجاهد العامري وابنه إقبال الدولة بالحركة الفكرية والثقافية، في هذه الإمارة، وخاصة في مجال العلوم الدينية (من فقه وعلوم قراءات وعلوم حديث)، والعلوم اللغوية والعقلية، وقد سبق أن أشرنا إلى أقوال المؤرخين في هذا المجال[81].

ولعل ذلك يعود إلى أن مجاهداً كان من كبار مثقفي عصره، وكان محباً للعلم والعلماء ومرفقاً بهم، وقد شارك مجاهد في حركة التأليف في دانية إذ «ألف في العروض كتاباً يدل على قوّته فيه»[82].

---

(٧٨) هو عبدالعزيز بن محمد بن أرقم النميري، سكن المرية، وأقام بدانية في عهد إقبال الدولة، وكتب عنه، ثم انتقل إلى المعتصم بن صمادح، وتوفي في خلافة المعتضد بن عباد. (انظر ترجمته في : ابن خاقان، قلائد العقيان، ص٥٣٨-٥٤٤، ابن بسام، الذخيرة ، ق٣م١، ص٣٦٠).

(٧٩) هو أبو عبدالله محمد بن مسلم وصفه ابن بسام بقوله: «آية الزمن، ونهاية الفطنة واللَّسَن، نفث بالسحر، واغترف من البحر، نظم الدرر بلألاء من الدر» وقد كان أبو عبدالله رسولاً عن إقبال الدولة إلى بعض أمراء الطوائف، حين نازعه المقتدر بن هود أحد الحصون (انظر ترجمته في، ابن بسام، الذخيرة، ق٣م١، ص٤٢٧، ابن سعيد، المغرب، ج٢، ص٤٠٥).

(٨٠) فايز القيسي، أدب الرسائل في الأندلس، ص٥١.

(٨١) انظر ص١٦.

(٨٢) الحميدي، جذوة المقتبس، ص٣٥٤. وانظر: ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ج١٧، ص٨١.

وكان مجاهد محباً لجمع الكتب، وتشجيع العلماء على التأليف والتصنيف؛ لتكون بين أيدي الباحثين، وكان يفتخر بوجود هذه الكتب في مكتباته وخزائنه(٨٣)، وكان يدفع الجوائز والهدايا القيمة، مقابل كتاب يحصل عليه، أو يقوم مؤلفه بكتابة عبارة تشير إلى أن هذا المصنف قد ألفه له؛ ليتفاخر بذلك أمام نظرائه من ملوك الطوائف، فقد أرسل مجاهد إلى أبي تمام بن غالب بن عمر، المعروف بابن التياني(٨٤) الف دينار هدية له، على أن يزيد في ترجمة كتابه المسمى بـ (كتاب تلقيح العين) عبارة «مما ألفه تمام بن غالب لأبي الجيش مجاهد»، فرد ابن التياني الدنانير ورفض ذلك، وقال: «والله لو بُذِلَتْ لي الدنيا على ذلك ما فعلت، ولا استجزت الكذب، فإنّي لم أجمعه له خاصة، لكن لكل طالبٍ عامة)(٨٥).

أما إقبال الدولة، فعلى الرغم من اختلافه عن أبيه في اتجاهاته السياسية والحربية، واهتمامه بجمع المال وتنمية الموارد الاقتصادية في دولته، إلا أنه كان محباً للعلماء والعلوم الفقهية واللغوية، كما سبق أن أشرنا إلى ذلك، ولكن هذا الحب بقي تقليداً لنهج أبيه الذي اتبعه مع هؤلاء العلماء، وحبه للعلوم المختلفة، يتضح ذلك من خلال الإشارة الواضحة التي ذكرها ابن سعيد، حيث يقول «وحذا حذو أبيه في الإقبال على العلماء إلا أنَّ ذلك كان تطبّعاً لا طبعاً»(٨٦).

لقد أدى اهتمام مجاهد العامري وابنه إقبال الدولة بالعلم والعلماء، إلى جعل دانية مركز اشعاع علمي في شرق الأندلس في عصر ملوك الطوائف.

أما العامل الثاني الذي أدى إلى ازدهار الحركة الفكرية في دانية، وجعلها مركزاً سياسياً وفكرياً في مطلع هذا القرن، فيتمثل في الأمن والاستقرار الذي شهدته

---

(٨٣) انظر: ابن بسام، الذخيرة، ق٣ م١، ص٢٣.

(٨٤) أبو تمام بن غالب بن عمر المعروف بابن التياني، كان إماماً في اللغة، ثقة في إيرادها، مذكوراً بالديانة والورع، توفي بالمرية سنة ٤٣٦هـ (انظر: الحميدي: جذوة المقتبس، ص١٨٣، الضبّي: بغية الملتمس، ص٢٥٢، عبدالباقي بن عبدالمجيد اليماني (ت٧٤٣هـ): إشارة التعيين في تراجم النحاة واللغويين، تحقيق د. عبدالمجيد دياب، شركة الطباعة العربية السعودية، الرياض، ط١، ١٩٨٦، ص٦٧.

(٨٥) الحميدي: جذوة المقتبس، ص١٨٣.

(٨٦) المغرب، ج٢، ص٢٢٥-٢٢٦.

دانية والجزائر الشرقية، في فترة كانت فيها الحروب والفتن التي وقعت في قرطبة، قد عمت سائر بلاد الأندلس(٨٧)، وأدت إلى الفوضى والاضطرابات، فشعر الناس جميعاً في هذه الفترة بعدم الأمان، وانتشر الخوف بين العامة والخاصة، فبحث العلماء والأدباء عن المدن الآمنة البعيدة عن هذه الأجواء، فكانت مدينة دانية عاصمة مجاهد من أهم المدن التي توفرت فيها حياة الأمن والاستقرار، إلى جانب سعي مجاهد العامري وابنه إقبال الدولة وولاتهما على الجزائر الشرقية طيلة فترة حكمهما إلى جذب العلماء إلى إمارتهم ورعايتهم، لذلك توجه بعض العلماء والأدباء من بقية بلاد الأندلس إلى دانية. أضف إلى ذلك هجرة بعض العلماء والأدباء من صقلية في هذه الفترة إلى الأندلس، واستقرارهم في كثير من مدنها، وخاصة في دانية والجزائر الشرقية، ومن هؤلاء ابن حمديس ومصعب بن أبي الفرات(٨٨).

كذلك كانت تشهد الأندلس بشكل عام رحلة عدد من علماء المشرق إلى مدنها المختلفة، وكان بعض هؤلاء العلماء قد حطوا عصا الترحال في دانية والجزائر الشرقية.

أما العامل الثالث الذي أدى إلى ازدهار الحركة الفكرية في دانية والجزائر الشرقية، فيتمثل في رغبة هؤلاء العلماء والأدباء في التخلص من ويلات تلك الحروب، والفتن التي عمت الأندلس، والتخلص من التعصب المذهبي، والجدل والصراع الفكري بين العلماء، الذي كان مسيطراً على الحياة الفكرية في عاصمة الخلافة آنذاك(٨٩)

---

(٨٧) انظر: جمعه شيخة، «الحياة الفكرية والأدبية بالجزائر الشرقية في القرنين ٥-٦ هـ»، أعمال الملتقى الرابع الإسباني التونسي، سنة ١٩٨٣م، ص٥١.

(٨٨) مصعب بن محمد بن أبي الفرات بن مصعب بن زرارة القرشي العبدري، أبو العرب الشاعر، من أهل صقلية دخل الأندلس، لما تغلب الروم على صقلية سنة ٤٦٤هـ، قدم إلى إشبيلية على المعتمد بن عباد، ثم انتقل إلى ناصر الدولة صاحب ميورقة، وتوفي بها سنة ٥٠٦هـ (انظر ترجمته في: ابن بسام: الذخيرة، ق٤م١، ص٣٠١، ابن الأبار، التكملة، ج٢، ص٧٠٣).

(٨٩) انظر: جمعه شيخة: الحياة الفكرية والأدبية بالجزائر الشرقية في القرنين ٥-٦هـ). ص٥٢.

فقد دفع هذا الصراع ابن حزم الظاهري(٩٠) إلى النزوح إلى جزيرة ميورقة، والعيش بصحبة حاكمها أحمد بن رشيق(٩١)، وقد عقد المجالس والمناظرات بكل حرية، ودون خوف أو قلق، فكان يجادل العلماء، أتباع المذهب المالكي، ويدافع عن مذهبه الظاهري الذي كان يدعو له.

وقد صور العالم اللغوي ابن سيدة(٩٢). هذا اللون من الصراع المذهبي، في مقدمة كتابه «المحكم والمحيط الأعظم في اللغة» حيث يقول: «إني أجد علم اللغة أقلَّ بضائعي، وأيسر صنائعي، إذا أضفته إلى ما أنا به من علم حقيق النحو، وحوشيِّ العروض، وخفيِّ القافية، وتصوير الأشكال المنطقية، والنظر في سائر العلوم

(٩٠) ابن حزم هو أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم، ينتسب إلى جد فارسي، من موالي بني أمية، وكان مولى ليزيد بن أبي سفيان، ولد في قرطبة سنة ٣٨٤هـ وكان والده وزيراً للمنصور ابن أبي عامر، ثم غادر ابن حزم قرطبة سنة ٤٠٤هـ بعد وفاة أبيه إلى المرية، ثم إلى بلنسية، ثم عاد إلى قرطبة، وفي سنة ٤١٤هـ اصبح وزيراً للمستظهر الأموي في قرطبة، ثم تفرغ للعلم والتأليف تاركاً أموز السياسة، ودافع عن مذهبه الظاهري وانتقل إلى ميورقة عند حاكمها الأديب الكاتب أحمد بن رشيق ،وناظر أبا الوليد الباجي سنة ٤٥٢هـ ثم توفي سنة ٤٥٦هـ.
(انظر: الحميدي: جذوة المقتبس، ص٣٠٨، صاعد، طبقات الأمم، ص١١٧، ابن بسام: الذخيرة، ق١م١، ص١٦٧ الضبي: بغية الملتمس، ص٤٠٢، ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ج١٢، ص٢٣٥، القفطي: تاريخ الحكماء، ص٢٣٢. المراكشي: المعجب، ص٩٣، ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٣، ص٣٢٥، الذهبي: تذكرة الحفاظ، ج١، ص٣٤١، والعبر في خبر من غبر، ج٣، ص٢٣٩، ابن شاكر، فوات الوفيات، ج٢، ص٢٧١، المقري: نفح الطيب، ج٢، ص٢٨٧).

(٩١) أبو العباس، أحمد بن رشيق، كان أبوه من موالي بني شهيد، نشأ بمرسية، وانتقل إلى قرطبة، وطلب العلم، واشتهر في صناعة الرسائل، وشارك في سائر العلوم، ومال إلى الفقه والحديث، وبلغ في رياسة الدنيا أرفع منزلة، ولاّه مجاهد العامري الحكم في جزيرة ميورقة، وكان ينظر في أمور ميورقة نظر العدل والسياسة، يجمع العلماء والصالحين، وكان قدومه إلى جزيرة ميورقة حوالي سنة ٤٣٠هـ.
(انظر: الحميدي: جذوة المقتبس، ص١٢٢-١٢٣، ياقوت الحموي، معجم الادباء، ج٣، ص٣٣، ابن الأبار، الحلة السيراء، ج٢، ص١٢٨، والتكملة، ج٢، ص٩١، ابن النديم، الفهرست، ص٢١٢).

(٩٢) ابن سيدة: هو أبو الحسن علي بن اسماعيل، علامة ولغوي مشهور، وكان أعمى، وهو صاحب مؤلفات في اللغة، ولد بمرسية سنة ٣٩٨هـ، ثم انتقل إلى دانية، وانقطع للأمير مجاهد بن عبدالله العامري وتوفي سنة ٤٥٨هـ (انظر ترجمته في: الحميدي، جذوة المقتبس، ص٣١١، صاعد، طبقات الأمم، ص١١٩، ابن خاقان: مطمح الأنفس، ص٢٩١-٢٩٣، ابن شكوال: الصلة، ج١، ص٤١٧، الضبي: بغية الملتمس، ص٤١١، ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ج١٢، ص٢٣١-٢٣٥، القفطي: إنباه الرواة، ص٢٢٥-٢٢٦، ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٢، ص٣٣٠. ابن سعيد: المغرب، ج٢، ص٢٠٩، المقري: نفح الطيب، ج١، ص٢٧١).

الجدلية، التي يمنعني من الإخبار بها، نُبُوُّ طباع أهل الوقت، وما هُمْ عليه من رداءة الأوضاع والمقت»[93].

ولذلك نجد أن رغبة هؤلاء العلماء في العيش في أمن واستقرار، قد تحققت في هذه المدينة، فكثر العلماء الوافدون إليها، وكتبوا في شتى المجالات، وألفوا تصانيف كثيرة في اللغة والفقه والأدب وسائر العلوم الأخرى، وخاصة علم القراءات، الذي لقي عناية خاصة من قبل مجاهدالعامري، كما يقول ابن سعيد المغربي: «كان مجاهد كثير التولّع بالمقرئين لكتاب الله العزيز، حتى عرفت بذلك بلاده، وقصد من كل مكان»[94].

ويشير ابن خلدون إلى اهتمام مجاهد بهذا العلم والمختصين به بقوله: «... وكان معتنياً بهذا الفن، من بين فنون القرآن، لما أخذه به مولاه المنصور بن أبي عامر، واجتهد في تعليمه، وعَرْضه على مَنْ كان من أئمة القراء بحضرته، فكان سهمه في ذلك وافراً، واختصّ مجاهد بعد ذلك بإمارة دانية والجزائر الشرقية، فنفقت بها سوق القراءة، لما كان هو من أئمتها، وبما كان له من العناية بسائر العلوم عموماً، وبالقراءات خصوصاً...»[95].

إنّ هذه الإشارات تؤكد مدى الرعاية والاهتمام، التي حظي بها هذا العلم في مدينة دانية والجزائر الشرقية، حتى أصبحت مركزاً هاماً للقراءات القرآنية والقراء، الذين عُرفوا بشهرتهم الواسعة، ليس في الأندلس فقط، بل في سائر البلاد

---

(٩٣) ابن سيده، علي بن إسماعيل (ت٤٥٨هـ)، المحكم والمحيط الأعظم في اللغة، تحقيق، مصطفى السقا ود. حسين نصار، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط١، ١٩٥٨، ج١، ص١٦.

(٩٤) المغرب في حلى المغرب، ج٢، ص٤٠١.

(٩٥) عبدالرحمن بن خلدون، المقدمة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٤، ١٩٧٨، ص٤٣٧.

الإسلامية، وعلى رأس هؤلاء القراء، أبو عمرو بن سعيد المقريء الداني[٩٦].

وكان لأبي عمرو وتلاميذه من المقرئين دور بارز في ازدهار هذا العلم وتطوره، وانتشاره، واصبحت مدينة دانية مركزاً متخصصاً بتدريس هذا العلم ، فوفد طلاب العلم ليتعلموا القراءات القرآنية على يدي أبي عمرو وغيره من القراء.

ومن هؤلاء القراء أيضاً أحمد بن مطرف المعروف بابن الخطاب[٩٧]. وأبو تمام غالب بن أبي اليمن القطيني[٩٨]. وأبو سعيد خلف بن غصن بن علي الطائي[٩٩]، وغيرهم[١٠٠].

وخلاصة القول في حديثنا عن علم القراءات في دانية أن سرّ اهتمام الناس بهذا العلم يعود إلى أمرين:

<u>أولهما</u> : اهتمام مجاهد العامري بهذا العلم، كما ذكرنا.

<u>ثانيهما</u> : ميل سكان هذه الإمارة إلى التدين، وحبّهم لمصدر عقيدتهم، وهو القرآن الكريم، نظراً للحروب والمحن والفتن التي تعرض لها المسلمون في الأندلس في أوائل هذه القرن، ولقربهم من الأعداء، الذين يتحينون الفرص لضرب المسلمين في معاقلهم، وفي ظل هذه الظروف وجد أهل دانية والجزائر الشرقية كغيرهم من

---

(٩٦) أبو عمرو، عثمان بن سعيد بن عثمان بن سعيد الأموي المقريء، من أهل قرطبة، سكن دانية، واستوطنها بعد عودته إلى الأندلس من رحلته إلى المشرق حتى عرف بها، كان أحد الأئمة في علم القرآن، ورواياته وتفسيره ومعانيه وطرقه وإعرابه، وكان حسن الخط، جيد الضبط، من أهل الحفظ والعلم والذكاء والفهم، متفنناً بالعلوم، جامعاً لها، وكان ديناً فاضلاً، وقد توفي أبو عمرو في دانية سنة ٤٤٤هـ (انظر: ابن بشكوال: الصلة، ج٢، ص٣٨٦، ابن الأبار: التكملة لكتاب الصلة، ج٢، ص٦٩٨، ابن فرحون: الديباج المذهب، ج٢، ص٨٤، ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ج١٢، ص١٢١-١٢٤، المقري: نفح الطيب، ج٢، ص٣٣٩-٣٤٢).

(٩٧) هو أحمد بن مطرف المعروف، بابن الخطاب، من أهل قرطبة، يكنى أبا بكر، خرج في الفتنة إلى الثغر، ثم انتقل إلى جزيرة ميورقة، وتوفي بها سنة ٤١٦هـ (انظر ابن بشكوال: الصلة، ج١، ص٤٠).

(٩٨) أبو تمام غالب بن أبي اليمن القطيني، درس بميورقة ثم بدانية على يد أبي عمر والمقرىء، وتوفي سنة ٤٦٥هـ (ابن الأبار: الذيل والتكملة، ج٢، ص٥١٧، ابن بشكوال، الصلة، ج١، ص٤٣٢).

(٩٩) من أهل قرطبة، كان أمياً ولم يكن بالضابط للأداء، ولا بالحافظ للحروف، وكان خيراً فاضلاً، سكن جزيرة ميورقة، وتوفي بها (انظر: ابن بشكوال: الصلة، ج١، ص١٦٣).

(١٠٠) انظر: عصام سالم سيسالم: جزر الأندلس المنسية، ص٤٦٩-٤٧٧.

الأندلسيين، أنه لا بد من العودة إلى العقيدة، والتمسك بالدين الحنيف[101].

أما علم الفقه فقد كان من العلوم الشرعية، التي نالت الاهتمام والرعاية، من مجاهد العامري وابنه إقبال الدولة، وولاة الجزائر الشرقية في هذا القرن. وقد كان للفقهاء منزلتهم ، ومكانتهم في الدولة، واستلموا مناصب رفيعة في الدولة كالقضاء والولاية، وكان لهؤلاء دور بارز في تطور هذا العلم وانتشاره، فأقبل طلاب العلم في دانية والجزائر الشرقية على هؤلاء الفقهاء؛ لأخذ العلم عنهم والاستفادة منهم.

وكان على رأس هؤلاء الفقهاء، الفقيه المحدث عبدالله المعيطي، الذي غادر قرطبة بعد الفتنة واستقر في دانية، حيث ولاّه مجاهد العامري الخلافة في دانية والجزائر الشرقية، وتعتبر ولاية مجاهد لهذه الفقيه من أهم مظاهر اهتمام مجاهد بالفقهاء وسائر العلماء، وقد ساعد ذلك على استقطاب عدد من الفقهاء إلى دانية والجزائر الشرقية، مما أسهم في إثراء الحركة الفقهية، وساعد في ظهور جيل جديد من الفقهاء في القرن الخامس الهجري في هذه الإمارة.

ومن هؤلاء الفقهاء المشهورين أحمد بن رشيق الذي كان فقيهاً ومحدثاً وكاتباً وشاعراً، اهتم به مجاهد العامري وكانت له منزلة عظمية عنده، إذ ولاّه الحكم في جزيرة ميورقة، ويشير الحميدي إلى اهتمام مجاهد بابن رشيق، بقوله: «وقدّمه الأمير الموفق أبو الجيش مجاهد العامري على كل من في دولته، لأسباب أكدت له ذلك عنده، من المودة والثقة والنصيحة والصحبة في النشأة»[102].

ويعتبر ياقوت الحموي أن من أعظم فضائل مجاهد العامري هي: «تقديمه للوزير أبي العباس أحمد بن رشيق وتعويله عليه في بسط العدل...»[103].

وقد كان لهذا الفقيه والكاتب والمحدث والشاعر دور عظيم في بعث الحركة الفكرية والعلمية في هذه الإمارة عامة، وفي جزيرة ميورقة خاصة، تمثلت في حماية العلماء والأدباء، وعلى رأسهم ابن حزم الظاهري، الذي رحل إلى ميروقة، مدافعاً عن مذهبه الظاهري، فكانت بذلك ميورقة ملجأ لكل طالب علم، ولكل عالم

---

(١٠١) انظر: جمعه شيخه: الحياة الفكرية والأدبية بالجزائر الشرقية في القرنين ٥ ،٦، ص٦١-٦٢.

(١٠٢) الحميدي: جذوة المقتبس، ص١٢٢.

(١٠٣) : معجم الأدباء، ج٣، ص٢٣.

مضطهد(١٠٤). ومن هؤلاء الفقهاء في عهد مجاهد العامري في دانية، الفقيه أبو عمر أحمد بن الحسين(١٠٥). وقد كان من أهل العلم والفقه والأدب والشعر، ومن هؤلاء الفقهاء أيضاً: عبدالله بن خميس الأنصاري(١٠٦) الذي تولى القضاء بدانية في عهد علي بن مجاهد سنة ٤٤٢هـ ومن هؤلاء أيضاً أبو الوليد بن المارية(١٠٧)، وأبو عبدالله محمد بن موسى بن عمار الكلاعي(١٠٨). وأبو العباس الجزيري(١٠٩). ومحمد بن مبارك

---

(١٠٤) المصدر السابق، ج٣، ص٣٣.

(١٠٥) أبو عمر أحمد بن الحسين، عالم وفقيه وأديب شاعر، أرسله مجاهد العامري في رسالة إلى المعز ابن باديس صاحب افريقية، وبصحبته إقبال الدولة بن مجاهد العامري، وقد جرت له بالقيروان أخبار وأجوبة حسنة، وكتب إلى علمائها بمائة مسألة في فنون العلم أجاب عنها أحد علماء القيروان، فكتب القاضي أبو عمر للمعز في ذلك فقال:

يا معزاً أعزّ أهل الدين ... وتردى بكلّ فضل مبين

مائة كالبدور أزهى وأضوى ... في عيون الأذهان لا في الفنون

مُقْفَلات فإن منـنتَ بإذن ... فُتِحَتْ في فنائك الميمون

وفدت قاصدات علم وفقهٍ ... ومعانٍ غريبة وفنون

فمن القيروان تبغي المعاني ... وبها نشر كل علم مصونِ

وقد كان لهذه المناقشات دور كبير في تدعيم المذهب المالكي في إفريقية، وكانت وفاة أبي عمر سنة ٤٤٠هـ (انظر: القاضي عياض: ترتيب المدارك، ج٨، ص٤٣).

(١٠٦) عبدالله بن خميس بن مروان الأنصاري، من أهل بلنسية، يكنى أبا محمد، وكان من أهل العلم والفضل، صرفه علي بن مجاهد عن القضاء بدانية بعد سعاية أحد فقهائها، وهو محمد بن مبارك الصائغ، ووَلّى مكانه أبا عمر بن الحذاء، وهذا الفقيه أي عبدالله بن خميس هو الذي صلى على أبي عمرو المقرىء عند وفاته في دانية سنة ٤٤٤هـ (انظر: ابن الأبار: التكملة لكتاب الصلة، ج٢، ص٨٠١).

(١٠٧) أبو الوليد بن المارية أو البارية: من فقهاء جزيرة ميورقة، له مع أبي محمد بن حزم الظاهري مناظرة فقهية حول المذهب الظاهري، وقد تعصب فيه ضد ابن حزم، وشاركه في ذلك أبو الوليد الباجي.(انظر: القاضي عياض: ترتيب المدارك، ج٨، ص١٥٨).

(١٠٨) أبو عبدالله محمد بن موسى بن عمار الكلاعي، من أهل ميورقة، كان من أهل العلم والفهم، وغلب عليه علم التوحيد، والكلام فيه، وألف في ذلك كتاب الأعلام، وكان حسن العبارة جيد القريحة، (انظر: القاضي عياض: ترتيب المدارك، ج٨، ص١٥٩).

(١٠٩) أبو العباس الجزيري، من جزيرة شقر، وسكن دانية، وكان بها يؤدب أبا جعفر أحمد بن أبي عامر ابن غرسية الكاتب، (انظر: ابن الأبار: المعجم في اصحاب القاضي الصدفي، ص٣٠٦.

الصائغ(١١٠)

وأبو عمر الحذاء(١١١).ومحمد بن سعيد الميورقي(١١٢). وكذلك كان من المشهورين في الفقه في جزيرة ميورقة أبو الوليد الباجي(١١٣) الذي كانت له مناظرات مع ابن حزم حول مذهبه الظاهري، وقد تضافر كل من الفقيه محمد بن سعيد الميوقي وأبو الوليد بن البارية مع أبي الوليد الباجي ضد ابن حزم إلى أن سجن(١١٤).

وقد جمعت مدينة دانية والجزائر الشرقية العديد من الفقهاء غير ما ذكرت، وكان لكل منهم دور بارز في تطور هذا العلم ونشره بين الطلبة.

كذلك استطاع الفقهاء عموماً من كان منهم على المذهب المالكي، وهو المذهب السائد في الأندلس، أو من كان على المذهب الظاهري كابن حزم، ومن تبعه على هذا المذهب -استطاع هؤلاء بعث روح المناظرة وتطويرها بين العلماء، وهي تعبير واضح عن الحرية الفكرية والدينية بشكل خاص، التي نعمَ بها هؤلاء العلماء في هذه الإمارة،

(١١٠) محمد بن مبارك، يعرف بابن الصائغ، من أهل دانية يكنى أبا عبدالله، كان فقيهاً، أخذ عن أبي عمرو المقري، وغيره في دانية توفي سنة ٤٧٦هـ (انظر: القاضي عياض: ترتيب المدارك، ج١، ص١٥٩، ابن بشكوال: الصلة، ج٢، ت٥٢٤).

(١١١) هو أحمد بن محمد بن يحيى بن الحذاء التميمي، فقيه قرطبي، محدث مشهور، ولي القضاء في دانية في عهد إقبال الدولة، بعد الفقيه عبدالله بن خميس الأنصاري. (انظر الضبي: بغية الملتمس،ص١٦٣).

(١١٢) محمد بن سعيد الميورقي، من أهل دانية يكنى أبا عبدالله، رحل حاجاً، فأدى الفريضة في سنة ٤٥٢هـ وصدر إلى ميورقة، وقعد لإقراء الفقه والأصول فيها، ولما دخل ابن حزم ميورقة، كتب محمد بن سعيد إلى أبي الوليد الباجي، فسار إليه، وتضافر عليه جميعاً، وناظراه فأفحماه، وأخرجاه منها، وكان هو السبب في العداوة بين الباجي وابن حزم (انظر: ابن الأبار: التكملة لكتاب الصلة، ج١، ص٣٩١).

(١١٣) أبو الوليد الباجي هو سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب بن وارث القاضي، المحدث الأديب الشاعر، أصل آبائه من بَطَلْيوسَ، انتقلوا إلى باجة الأندلس، ولد أبو الوليد سنة ٤٠٣هـ، ورحل إلى المشرق سنة ٤٢٦ هـ، ثم رجع إلى الأندلس، فحاز الرياسة فيها، وله مؤلفات في الفقه كثيرة، توفي بالمرية سنة ٤٩٤هـ انظر ترجمته في: (ابن خاقان: قلائد العقيان، ج٣، ص٥٩٩-٦٠٤، القاضي عياض ترتيب المدارك، ج٤، ص٨٠٢-٨٠٧، ابن بشكوال: الصلة ص١٩٧، الضبي، بغية الملتمس، ص٣٠٢، ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ج١١، ص٢٤٦-٢٥١، ابن فرحون، الديباج المذهب، ص١٢٠).

(١١٤) انظر (ابن الأبار: التكملة لكتاب الصلة، ج١، ص٣٩١، عصام سالم سيسالم: جزر الأندلس المنسية، ص٥٠٥)

ومن أشهر تلك المناظرات المناظرة المشهورة بين ابن حزم الظاهري وأبي الوليد الباجي[115]

أما علم الحديث فقد كان من العلوم الشرعية التي أهتم بها العلماء في دانية والجزائر الشرقية، ولا سيّما إنه يتناول المصدر الثاني من مصادر التشريع الإسلامي، وقد استطاع علماء دانية والجزائر الشرقية أن يساهموا في حفظ الأحاديث النبوية الشريفة وروايتها، ونقلها إلى الرواة الآخرين وطلاب العلم في معظم البلاد الإسلامية، إذ كان رواة الحديث ينتقلون من دانية والجزائر الشرقية إلى مختلف المدن الأندلسية، وكذلك كانت لهم رحلات إلى المشرق لأداء فريضة الحج ،أو لطلب العلم، وكان هؤلاء ينتقلون من مدينة إلى أخرى، وفي كل مدينة كانوا يَسْمَعون الحديث أو يُسْمِعُوه لمن يرغب في روايته[116].

وقد تميز علماء الحديث في دانية والجزائر الشرقية بسعة ثقافتهم وتنوع جوانب معرفتهم.

ومن هؤلاء أحمد بن رشيق الذي كان كاتباً ومحدثاً وفقيهاً وشاعراً، وكذلك ابن حزم الظاهري الذي كان أيضاً فقيهاً ومحدثاً.

ومن المحدثين في هذه الإمارة الذين عرفوا بروايتهم للحديث، وثقة علماء الحديث بهم علي بن رجا بن مُرَجّى[117] ،ومحمد بن سعدون العبدري الميورقي[118].

---

(١١٥) انظر: ابن الأبار، التكملة لكتاب الصلة، ج١، ص٣٩١.

(١١٦) انظر: جزر الأندلس المنسيّة، ص٤٨٤.

(١١٧) هو أبو الحسن علي بن رجا بن مُرَجّى، فقيه ومحدث وأديب شاعر، من أهل بيت جليل، وله في العلم والأدب والسخاء والكرم، وحسن الدين، والتصاون حظ موفور، مات بجزيرة ميورقة سنة ٤٤٧هـ(انظر ترجمته في: الحميدي: جذوة المقتبس، ص٣١٣-٣١٤).

(١١٨) هو محمد بن سعدون بن مُرَجّى بن سعدون بن مرَجّي العبدري، من أهل ميورقة، يكنى أبا عامر، رحل إلى المشرق ودخل بغداد، وكان فقيهاً حافظاً (انظر: الذهبي: العبر في خبر من غبر، ج٤، ص٥٧).

وأحمد بن العجيفي العبدري([119])، وأحمد بن اسماعيل بن دليم الميورقي([120])، وعثمان بن دليم الميورقي([121])، وابن علّوز([122]) المشهور بابن العنصري، وعبدالله بن الفضل البُونْتي([123]) وقد كان البونتي من العلماء الذين وفدوا على جزيرة ميورقة لأخذ علم الحديث عن علمائها ومحدثيها، وبقي فيها حتى وفاته عام ٤٩٠هـ.

ولقد احتضنت مدينة دانية والجزائر الشرقية عدداً من علماء اللغة في هذا القرن، وقد كان لهؤلاء العلماء دور بارز في تطور هذا العلم وازدهاره. ولقد وجد هؤلاء العلماء من مجاهد العامري كل العناية والاهتمام، إلى حد أن بعض اللغويين كانوا منقطعين لمجاهد العامري، يؤلفون له المؤلفات، ويصنفون له التصانيف في علوم اللغة المختلفة كابن سيده، الذي كان إماماً في اللغة، وفي العربية، وقد ألف لمجاهد العامري كتابين هامين في اللغة أولهما: (المحكم والمحيط الأعظم في اللغة) والثاني: (المخصص). ومن اللغويين الذين اشتهروا بعقد مجالسهم في بلاط مجاهد

---

(١١٩) أحمد بن العجيفي العبدري، أحد فقهاء جزيرة يابسة، يكنى أبا العباس، لقيه القاضي أبو علي ابن سكرة في جزيرة يابسة، وروى عنه بها، وكانت وفاته سنة ٥١٤هـ (انظر: ابن بشكوال: الصلة، ج١، ص٧٢).

(١٢٠) أحمد بن اسماعيل بن دليم القاضي الجزيري، يكنى أبا عمر، بجّاني ميورقي الأصل، تفقه في بجاية، وكان من رواد علم الفقه في جزيرة ميورقة، توفي حوالي سنة ٤٤٠هـ (إنظر: الحميدي: جذوة المقتبس، ص١١٨ الضبي: بغية الملتمس، ص١٧٠، ابن بشكوال: الصلة، ج١، ص٥٥، المراكشي: الذيل التكملة، السفر الخامس، ق١، ص١٣٤).

(١٢١) عثمان بن عبدالله بن اسماعيل بن دليم وكنيته أبو عمر، وهو من جزيرة ميورقة، وهو ابن أخي القاضي أبي عمر أحمد بن اسماعيل بن دليم، تلقى علم الفقه في بجانة قبل الفتنة، وأقرأ الناس الفقه في جزيرة ميورقة، وتوفي سنة ٤٣٤هـ (انظر: ابن بشكوال: الصلة، ج٢، ص٣٨٥).

(١٢٢) هو أحمد بن عبدالله بن موسى بن علوز كنيته أبو علي، فقيه مالكي، ولد في جزيرة ميورقة سنة ٤٤٩هـ، ودرس فيها علم الفقه، ثم كانت له رحلة إلى المشرق، ثم رجع إلى جزيرة ميورقة سنة ٤٧١ هـ (انظر ياقوت الحموي: معجم الأباء، ج٥، ص٢٤٦، ابن الأبار: التكملة، ج١، ص٣٩٨).

(١٢٣) عبدالله بن الفضل بن عمر بن فتح اللّخمي يكنى أبا محمد (ويعرف بالبونْتي)، لأن أصله منها، وسكن دانية، كان أديباً جليلاً ذا حظٍ من اللغة والنحو والشعر، بارع الخط، رائق الوراقة وتوفي بميورقة بعد ٤٩٠هـ. (انظر : ابن الأبار: التكملة، ج٢، ص٨٠٧).

العامري، وفي حضرته أبو العلاء صاعد بن الحسن الربعي اللغوي البغدادي(١٢٤)، ومحمد بن عبدالرحمن بن معمر اللغوي(١٢٥)، ومن هؤلاء اللغويين أيضاً أبو الفتوح ثابت بن محمد الجرجاني(١٢٦) الذي كان قد رحل إلى الأندلس سنة ٤٠٦هـ واستقر في مدينة دانية، وكان مع مجاهد العامري في غزوة سردانية.

ومن هؤلاء أيضاً محمد بن خلصة الشذوني(١٢٧)، وبشار الأعمى النحوي

---

(١٢٤) أبو العلاء صاعد بن الحسن بي عيسى الربعي اللغوي البغدادي، أصله من الموصل، أخذ عن السيرافي والفارسي وغيرهم، دخل المغرب، وحظي عند المنصور بن أبي عامر في الأندلس، ثم اتصل بمجاهد العامري في دانية، وكانت له مجالس مع أدباء دانية في بلاط مجاهد العامري وتوفي سنة ٤١٧هـ في صقلية. (انظر ترجمته في: الحميدي: جذور المقتبس، ص٢٠٤، ابن خاقان: مطمع الأنفس، ص١٤٦، ابن بسام: الذخيرة ق٤، م١، ص٨، ابن بشكوال: الصلة، ج١، ص٥٣٧، الضبي: بغية الملتمس، ص٣١٩، ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ج١١، ص٢٨١، القفطي: إنباه الرواة، ج٢، ص٨٥، ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٢، ص٤٨٨، الصفدي: الوافي بالوفيات، ج١٦، ص٢٣، السيوطي: بغية الوعاة، ج٢، ص٦٣٥، المقري: نفخ الطيب، ج٤، ص٨٤).

(١٢٥) محمد بن عبدالرحمن بن مَعْمَر اللغوي أبو الوليد، من أهل قرطبة، كان حافظاً للغة، مشاركاً في الأدب، من أعلم الناس بالكتب وعللها، استوطن الجزائر الشرقية في كنف مجاهد العامري، وولي الأحكام هناك إلى أن توفي بها سنة ٤٢٣هـ وقد أشار ابن بشكوال في كتاب الصلة إلى أن اسمه عبدالرحمن بن محمد بن معمر. أما ابن الأبار في كتاب التكملة فذكر أن اسمه محمد بن عبدالرحمن بن معمر. (انظر: ابن بشكوال: الصلة، ج١، ص٣١٤، ابن الأبار، التكملة، ج١، ص٣٨٤).

(١٢٦) هو أبو الفتوح ثابت بن محمد الجرجاني قدم الأندلس سنة ٤٠٦هـ كان إماماً في العربية، متمكناً من علم الأدب، مذكوراً بالتقدم في علم المنطق، وكان مع مجاهد العامري في غزوته لسردانية، ثم رجع وجال في أقطار الأندلس، وبلغ إلى ثغورها ولقي ملوكها، وقد أملى في الأندلس شرح كتاب الجمل للزجاجي، وتوفي سنة ٤٣١هـ (انظر ترجمته في الحميدي: جذوة المقتبس، ص١٨٤، ابن بشكوال: الصلة، ج١، ص١٢٣، الضبي: بغية الملتمس، ص٢٥٣، ياقوت الحموي، معجم الأباء، ج٧، ص١٤٥-١٤٨، القفطي: إنباه الرواة، ج١٠، س٢٦٤، الصفدي: الوافي بالوفيات، ج١٠، ص٥٤،، ص٤٦٨-٤٦٩، لسان الدين بن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، ج١، ص٤٥٤، السيوطي: بغية الوعاة، ج١، ص٤٨٢).

(١٢٧) أبو عبدالله محمد بن عبدالرحمن بن أحمد بن فتح بن قاسم بن سليمان بن سويد بن خلصة اللخمي، من أهل بلنسية، كان استاذاً في علم اللسان والأدب، اتصل بمجاهد العامري وابنه إقبال الدولة، ومدحهما، وتوفي بالمرية سنة ٥٢٩هـ (انظر: الحميدي: جذوة المقتبس، ص٥٤، ابن الأبار: تحفة القادم، ص٧، ابن سعيد: المغرب، ج١، ص٤٩٤).

الأديب(١٢٨)، والحسين بن اسماعيل(١٢٩)، وغيرهم.وغيرهم(١٣٠).

ولقد نشطت الحياة الأدبية في مدينة دانية والجزائر الشرقية في هذا القرن، واستطاعت مدينة دانية أن تستقطب عدداً كبيراً من الأدباء وتحتضنهم، في بلاط مجاهد العامري وابنه إقبال الدولة، كما استطاعت جزيزة ميورقة أن تستقطب عدداً من الأدباء إلى بلاط أميرها مبشر بن سليمان.

وانتشرت ظاهرة عقد مجالس الشعر والأدب في بلاط مجاهد العامري، وابنه إقبال الدولة(١٣١) وانتشر النقد الأدبي في هذه المجالس، وخاصة أن مجاهداً كان ناقداً للشعر عالماً بفنونه، «فلا تسلم على نقده قافية»(١٣٢)، ويظهر هذا من خلال نقده لما يسمع من شعر، كما فعل مع إدريس بن اليماني عندما مدحه بقصيدته التي مطلعها:

وَلَرُبَّ ليلٍ قدْ طرقتُ وهمتي		أسرى بها إذ ليسَ يسري كوكبُ

فقد كان مجاهد العامري أثناء إلقاء الشاعر قصيدته «يعبث بيديه في قليل شعرٍ عارضته، استثقالاً للعارفة وبخلاً بالجائزة، وجهلاً بالفائدة، فلما أملقه الأمر، وأعوزه الصبرُ غمز حاجبه بشطر حاجبه، فاختطف القرطاس من يده، وقال –وقد سدّ خياشيمه– إنّ رائحة الشبين على شعرك، تعريضاً له بيابسة جزيرة في البحر كان منها، أكثر ثمرها الشبين، فخجل لمقامه، وتعثر في ذَيْل كلامه، فلما وثبت إليه نفسه وراجعه حِسّه، قال:أيها الأمير إن كنت أسأت في مدحك، فأحسن في منحك، أو قَصُرْتُ

---

(١٢٨) بشار الأعمى: يقول عنه الحميدي: «ذهب عني نسبه، كان نحوياً استاذاً في العربية، شيخاً من شيوخ الأدب، وكان من ناحية الموفق مجاهد بن عبدالله العامري، ومنقطعاً إليه» جذوة المقتبس، ص١٨١–١٨٢ ،انظر كذلك: الضبي: بغية الملتمس، ص٢٥٠ ابن الأبار: التكملة،ج١، ص٢٣٠–٢٣١.
– القفطي:إنباه الرواة، ص٢٤٣–٢٤٤، ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٢، ص٤٨٨.

(١٢٩) هو الحسين بن اسماعيل بن الفضل العتقي، وقد كان عالماً بالنحو وأدب اللغة العربية، وقد تولى القضاء في جزيرة ميورقة، وتوفي سنة ٤٢١هـ (انظر ترجمته في: ابن بشكوال: الصلة، ج١، ص١٤٠).

(١٣٠) انظر: عصام سالم سيسالم، جزر الأندلس المنسية، ص٥٢٩–٥٣٨.

(١٣١) من الأمثلة على انتشار المجالس الأدبية، المجلس المشهور الذي جمع بشاراً الأعمى وأبا العلاء صاعداً البغدادي. انظر: جذوة المقتبس، ص١٨١.

(١٣٢) ابن بسام، الذخيرة، ق٣، م١، ص٢٣.

في وصفك، فأطل في عرفك»(١٣٣).

ويشير ابن حيان إلى أن مجاهداً كان يتعقب شعر الشاعر، ويتوقف عند كل لفظة أو سرقة، فيقول: «على أنه كان -فيما بلغني- مع أدبه من أزهد الناس في الشعر، وأحرمهم لأهله، وأنكرهم على منشده، لا يزال يتعقبه عليه كلمة كلمة، كاشفاً لما زاغ فيه من لفظة وسرقة، فلا تسلم على نقده قافية، ثم لا يفوز المتخلص من مضماره على الجهد لديه بطائل، ولا يحظى بنائل، فأقصر الشعراء لذلك عن مدحه، وخلا الشعر من ذكره»(١٣٤).

ويتضح من هذا النص ما لدى مجاهد من ملكه نقدية، كان يستغلها في الحكم على ما يلقى بين يديه من شعر، وكنا قد أشرنا إلى أنه كان قد ألّف كتاباً في العروض. وعلى الرغم مما ذكره ابن حيان إلاّ أن عدداً كبيراً من الشعراء، كانوا قد قصدوا مجاهداً ومدحوه بقصائد مشهورة، إضافة إلى أننا نجد في كتب التراجم بعض العبارات التي تشير إلى انقطاع بعض الأدباء لمجاهد في دانية، كبشار الأعمى وابن سيده، فالضبّي يقول في ترجمته لبشار: «وكان في ناحية الموفق مجاهد بن عبدالله العامري ومنقطعاً إليه(١٣٥).

أمّا الحميدي فيذكر أن ابن سيدة كان منقطعاً لمجاهد وابنه علي(١٣٦). وهي عبارات تشير إلى ملازمة هؤلاء الشعراء لهذا الأمير، ولا بد من وجود شعر كثير قالوه فيه لكنه لم يصل إلينا.

وقد عرفت دانية والجزائر الشرقية عدداً من الشعراء، الذين عاشوا في بلاط مجاهد العامري وابنه إقبال الدولة، وولاة الجزائر الشرقية، وخاصة ناصر الدولة مبشر بن سليمان في ميورقة، ومن هؤلاء الشعراء: أبو بكر محمد بن القاسم

---

(١٣٣) المصدر نفسه، ق٣م١، ص. ٣٤.

(١٣٤) ابن بسام: الذخيرة، ق٣م١، ص٢٣،

(١٣٥) بغية الملتمس، ص. ٢٥.

(١٣٦) انظر: جذوة المقتبس، ص٢١١.

المعروف باشكنهاده أو اشكهباط([136])، وقد كان هذا الشاعر قد غادر الأندلس عند الفتنة راحلاً إلى المشرق، ثم عاد إلى الأندلس بعد ذلك، واستقر في بلاط مجاهد العامري في دانية واختص بمدحه.

ومن هؤلاء الشعراء سعيد بن أبي مخلد الأزدي([138]). وابن مقانا الأشبوني([139]). وأحمد بن محمد بن أحمد بن برد([140])، ومنهم أيضاً ابن سيده الذي كان لغوياً وكاتباً و«شاعراً منقطعاً للأمير أبي الجيش مجاهد العامري وابنه إقبال الدولة»([141]) ومن هؤلاء الشعراء الذين اتصلوا بمجاهد العامري، الأديب عبدالله بن اسماعيل الجياني وهو شاعر «نشأ بسفاقس من أعمال افريقية ودخل الأندلس، واتصل بالموفق مجاهد صاحب دانية والجزائر، وكان من ذوي النباهة والنزاهة توفي ذبيحاً سنة ٤١٥هـ)([142]).

ومن الشعراء الذين اتصلوا ببلاط مجاهد وابنه علي أبو محمد عبدالله

---

(١٣٧) أبو بكر محمد بن القاسم، رحل إلى المشرق عند وقوع الفتنة، ثم عاد إلى الأندلس وحل بحضرة دانية، ومدح مجاهداً العامري، وكان شاعراً وكاتباً. (انظر: ابن سعيد، المغرب، ج١، ص٣١، المقري: نفخ الطيب، ج٢، ص٣٠٣).

(١٣٨) هو سعيد بن أبي مخلد شاعر مدح مجاهداً العامري يقول عنه الحميدي: أديب شاعر أدركت زمانه، وأظنه غريباً، ثم يذكر له بعض الأبيات في مجاهد العامري: (انظر: الحميدي، جذوة المقتبس، ص٢٣٢، وانظر كذلك: الضبي: بغية الملتمس، ص٣١٢-٣١٣).

(١٣٩) ابن مقانا الاشبوني، أبو زيد عبدالرحمن القبذاق، أديب وشاعر، اتصل بمجاهد العامري ومدحه في دانية (انظر: الحميدي: جذوة المقتبس، ص٢٧٩، ابن بسام، الذخيرة، ق٢م٢، ص٧٩٦، الضبي: بغية الملتمس، ص٣٧١، عبدالواحد المراكشي: المعجب ص١١٧-١٢١، ابن دحية: المطرب، ص٤٣، ابن سعيد، المغرب، ج١، ص٤١٣، المقري: نفخ الطيب، ج١، ص٤٢٣).

(١٤٠) هو أحمد بن محمد بن أحمد بن برد مولى أحمد بن عبدالملك بن عمر بن محمد بن شهيد، أبو حفص الكاتب، مليح الشعر، بليغ الكتابة، من أهل بيت أدب ورياسة له رسالة السيف والقلم وهو أول من سبق إلى القول في ذلك، وقد مدح مجاهداً العامري في أبيات شعرية ضمنها هذه الرسالة ويشير الحميدي: إلى أنه رآه بالمرية بعد ٤٤٠هـ (انظر ترجمته في: الحميدي: جذوة المقتبس، ص١١٥، ابن بسام: الذخيرة، ق٢م١، ص١٨، ابن خاقان، مطمح الأنفس، ص٢٠٧، ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج٥، ص٤١-٤٣، ابن سعيد، رايات المبرزين، ص٧٠).

(١٤١) الحميدي، جذوة المقتبس، ص٣١١.

(١٤٢) ابن الأبار: التكملة، ج٢، ص٢٢٥.

ابن ساره الشنتريني([143])، والفضل بن أحمد بن دراج القسطلي([144])، وأبو القاسم بن خيرون([145]). والوزير الحكيم أبو محمد المصري([146]) ومن هؤلاء الشعراء أيضاً ابن غرسية، ومحمد بن عمار الكلاعي([147]).

وفي عهد ناصر الدولة أمير ميورقة كان هناك عدد من الشعراء المشهورين، الذين اتصلوا بهذا الأمير ومدحوه أهمهم: ابن اللبانة الذي مدح ناصر الدولة في عدد من القصائد. وكذلك أبو العباس أحمد بن البني([148])، وابن حمديس.

---

(١٤٣) أبو محمد عبدالله بن سارة الشنتريني، كان شاعراً ناثراً ناظماً، ماهراً، إلا أنه كان قليل الحظ، مدح مجاهداً العامري في دانية، وتوفي سنة ٥١٧هـ (انظر ترجمته في: ابن بسام: الذخيرة ق٢، م٢، ص٨٣٤، ابن دحية: المطرب، ص٧٨، الدلجي: الفلاكة والمفلوكون، ص٧١-٧٢، ابن سعيد: المغرب، ج١، ص٤١٩، ابن خلكان: وفيات الأعيان).

(١٤٤) هو الفضل بن أحمد بن دراج القسطلي كان أحد الشعراء المشهورين، الذين اتصلوا بعلي ابن مجاهد العامري ومدحه ببعض قصائده.(انظر ترجمته: الحميدي، جذوةالمقتبس، ص٣٢٧، الضبي، بغية الملتمس، ص٤٤٣، ابن سعيد، المغرب، ج٢، ص٦١.

(١٤٥) أبو القاسم بن خيرون، سكن دانية، وقد كان أحد شعراء إقبال الدولة، وقد مدح المقتدر بن هود عند استيلائه على دانية سنة ٤٦٨هـ (انظر ترجمته في: ابن سعيد، المغرب، ج٢، ٤١٩).

(١٤٦) أبو محمد عبدالله بن خليفة القرطبي، أصلهُ من قرطبة، اتصل بإقبال الدولة علي بن مجاهد العامري في دانية ومدحه. (انظر ترجمته في: ابن بسام: الذخيرة، ق٤م١، ص٣٤٢-٣٥٤، ابن سعيد: المغرب: ج١، ص١٢٨).

(١٤٧) هو محمد بن عمار الكلاعي من أهل ميورقة، يكنى أبا عبدالله، كان عالماً متفنناً وله قصيدة طويلة على روى النون، ومن وافر الأعاريض في السنة والآداب الشرعية والديانات، يوصي بها ابنه حسن، سمع منه أبوبكر بن العربي في رحلته إلى المشرق سنة ٤٨٥هـ (انظر ترجمته في : ابن الأبار: التكملة، ج١، ص٤٠٣).

(١٤٨) هو أبو جعفر أحمدبن عبدالولي البنّي كان أديباً شاعراً، وأصله من أبدة في البر الأندلسي، وقدم ميورقة في عهد ناصر الدولة، ثم غضب عليه ناصر الدولة، ونفاه من ميورقة سنة ٥٠٣هـ (انظر ترجمته في: ابن خاقان: قلائد العقيان، ص٨٦٨-٨٧٥ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٢، ص٢٢٧، المقري: نفح الطيب، ج٦، ص٧-١٠، ص٢٤٦، السلفي: تراجم أندلسية مستخرجة من معجم السلفي،ص٦٧-٦٨).

الباب الأول

الشعر في دانية والجزائر الشرقية في القرن الخامس الهجري

الفصل الأول

أغراض الشعر وموضوعاته

أولاً : الشعر السياسي

أ- صورة القائد

حدد الشعراء في هذه الإمارة ملامح الصورة السياسية والعسكرية للقائد، وهو يدير شؤون الحكم في الإمارة، أو يقود المعركة بجيشه/ وفي الصورتين السياسية والعسكرية، ظهر عدد من الصفات، كالكرم وكثرة العطاء، والوفاء والحزم وحسن تصريف الأمور، والشجاعة والقوة والفروسية، وكان من نتائج كل هذه الصفات انتشار الأمن والاستقرار والرخاء في الإمارة.

فإدريس بن اليمان يقف أمام مجاهد العامري، فيرسم له صورة عسكرية سياسية، متأثرة بطبيعة عصر ملوك الطوائف المليء بالأحداث والحروب والفتن. وتظهر في شعر إدريس صورة مزدوجة، صورة القائد العسكري، وصورة الجيش، فالقائد يكمل جيشه ويقوده، والجيش يكمل القائد ويسير خلفه، فالقائد فارس شجاع ومقاتل عظيم، والجيش يحارب بكل قوة وعزيمة في ساحة المعركة، والجنود سريعو الحركة، ينتقلون بأمر القائد من جهة إلى جهة أخرى،، دون كلل أو ملل، فهم في الليل سُراة، وفي النهار محاربون أشداء، حيث يقول(1):

وَلَرُبَّ ليلٍ قد طرقتُ وهــمتي   أسْرِي بها إذْ ليسَ يَسْري كَوكبُ

في معشر شُمُّ الأُنــوف كأنهـــم   ســيدان رَمْــلٍ أو أُسودُ دُرَّبُ

لبسوا دياجير الدُّجى إذْ أسـأدوا   وتقنَّعُوا بســنا الضحى إذْ أَوَّبُوا

وسَرَوا فمغَرب كلِّ أرضٍ مَشْرِقٌ   لهُـمُ ومــشرقُ كلِّ أرض مغـربُ

ثم يتابع الشاعر وصفه للقائد العسكري وجيشه، فهذا الجيش كواكب لامعة في السماء،وهذا القائد هلال خطيب فيها، يحمسهم ويدعوهم للقتال، يقول إدريس بن اليمان(2):

وكأنَّ باهرةَ الكواكبِ معشرٌ   قامَ الهلالُ بهم خطيباً يخطبُ

---

(1) ابن بسام، الذخيرة، ق٣م١، ص٣٤٠.

(2) المصدر نفسه، ق٣ م١، ص٣٤٠.

ويتوقف الشاعر مرة ثانية عند هذا الجيش وقائده، فيرسم لهذا الجيش وقائده صورة أخرى، فنور الصبح وإشراقة الفجر راية هذا القائد، والشمس عند طلوعها تشبه وجه مجاهدالقائد، الذي تلألأ إشراقاً وجمالاً، فكادت هذه الشمس أن تزول وتغرب، حينما ظهر وجهه، وهو يقود جيشه في الصباح نحو الحرب والقتال، وهذه الإشارة من هذا الشاعر تؤكد البطولات العظيمة، التي حققها مجاهد العامري على الأعداء، يقول الشاعر(٣):

وكأنَّ نور الصبح رايةُ فارسٍ حمراءُ يتبعها خميسٌ أشهبُ

وكأنَّ قرن الشمسِ وجهُ مجاهدٍ لَـما أنار سناهُ كادت تغربُ

ويشترك ابن مقانا الأشبوني مع إدريس بن اليمان، في إظهار ملامح هذه الصورة العسكرية لمجاهد العامري وجيشه، فجيش مجاهد كواكب لامعة في السماء، يقودها، ويوجهها بطل عسكري وقائد كبير، يرسم الخطط العسكرية، ويشارك هذا الجيش في ساحة المعركة، يرسم لهم حركاتهم، ويقودهم إلى النصر، يقول ابن مقانا(٤):

ولما سقتنا بابريقها لثمنا يديها وخلخالها

وبتْنا وبَاتت على ساقها تصفّقُ للشَّرْب جريالها

كأنَّ نجومَ الدجى روضةٌ تجرُّ بها السّحبُ أذيالها

كأنّ الثريّا بها رايةٌ يقود الموفقُ أبطالها

أما ابن دراج القسطلي فيصور بطولات مجاهد العامري في المعارك، وأثرها على الأعداء، فكثيرة هذه المعارك وتلك الحروب التي خاض غمارها هذا القائد، وكثيرة هي انتصاراته، ويحاول الشاعر الربط بين لقب مجاهد الموفق وأعماله، فيوظف لذلك المصطلحات النحوية والبلاغية، يقول ابن دراج(٥):

---

(٣) المصدر نفسه، ق٢ م١، ص٣٤.

(٤) المصدر نفسه، ق٢ م٢، ص٧٩٦.

(٥) ديوان ابن دراج القسطلي، ص٤٧٩ (ت٤٢١هـ)، تحقيق محمد علي مكي، منشورات المكتب الاسلامي، دمشق، ط١، ١٩٦٩، ص٤٧٩.

وكم قدتَ للأعداء من حُزن ليلةٍ ضـحاها لمن وَالاك غُنْمٌ وأفـراحُ
سموتَ لها باسم وفعل كلاهما بسيفك في الهيجاء أزْهرُ وضَّاحُ
جهادٌ وَفَتْ آياتُ فعلكَ باسمه كما شرح المعنى بيـانٌ وإفصاحُ

ويستمر ابن دراج القسطلي في إبراز الصورة العسكرية لمجاهد العامري، وبطولاته العسكرية، مبيناً العلاقة الطيبة التي تربط بين مجاهد العامري وجيشه، فهذا الجيش الذي يقوده ينتسب إليه، وهي نسبة تجعل هذا الجيش بهذا عظيماً قوياً، وخاصة أن قائده يلقب بأبي الجيش، فأفراد الجيش هم أبناء القائد، والعلاقة بينهما علاقة أبّوة ،تسودها المحبة والوفاء، فيقول(٦):

وكالجيش إذْ أعْلَقْتَه منك نسبةٌ بعزَّتها تعلو الجيوشُ وتجتـاحُ
أبـوّةُ آباءٍ لأبنـاءِ مُـلْكِهِ مشابهُ يحدوهنَّ صِدْق وإفْصَاحُ
فما ظلموها قائمين بشبـهها إذا غوَّروا تحت السَّنَوَّر(٧) أولاحوا

أما ابن زيدون(٨) فله دورُه في إبراز جوانب مختلفة من صورة مجاهد العامري السياسية والعسكرية، حيث يكتب رسالة شعرية على لسان المعتضد بن عباد، يصف شوق الأخير وحنينه إلى مجاهد، فيشير إلى بعض صفاته ومحاسنه، فيقول(٩):

عَرَفتُ عَرْفَ الصبا إذْ هبَّ عاطِرُهُ مِنْ أفقِ مَنْ أنا في قلبي أشَاطِرُهُ

---

(٦) المصدر السابق، ص٤٧٩.

(٧) السَّنَوَّر: هي الدروع، (انظر: لسان العرب، مادة سَنَر).

(٨) هو أبو الوليد أحمد بن عبدالله بن زيدون المخزومي القرطبي، شاعر وكاتب مشهور، وقد اختص بمدح ابن جهور، ثم تغير عليه فسجنه، وانتقل بعد ذلك إلى إشبيلية، وكان وزيراً للمعتضد بن عباد، وتوفي سنة ٤٦٤هـ (انظر ترجمته في: الحميدي: جذوة المقتبس، ص١٣٠ ابن خاقان: قلائد العقيان ص٢٠٩-٢٤٨، ابن بسام: الذخيرة ق١ م١، ص٣٣٦، الأصفهاني، خريدة القصر، ج٢، ص٤٨، ابن دحية، المطرب، ص٦٤، ابن الأبار: إعتاب الكتّاب، ص٢٠٧، ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج١، ص٦٣،، ابن سعيد، المغرب، ج، ص٦٢، آنخل حنثالث بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ص٨٠-٨٦.

(٩) ديوان ابن زيدون ورسائله، شرح وتحقيق علي عبدالعظيم، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، ١٩٥٧ ص٢٣٦.

أرادَ تجديدَ ذكراه على شَحَطٍ ... وما تَيَقَّنَ أنّى الدهرَ ذاكرُهُ

نَأى المزارُ به والدارُ دانيةٌ ... يا حبَّذا الفألُ لوصَحَّتْ زواجرُهُ

خلِّي أبا الجيش هل يُقْضَى اللقاءُ لنا ... فيشتفي منكَ طَرْفٌ أنْتَ ناظِرُهُ

قُصَارُهُ قَيْصَرُإنْ قامَ مفتخراً ... لِلّهِ أوّلُهُ مَجْداً وآخِرُهُ

ثم يشير ابن زيدون في هذه الرسالة الشعرية إلى أن مجاهداً صاحب مكرمات، وهو الموفق دائماً إلى كل مكرمة وفضل، فيقول(١٠):

أتَرى اللِّقاءُ كما نحبُ يُوفّقُ ... فَنَظَلُّ نصبحُ بالسّرور ونَغْبقُ

أفدي أبا الجيش الموفّق إنّهُ ... للمكرمات مُيَسَّرٌ وموفّقُ

أما ابن برد الأصغر فقد كتب رسالته المشهورة في المفاخرة بين السيف والقلم وبعث بها إلى مجاهد العامري، وقد ضمّنها أبياتاً شعرية، أبرز من خلالها جوانب من شخصية مجاهد السياسية والعسكرية، وبيّن من خلالها أهمية كلّ من السيف والقلم في خدمة الدولة ورفعة شأنها، وقد بيّن أنهما قد اجتمعا معاً في يد مجاهد العامري، لذا فقد غدا أمير السيف والقلم، يقول(١١)

يا أيها الملك السّامي بهمّتِهِ ... إلى سماءِ عُلا قَدْ أعيت الهمما

لولا طلابي غربتُ المدح فيك لما ... وصفتُ قبلَ علاكَ السيفَ والقَلما

وإنما كانَ تعريضاً كشفتُ بهِ ... من البلاغةِ وجهاً كان ملتثما

ويعبر أبو العلاء صاعد بن الحسن البغدادي عن بعض جوانب شخصية مجاهد العامري، من كرم وكثرة عطايا تشمل البعيد والقريب، فقد استمال مجاهد هذا الشاعر بخريطة مالٍ ومركب، لذا يقدم له أبو العلاء الشكر على صنيعه، مشيراً إلى أن كل الشعراء يجدون في هذا الأمير كل ما يتمنون، فيقول واصفاً الهدية ومادحاً مُهْديها(١٢):

أتتني الخريطةُ والمركبُ ... كما اقترنَ السعدُ والكوكبُ

---

(١٠) المصدر السابق، ص٢٣٦.

(١١) ابن بسام: الذخيرة ق١م١، ص٥٢٨.

(١٢) الحميدي: جذوة المقتبس، ص٣٥٤.

وحَطّ يميناً به قلعة   كما وضعت حَمْلَها المُقْرِبُ

على ساعة قام فيها إلينا   على هامة المشتري يخطبُ

مجاهدُ رضت إباء الشموس   فَأُصْحِبُ ما لم يكن يصحبُ

فقلْ واحتكمْ فسميعُ الزّمان   مصيخٌ إليك بما ترغبُ

ويمكن القول من خلال استعراض الصورتين السياسية والعسكرية لمجاهد العامري، اللتين ظهرتا في القصائد والمقطوعات الشعرية السابقة، إن الصورة العسكرية لهذا القائد قد طغت على الصورة السياسية، فظهرت صفات القوة والشجاعة والفروسية، وفَنُّ قيادة الجيش، وهو أمر غلب على مجاهد العامري الذي عرف بكثرة حروبه وغزواته البرية والبحرية.

كذلك نجد في الحديث عن مجاهد العامري وصورته العسكرية، الربط بين القائد وجيشه، فبرزت صورة الجيش مقترنة بصورة هذا القائد، الذي عُرف بقيادته المباشرة لهذا الجيش.

أمّا إقبال الدولة علي بن مجاهد فإننا نجد له صورتين في الشعر، صورة عسكرية وأخرى سياسية، لكننا نجد أن الصورة السياسية أكثر وضوحاً من الصورة العسكرية، وتقل بذلك الصفات العسكرية مقارنة مع الصفات العسكرية التي ظهرت في صورة مجاهد العامري التي أشرنا إليها.

فهذا إدريس بن اليمان الذي كان قد مدح مجاهداً العامري وصوّرهُ قائداً عسكرياً لا يفارق جنده، نجده في مدائحه لعلي بن مجاهد يمزج بين عناصر الصورة العسكرية وعناصر الصورة السياسية، فهو قائد وأمير، حازم وقت الحزم، محارب وقت الحرب، كريم معطاء وقت السلم، وزوال الحرب، إنه سياسي قادر على إدارة شؤون الحكم بطريقة تدعو إلى الإعجاب والثناء، فيقول(١٣)

بعليِّ بن مجاهد أوْردته   رَوْضَ المديح وموسمَ المُدّاحِ

ثهلانَ في عَقْدِ الحُبَا ولدى الوَغى   غصنٌ يراحُ إلى نسيم رياحِ

فالبرُّ بحرٌ من مدائحه التي   تربي على الطيار والسبّاحِ

---

(١٣) ابن بسام: الذخيرة، ق٣م١، ص٢٤٤.

بسيـــاسة يقــف الزمان إزاءَها خَضِلَ الحياءِ مــلازمَ الإسْــجاحِ

مـحـــفوفة بمـــكـــارمٍ وصـــوارمٍ تثني وتصرفُ غَـرْبَ كلِّ جماحِ

ويبالغ الشاعر في إبراز جوانب شخصية علي بن مجاهد، فيرى أن الخلق جميعاً يمدحون إقبال الدولة، وينشدون الشعر في مدحه والتعبير عن الإعجاب به، فحتى الحمام يشارك الشعراء هذا الإعجاب، فالجميع يقدِّمون غرر القصائد إعجاباً بهذا القائد السياسي، الذي وصلت الدولة في عهده إلى درجة عالية من الأمن والرخاء، وانعكس ذلك على رعيته وأفراد شعبه، وحين يقف الشاعر أمام هذا الأمير، يكون في غنىً عن جميع الخلق، فهو النور والضياء، الذي أزال الظلام، فيقول إدريس بن اليمان(١٤)

يَا مَنْ يُلَـــحِّنُ كُلُّ خَلْـــقٍ مدحَهُ حتّى الحمامُ على ذرى الأدْواحِ

هشَّتْ لتسمعها بفضلكَ فاستمِعْ سيَّاحةً بثـنـائـك السيَّـــاحِ

غُرَراً كطالعةِ الكواكبِ مَوْهِـــناً طمحت إلى لقيـاك كلُّ طِماحِ

فأتَتْكَ جانـــحةً إليـــكَ وإنّمـا جنحتْ إلى مغنيطسِ الأجناحِ

فلكِـفِّكَ القِـدْحُ المعلّى في العلا وعلاك تحكـمُ لي بفوزِ قداحي

ولئنْ بك استغنيتُ عن كلٍّ ففي ضَوْءِ الصباح غنى عن المصباحِ

ويشير ابن غرسية إلى إقبال الدولة بأنه أمير وقائد سياسي، سوف يقود الدولة إلى الأمان والازدهار، بعد أن تولى الحكم بعد أبيه الذي حَبَاه بولاية العهد، وقد عرفه أهلاً لذلك بحدسه ومعرفته بالرجال، حيث يقول ابن غرسية وهو يمدح إقبال الدولة بولاية العهد(١٥)

الآن أُطْلِعَ في ليل الرَّجاء سَنَا وقابلَ الصبحَ والإظلامُ قد ظَعَنا

عَهْدٌ حَبَاك به من ليس يشبهُهُ مَلْكٌ فأخْلِصْ عليه السرَّ والعَلَنَا

أما ابن خلصة الأعمى فيعبر عن ولائه لإقبال الدولة وإخلاصه له، ويرى أنَّ مَن يعيش في بلاط إقبال الدولة تتغير أحواله، وتتبدلُ أموره إلى الأفضل، موظفاً في

---

(١٤) المصدر السابق، ق٣م١، ص٣٤٤.

(١٥) ابن سعيد: المغرب، ج٢، ص٤٠٧.

ذلك مصطلحات علم النحو حيث يقول(16):

خدمتكمْ ليكونَ الدهرُ من خدمي   فمـا أحالتْـهُ عن أحوالهِ حيلي
إن لم تكن بكم حـالي مبـــدَّلةً   فما انتفاعي بعلم الحالِ والبدلِ

ويرى ابن خلصة الأعمى أيضاً أن الحكام الآخرين لا قيمة لهم ولاوزن، فهم لا شيء، حين يكون إقبال الدولة موجوداً، والأيام القادمة ستكشف حقائق ما يقول(17):

عَدَمٌ ذا الوَرى وانتم وجودُ   وهـــراءٌ وأنتم المـــعــــقولُ
وإذا كشَّف الحقائقَ فــكرٌ   شهدت لي بما أقولُ الــعقولُ

ويقف هذا الشاعر عند جانب هام من حياة هذا الأمير، الذي أوى الأدباء، ورفع الظلم عنهم، فقد وجد هؤلاء الشعراء والأدباء والعلماء الأمن والاستقرار، وكان ابن خلصة واحداً من هؤلاء الأدباء، الذين عانوا من أحوال الدهر ومصائبه معاناة عظيمة، فترك البلاطات الأخرى، ورحل إلى بلاط إقبال الدولة في دانية، بحثاً عن الأمن والاستقرار، وهو لا يريد أجراً أو جائزة على أشعاره، فيكفيه ما يحسُّ به من أمان، وهو في بلاط إقبال الدولة، حيث يقول(18):

ولما لحاني الدهرُ لحوَ العصا ولم   أجدْ من بَنيه غيرَ من زادني وخزا
جعلتك لي حصناً ونبَّهْتُ مقولا   جُـرازاً جُـــذَاذاً لا كَهْـــلاً ولا كزا
ولم تقتصدْ منك القصيدة نائلاً   كثيـــرٌ لها أن تستـــجازَ ولا تجزا
لِيُمْتِعْ بك اللهُ الأمانيّ والمنـــى   ولا تُفْجَـــعُ الآدابُ فيـــكَ ولا تُرْزا

ويصف الفضل بن أحمد بن دراج القسطلي شدة المصائب وعظمها وكثرتها، فهي كالجن انتشاراً وكثرةً، وليس للناس من حام في ظل هذه الظروف إلا إقبال الدولة، فهو دائم الاهتمام برعيته وشعبه يحفظهم ويحميهم في جميع الأحوال: أحوال السلم، وأحوال الحرب، ففي وقت الحرب ينصر كل مظلوم ويدافع عنه بالسلاح، وفي وقت

---

(16) المصدر نفسه، ج2، ص394.

(17) المصدر نفسه، ج2، ص394.

(18) المصدر نفسه، ج2، ص394.

السلم يدفع المصائب والمحن عن المنكوب بعطاياه وهباته، يقول[١٩]:

وإذا ما خطوبُ دَهْرٍ أطافت　　وأناختْ كأنها الجنُّ تَسْعَى

كَلأتنا من لَسْعِهِنَّ أيادي　　مَلك يكلأ الأنامَ ويَرْعَى

مَلِكٌ إنّ دَعَاهُ للنصر يوماً　　مُسْتَضَامٌ كفاهُ نصراً ومَنْعَا

أوْ عَرَاهُ السليبُ صفْراً يداه　　جَمَعَ الرزقَ من يديه وأدْعَى

ونلاحظ من خلال استعراض الشعر الذي وصف جوانب شخصية علي بن مجاهد السياسية والعسكرية طغيان الصفات السياسية على الصفات العسكرية، فهو رجل حكم ودولة، يهتم بشؤون الرعية، فيحمي المظلوم، ويغني الفقير، ويهتم بالعلماء والأدباء، غير أنه أقل شأناً من أبيه في الشؤون العسكرية، فقد رأينا والده مرتبطاً بجيشه، يقوده من حرب إلى حرب، ومن معركة إلى أخرى، وهذه الصورة التي رسمها الشعراء لاقبال الدولة لا تختلف كثيراً عن الصورة التي أوردتها له المصادر التاريخية، فقد رأينا كيف أنه قد اهتم ببعث الأمن والرخاء الاقتصادي لدولته وقد انعكس ذلك على الرعية.

ونلاحظ كذلك عند استعراضنا لصورة مجاهد العامري وابنه إقبال الدولة اختفاء صفة هامة من صفات القائد السياسي، وهي صفة عراقة النسب، فلم يشر الشعراء إليها في جميع ما وصلنا من شعر، إذ لم يكن مجاهد عربياً حتى يوصف بعراقة نسبه العربي، ولو كان عربياً لتسابق الشعراء إلى الحديث عن نسبه وقبيلته، وغياب الحديث عن نسب مجاهد يؤكد ما ذهبنا إليه في حديثنا عن اصل مجاهد العامري وأسرته[٢٠].

أما في بلاط ناصر الدولة مبشر بن سليمان صاحب ميورقة، فإننا نجد عدداً من الشعراء يؤمون قصر الناصرية في ميورقة، ويقف هؤلاء الشعراء أمام شخصية هذا القائد السياسي والعسكري يتناولون جوانبها المختلفة، حيث استطاع هذا القائد بصفاته المتميزة أن يجعل هذه الجزائر واحة أمن واستقرار في هذا العصر، يلجأ

---

(١٩) الحميدي: جذوة المقتبس، ص٣٢٧. وانظر كذلك: ابن سعيد: المغرب، ج٢، ص٦٢.

(٢٠) انظر، ص١٣ من هذا البحث.

إليها كلُّ من أصابته مصيبة أو حلت به نازلة.

وقد أحسن ناصر الدولة وفادة هؤلاء الأدباء والشعراء، فاستقروا في إمارته وكان من هؤلاء ابن حمديس الصقلي، الذي غادر جزيرة صقلية بعد سقوطها سنة ٤٧٢هـ فيقف هذا الشاعر أمام هذا القائد، فيبرز لنا جوانب هامة سياسية وعسكرية من صفات الأمير في قصيدة وصف بها خيلاً أهديت له مطلعها(٢١):

جاءَتك أولادُ الوجيه ولا حَق فأرتْكَ في الخَلْقِ ابتداع الخَالقِ

وبعد عرض طويل لصفات هذه الخيول، التي وظّفها جيداً لإظهار صفات القائد، يتحدث عن جوانب هذه الشخصية، فهو أمير من سادة الناس، بطل في الحرب، وبطل في السلم، صاحب المعالي والمكرمات، ويركز الشاعر كذلك على مزج صورة هذا الأمير بصورة الجيش الذي يقوده، في إشارة واضحة إلى بطولة هذا القائد، الذي يستمد قوته من جيشه، كما يستمد جيشه منه قوّته فيقول(٢٢):

أصبحت في الساداتِ ناصرَ دولةٍ تصف العلى [ ] عدل مناطقِ

بطلاً يطولُ بـذكره في سلـمه كصياله بحسامه في المأزقِ

مترحلاً نحـو المـعالي ساكناً بالجيش في ظلِّ اللواء الخافقِ

شدَّت عزائمـه مـهالكه كـما شُـدَّتْ فرازينٌ بعقـدِ بيارقِ

وينقطع ابن اللبانة لناصر الدولة بعد أن غادر إشبيلية، وعلى الرغم من الاختلاف بين شعر ابن اللبانة في ميورقة وشعره في إشبيلية، وخاصة مدائحه في ناصر الدولة، التي يبدو فيها التكلف واضحاً، إلا أن هذا الشاعر استطاع أن يرسم معالم هامة ومتميزة من شخصية ناصر الدولة، فقد كانت قصائد ابن اللبانة في هذا الأمير كثيرة، مقارنة مع ما قاله الشعراء الآخرون، وبالتالي فقد استطاع هذا الشاعر أن يسجّل في شعره عدداً من الصفات، التي ميزت هذا القائد عن غيره، فقد وصفه زعيماً، ووصفه سياسياً بارعاً في إدارة الحكم، وقائداً عسكرياً فذّاً في قيادة جيشه وقت الحرب بقوة وعزيمة. يقول في إحدى قصائده مصوراً كرم ناصر الدولة

---

(٢١) ديوان ابن حمديس، صححه وقدم له د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٠، ص٣٣٠.

(٢٢) المصدر السابق، ص٣٣١.

ومجده وشجاعته، ومبيناً فضله على الآخرين، داعياً الشعراء إلى أن يتوجهوا إليه، إذ لا يستحق أحد غيره الثناء(٢٣):

خضيب نواحي الفضل يضحك كُلُّه   عن المكرمات السُّبْطِ والحسب الجعدِ

فقلْ في أياديه رياضية الذُّرى   وقل في معاليه هضابية المَجْدِ

إليهِ وإلا قيّدوا قدم السرى   وفيه وإلا أخرسُوا منطق الحَمْدِ

ويصور الشاعر طلعة هذا الأمير بالصبح اشراقاً وتلألؤاً، ويفيض وجهه حياءً وسماحة، هو يخطف الأبصار بهذه الصفة، وإذا ما دخل أرض المعركة فهو كالرعد قوةً وصوتاً، ويطالب الشاعر بأن يجعل الناسُ ناصر الدولة مقصدهم، ووجهتهم، فهو الجواد الكريم الذي زاد عن البحر كرماً وعطاءً ، يقول ابن اللبانة(٢٤):

يطالعُ عن صبحٍ وينهلُ عن حيا   ويخطف عن بَرْق ويقصف عن رعْدِ

وَعَنْهُ أفيضوا إنّه مشعر العلا   وحوليه طوفوا إنه كعبةُ القصدِ

والغوا حديث البحر عند حديثه   فكمْ بين ذي جَزْر وكم بين ذي مَدٍّ

وفي قصيدة أخرى يصور ابن اللبانة العلاقة القوية بين القائد والرعية، فهو يحبّهم ويحبونه، إذْ وفر لهم عناصر الأمن والاستقرار، وجلب لهم السعادة والسرور، وهم مقابل ذلك قدّمُوا له الحبَّ والتقدير، يشاركونه أفراحه ويسعدون بها، ويحزنون لحزنه ويتألمون لألمه، ويبالغ الشاعر في ذلك، فيجعل جميع عناصر الطبيعة من شمس وقمر ونجوم ورياح وربيع ومطر وسحب، وينابيع، تشارك ناصر الدولة أحزانه وآلامه، حين يصيبه مرض، أو تحلُّ به نائبه، فيقول(٢٥):

شكا لشكواك حتى الشمس والقمرُ   وباتَ دُرُّ الدراي الزهر ينتثرُ

وراحتْ الريحُ لا يذكو لها عَبَقٌ   واصبحَ الروضُ لا يندى له زهرُ

وقَلّصَ الظلُّ في فصل الربيع لنا   فكادت الأرضُ بالرمضاء تستعرُ

والماءُ غاضَ لنا غيضاً فما نبعت   عينٌ ولا سال في بطحائها نهرُ

---

(٢٣) ابن بسام: الذخيرة، ق٣م٢، ص٦٨٢.

(٢٤) المصدر السابق، ق٣ م٢، ص٦٨٢.

(٢٥) المصدر نفسه، ق٣ م٢، ص٦٨٣.

والسحبُ صاحَبَها ذُعرٌ فما نشأت ولا استهلَّ لها فوق الرُّبى مطرُ

ويبدو أن هذا المرض الذي يتحدث عنه الشاعر، قد أصاب ناصر الدولة وأقعده في الفراش يومين متتاليين، ويرى الشاعر أن الأنس والسرور قد غابا في هذين اليومين عن ميورقة كلها، وهل هناك أنسٌ ينتظر، أو يؤمل إذا غاب أنسك أيها الملك؟ لك سمعنا وبصرنا، وكل ما نملك فوجودك بيننا هو مصدر فرحتنا وسعادتنا، فعهد الشباب والبشر لن يعود إلا بك ،يقول ابن اللبانة(٢٦):

يومانِ غبتَ فغابَ الأُنْسُ أجْمَعُهُ وأيُّ أُنْسٍ إذا ما غبتَ يُنْتَظرُ

يا ناصرَ الملك إن الملكَ وَجْهُ علا وليسَ غيرك فيه السمعُ والبصرُ

إبلالُ جسمِكَ أهدانا بليلَ صَبا فعادَ عهد الصِّبا واستبشر البَشَرُ

ويتناول ابن اللبانة بعض ملامح شخصية ناصر الدولة العسكرية، فهو قائد عسكري يقود الجيش بكل شجاعة وقوّة وهو أمير محارب لا يرهب الأعداء، ولا تخيفه المعارك، بكلّ ما فيها من أسلحة، فناصر الدولة كالنجم إشراقاً وعلوٌ مكانة، لا يستطيع أحد أن يصل إليه، بل لا يستطيع أحد المسٌ به، حين يكون في أرض المعركة بأسلحته وجنده، ولهذا المكانة التي وصل إليها ناصر الدولة ببطولاته العسكرية، فإنْ على مَنْ يريد المثول بين يدي هذا الأمير، أن يجعل السندس بساطاً يسير عليه، حتى يصل إليه، فيقول ابن اللبانة(٢٧):

لبس الحديدَ على لجين أديمِهِ فعجبتُ من صُبْحٍ توشّح حِنْدِسا

وأتى يجرٌ ذوائباً وذوا بلا فرأيت روضاً بالصِّلالِ تحرٌسا

لا ترهبِ السيفَ الصقيلَ بكفِّهِ وارهبْ لعاذلِهِ العذارَ الأمْلَسا

رام العدا عَذْلي عليه فَفتهم والنجم ليس بممكن أن يُلْمَسَا

وإذا وصلتَ إلى الأمير مبشراً فاجعلْ بساطك في ثراه السندسا

ويتحدث الشاعر عن جوانب أخرى من شخصية ناصر الدولة السياسية والعسكرية، مشيراً إلى معاركه وحروبه، فهو أمير إذا قرر خوض المعركة، وقاد

---

(٢٦) المصدر نفسه، ق٣ م٢، ص٦٨٣.

(٢٧) المصدر نفسه، ق٣ م٢، ص٦٨٤.

الجيوش فإن جميع القادة والأمراء يتنازلون عن عروشهم، وعندما ترتفع رايات جيشه يفترق جمعهم شرقاً وغرباً؛ خوفاً واضطراباً، ثم يقف الشاعر عند قدرة هذا القائد على ضبط الأمور في دولته بعزيمته وشجاعته، مشيراً إلى أهمية القوة والمنعة والشجاعة في إدارة شؤون الدولة، وامتلاك زمام الأمور لقيادة الرعية إلى شاطئ الأمان، وهي سمات وخصال امتلكها هذا الأمير، وفاق الآخرين فيها، لذا فإن على مادحه أن يطرح ما تذكره المصادر عن كسرى وساسان من حكمة وإدارة، يقول ابن اللبانة مصوراً ذلك(٢٨):

ملكٌ إذا عقد الغفائر للوغى	حَلَّ الملوكُ معاقد التيجانِ
وإذا غدتْ راياته منشورة	فالخافقان لهنَّ في خفقانِ
ضبط الأمور ثقافة فأعادها	في شَدِّ أسنانٍ على أسنانِ
عضَّت عل الأملاكِ دولته به	عضَّ الثقاف على قنا المرّانِ
ولقلّما يفري الحسامُ ضريبةً	إلا وحاملُهُ حُسامٌ ثانِ
والدرعُ ليست جُنَّةً ما لم يكن	طيُّ الحديد به حديدُ جنانِ
عن ناصر الأملاكِ حُدِّثْ واطَّرِحْ	ما قيل عن كسرى وعن ساسان

ثم يشير الشاعر في القصيدة نفسها إلى أصل ناصر الدولة ونسبه العربي، فهو يمنيُّ النسب، ينحدر من قبيلة مشهورة بشجاعة فرسانها وصلابتهم فَمُهَجُ الأعداء في شوق وحنين إلى رماحهم وسيوفهم، كما تحن وتشتاق الطيور إلى أعشاشها، وقد استمد ناصر الدولة من قبيلته ما يتسهم به من فروسية وكرم وإباء، يقول ابن اللبانة مصوراً شخصية ناصر الدولة(٢٩):

مَنْ قومُه العَرَبُ الألى خيماتُهُم	لم تُبقِ أونةً على الإيوانِ
حنَّت إلى أرماحِهم مهج العدا	وكذا الطيور تحنُّ للأوكانِ
يَمَنيَّةٌ حُجُزَاتُهمْ فلذ لِكُم	لَمْ تخلُ من ماضي الغرار يماني
يَخفي المكارمَ وهو يوقد نارُها	فكأنّها نارٌ بغير دخان

(٢٨) المصدر نفسه، ق٣ م٢، ص٦٨٧.

(٢٩) المصدر نفسه، ق٣ م٢، ص٦٨٧.

ويجئ نَوْءُ بـــــنانهِ بغريبـــةٍ   تروي الرُّبى والشّمسُ في السرطانِ

ونلاحظ أن ابن اللبانة قد وقف عند عراقة نسب ناصر الدولة مبشر بن سليمان؛ لأنه عربي النسب، في حين أننا نفتقد الحديث عن نسب مجاهد العامري وابنه علي في المدائح التي قيلت فيهما، كما أشرنا إلى ذلك.

ثم يعود الشاعر إلى الحديث عن جوانب أخرى من شخصية ناصر الدولة مبشر ابن سليمان، فهو يهتم بالشعراء، ويقدم لهم العطايا والجوائز، ويقربهم ويعتني بهم، وقد كان ابن اللبانة، واحداً من هؤلاء الشعراء الذين فعلت عطايا الأمير بهم فعل الأرواح بالأجسام، فالأجسام لا قيمة لها بغير الأرواح. وهي مكرمات أحيت ميورقة وقصرها، فلذلك يستحق الأمير الشكر والثناء، فالجميع بحاجة إليه وإلى كرمه وفضله، يقول(٣٠):

فَعَلَتْ بآمالي عـــوارفُ كفِّهِ   ما تَفْعَـــلُ الأرواحُ بالأبـــدانِ

أسدي إليَّ من الصنائع مثلما   أسْدَتْ أوائـــلُه إلى حـــسَّانِ

يا منشيءَ العلياءِ بعد مماتها   تفنى النجومُ وما ثناؤك فانِ

الأرض حاجتها إليك بطـبعها   كالعين حاجتُـها إلى الإنســـانِ

---

(٣٠) المصدر نفسه، ق٣ م٢، ص٦٨٧.

ب- صورة الجيش والمعارك البحرية والبرية

وصف شعراء دانية والجزائر الشرقية الجيش وبعض المعارك البحرية والبرية، ولكن الشعر الذي بين أيدينا لا يدل أو يشير إلى معركة معينة، بل يتطرق فيه الشاعر إلى بطولة هذا الجيش وشجاعة جنوده، وأدوات المعركة البرية والبحرية التي يستخدمها هؤلاء الجنود، من سفن ومجاذيف وخيول وسيوف ورماح وسهام وغيرها.

ونلاحظ كذلك أن صورة الجيش غالباً ما ترتبط بصورة القائد الممدوح، فهذا الجيش يستمد القوة والبطولة من قائده، ولذلك نجد أن الشاعر إذا تحدث عن الجيش فإنه يتحدث عن القائد أو الأمير، ويربط بينهما في صورة متكاملة العناصر.

وتظهر الصورة عند ابن دراج القسطلي، حين يمزج بين مدح مجاهد العامري وجيشه، الذي ارتبط اسمه بلقبه (أبي الجيش)، ثم يصف العلاقة التي تربط مجاهداً العامري بجنوده، فهي علاقة الأب بأبنائه، لذلك كانوا جنوداً مخلصين لقائدهم، محبين له، يعاملونه معاملة الأبناء لأبائهم، فهو أبو الجيش، وهم الجنود الذين يستمدون قوتهم من قائدهم، وهم فرسان شجعان في أرض المعركة، يستخدمون كل سلاح في مواجهة الأعداء، ويركبون خيولاً سريعة الحركة، يقول ابن دراج(٣١) :

وكالجيش إذْ أعْلَقْته منك نسبة بعزتها تعلو الجيوش وتجتاحُ

أبـوّةُ آبـاء لأبنـاء ملكـه مشابهُ يحدوهنَّ صِدْقٌ وافصاحُ

فما ظلموها قائمين بشبهها إذا غَوّروا تحت السَّنَوَّر أولاحوا

سوابغُ لم تُخْلِلْ بصبغ جسومهم إذا ما غَدَوا في لبسِ نُعْمَاك أوراحوا

ويتحدث ابن دراج عن هذا الجيش، وهذه المعركة التي تُظْهر أبيات القصيدة أنها معركة بحرية، فيصف بطولة هذا القائد التي ترتبط بهذا الجيش ،الذي يستمد القوة من قائده، فيقاتل الأعداء بكل قوة وشجاعة دون خوف، أو كلل، مستخدماً سلاحه باقتدار وعزيمة، حيث يقول(٣٢):

وَكمْ من فتىً أعديتَه منك شيمةً يَشمُّ بها ريحَ العُداة فيرتاحُ

---

(٣١) ديوان ابن دراج، ص٤٧٩.

(٣٢) المصدر نفسه،ص٤٧٩-٤٨٠.

ويزجي من الخطّيّ أشطان ماتحٍ   إلى قُلُبٍ وسط القلوب فيمتاحُ

وبدرٍ إذا ما غُمَّ في رَهَج الوغى   تجلّى به قَرْنٌ من الشمس لمّاحُ

وحين تشتد المعركة يشتد النزال وتكثر الضربات ويزداد الفتك بالأعداء، ويصبح القائد سريع الحركة في البر،وسباحاً ماهراً في البحر يلاحق الأعداء هنا وهناك، يقول ابن دراج(٣٣):

وقَرْمٍ لِشَوْلِ الحقّ إن حالَ وسْقُها   تجللها منه ضرابٌ وإلقاحُ

جعلت عليه البر والبحر أسوة   ففي البرِّ طيَّارٌ وفي البحر سبَّاحُ

ثم يتحدث الشاعر عن جند البحر الذين يتقنون فن الملاحة في البحر، ويقودون سفنهم الشراعية بكل قوة واقتدار، وهي سفن تشبه النجوم في السماء، ثم يصور الجنود فيها بالنجوم علواً ومكانة، ويقف الشاعر عند أصناف المحاربين، فمنهم النّبال ورامي الرمح ومنهم الكُمَاةُ. ثم يصور خوضهم لجة البحر وأعماقه، دون خوف أو تردد، حيث يقول(٣٤):

واقبستْهُ من نور هديك فاهتدى   إلى حيث لا يُهدى شِراعٌ وملاّحُ

بفلكٍ كأفلاك السماء نجومُها   كميٌّ ونبّالٌ وشاكٍ ورمّاحُ

وغُرٌّ إلى الغايات هِيمٌ نوازعٌ   تهيم بها في لُجّة البحر أشباحُ

ثم يشير الشاعر إلى طبيعة هذه المعركة وأهدافها، فهي غزوة بحرية يحارب فيها هذا القائد وجيشه أعداء الله، وهي حرب في طاعة الله وجهاد في سبيله، وهي غارة على الأعداء، كسب فيها المسلمون غنائم كثيرة وعظيمة، يقول ابن دراج(٣٥):

مفاتيحُ أقفال الفتوحِ التي نأت   وأنت بها في طاعة الله فتّاحُ

وصابحةٍ للمسلمين بغارةٍ   غنائمُهُم فيها تمورُ وتَنْسَاحُ

ويمجد الشاعر هذه الغزوة، فيرى أنها قد قد سُجّلَتْ في اللوح المحفوظ في حسنات هذا القائد وجيشه، أما الناس في عهده فلن ينسَوْا هذا اليوم، وهذه المعركة كما يقول(٣٦):

---

(٣٣) المصدر نفسه، ص٤٨.

(٣٤) المصدر نفسه، ص٤٨.

(٣٥) المصدر نفسه، ص٤٨.

(٣٦) المصدر نفسه، ص٤٨.

قد اكْتُتِبَتْ في اللوحِ فخراً مُؤَيَّداً   صدورُ الدُّنا منها سُطورٌ وألواحُ

ويتحدث أبو العلاء صاعد البغدادي عن جيش مجاهد العامري، واصفاً طاعته للقائد، فهو جيش يطيع أوامر قائده، إنهم يشبهون قطعان الظباء جمالاً وكثرة وبهاءً، حيث يصف بعد ذلك أسلحتهم واستخدامهم لها في المعركة بكل قوة واقتدار، إذْ تتحول ساحات المعارك، إلى مذابح ودماءَ تسيل فيها، وهم -أي الجنود- تحت طاعة قائدهم، يتقدمون ويحاربون بإمرته، يقول(٣٧)

هناك أبا الجيش مَنْ جيشه   أسارى كأنهم الرَّبْرَبُ

يَرِقُّ عليها السنان الحقودُ   ويرحمُها الصارمُ المُغْضبُ

وهم يخضبون صدور القنا   وأنمُلُهم بضّةٌ تُخْضَبُ

ولم أرَ من قبلهم فارساً   يليقُ به الحَلْيُ والمُذْهَبُ

فإنّ شئتَ أن يركبوا يركبوا   وإن شئت أن يُرْكَبُوا يُرْكَبُوا

أمّا ابن اللبانة فيصور جيش مبشر بن سليمان وهو يشارك في العروض البحرية في يوم المهرجان، فهو يتكون من كتائب جرارة، وتحمله سفن حربية سريعة الحركة لمهارة ملاحيها، وهي كالخيول السريعة، وهؤلاء الجنود يركبون السفن، فهم على ظهورها وفي بطونها، حيث تظهر صورة بحرية جميلة للجيش في هذه السفن، انهم يشبهون المطر، الذي تحمله السحب، وهذه السفن هي السحب حاملة المطر، وهناك علاقة بين الجنود والمطر ،إن المطر يحمل الخير والعطاء للناس جميعاً، وكذلك هذا الجيش يحمل السعادة والفرح لأهل ميورقة بعظيم الانتصارات التي يحققها، يقول ابن اللبانة(٣٨):

وعلى الخليج كتيبةٌ جرارةٌ   مثل الخليج كلاهما يتدفقُ

وبنو الحروب على الجواريٍّ التي   تجري كما تجري الجياد السُّبَّقُ

ملأ الكماةُ ظهورَها وبطونَها   فأتت كما يأتي السحابُ المغْدِقُ

---

(٣٧) ابن بسام، الذخيرة، ق٤ م١، ص١٣.

(٣٨) شعر ابن اللبانة، ص٧٢.

لقد مرّ المجتمع الأندلسي في مطلع القرن الخامس الهجري بأحداث جسام، وفتن كبرى. أدّت إلى سقوط الخلافة وانقسام الدولة الواحدة إلى دويلات متعددة، عرفت بدول الطوائف، وقد كان الشعراء والكتاب الأندلسيون أكثر الناس تأثراً بهذه الأحداث، إذا اضطر كثير من هؤلاء الأدباء إلى الهجرة من قرطبة إلى مختلف عواصم الدول والإمارات الجديدة.

وكان نصيب دانية والجزائر الشرقية من هؤلاء الأدباء وافراً وكبيراً فجمعت دانية في عهدي مجاهد العامري وابنه إقبال الدولة عدداً من الشعراء، وكذلك جزيرة ميورقة في عهد حاكمها ناصر الدولة مبشر بن سليمان، إذ وجد هؤلاء الشعراء الأمن والاستقرار، بعد حياة الخوف والقلق والاضطراب التي عاشوها أثناء الفتنة، وقد استطاع بعض هؤلاء الشعراء تصوير هذه الحياة الآمنة المستقرة في شعرهم، ومن ذلك ما نجده في أبيات قالها أبو بكر محمد بن القاسم المعروف باشكنهاده في مدح مجاهد العامري، حيث يعبر في هذه الأبيات عن حالة القلق والاضطراب والخوف التي عاشها قبل وصوله إلى بلاط مجاهد في دانية، فهو شاعر رحالة كان قد ترك قرطبة أثناء الفتنة هرباً من ويلاتها، وتوجه نحو المشرق، يطوف البلدان، ويرتحل بينها لكنّه لم يلق إلا المصائب والمحن المتلاحقة، وكان يحسّ دائماً بالغربة، وهو بعيد عن موطنه الكبير «الأندلس» فهو يرى أن البلاد كلها جهنم، أما دانية التي هي رمز للوطن الأكبر «الأندلس» فهي جنة عدن، إذ يشعر فيها المرء بالأمن والسعادة، يقول(٣٩):

وكَمْ قَدْ لقيتُ الجهدَ قبل مُجاهـدٍ   وكم أَبْصَرَتَ عيني وكمْ سَمَعتْ أُذْني

ولا قيتُ من دَهْري صُروفَ خُطوبـهِ   كما جَرَتْ النكباءُ في معطف الغُصْنِ

فلا تسْألوني عن فراق جهنم   ولكن سلوني عن دخولي إلى عَدْنِ

ويشير ابن دراج القسطلي إلى حياة الأمن والاستقرار، التي تميزت بها دانية

---

(٣٩) ابن سعيد: المغرب، ج٢، ص٣٧، وانظر: المقري: نفح الطيب، ج٢، ص٣٠٢.

في ظل أميرها مجاهد العامري، فقد قادته الحادثات ونوائب الدهر إلى البحث عن بيئة آمنة هادئة، فوجد ضالته في هذه المدينة، عندما وصلها سنة (٤١٩هـ) ويقف هذا الشاعر في حضرة أمير دانية، مادحاً أياه بقصيدة طويلة، مطلعها(٤٠):

إلى أيِّ ذكرٍ غير ذِكْرك أرتاحُ ... ومِنْ أيِّ بحرٍ بعد بَحْرِكَ أمتاحُ

ثم يشير إلى هذه الحياة الآمنة المستقرة التي ينعم بها الناس، وتسعد بها الطبيعة فحتى الطيور تغني وتشدو بهذا الأمن، وتحسّ بهذا الاستقرار، وهي لا تعرف القلق؛ ولا تحسُّ بالخوف، بل إن الألحان التي ترسلها هذه الطيور أغانٍ جميلة عذبة، لها وقع جميل في أسماع أتباع مجاهد ومؤيديه، وهي نُواح وعويل في أسماع الأعداء والحاسدين، يقول(٤١):

تغنِّي طيورُ الأمنِ فيها كأنّما ... بِعَلْيَاكَ تشدو أو بذكرك تَرْتاحُ

فألحانُها في سَمْعِ مَنْ أنْتَ حِزْبُهُ ... أغانٍ، وفي أسْمَاعِ شانيكَ أنواحُ

وتتكرر هذه الصفة عند لغوي وشاعرٍ آخر عاش في بلاط مجاهد العامري، وهو ابن سيده، الذي ترك دانية بعد موت مجاهد العامري لنبوةٍ حدثت بينه وبين إقبال الدولة، فيشعر بالحزن والأسى، وقد فارق دانية المدينة الآمنة المستقرة ، ولا يستطيع العيش في غيرها، فيكتب إلى الأمير الجديد، اقبال الدولة بن مجاهد يستعطفه ويرجوه ليصفح عنه ليعود الى عشه الآمن الذي غادره مكرهاً، ويزول عنه الهم، وتنجلي الشدائد والمحن، يقول ابن سيده(٤٢):

ألا هَلْ إلى تقبيل راحتكَ اليُمْنى ... سبيلٌ فَإنَّ الأمْنَ في ذاكَ واليُمْنا

ونِضْوَ هموم طلّحتْه طياته ... ولا غارباً يُبْقينَ منه ولا مَتْنَا

غريبٌ نأى أهلوه عنه وشَفَّهُ ... هَوَاهُم فأمسى لا يَقَرُّ ولا يَهْنَا

ولم تقتصر ظاهرة شيوع الأمن والاستقرار على دانية بل تعدتها إلى جزيرة

---

(٤٠) ديوان ابن دراج القسطلي (ت٤٢١هـ)، تحقيق: د. محمود علي مكي، منشورات المكتب الاسلامي، دمشق، ط١، ١٩٦١، ص٤٧٨.

(٤١) المصدر السابق، ص٤٧٩.

(٤٢) الحميدي: جذوة المقتبس، ص٣١١، المقري: نفح الطيب، ج٥، ص١٧٢.

ميورقة زمن الأمير ناصر الدولة مبشر بن سليمان، الذي استقل بحكمها بعد وفاة عبدالله المرتيضي أغلب سنة ٤٨٦هـ فعبر ابن اللبانة عن هذه الظاهرة التي افتقدها بعد محنة بني عباد في إشبيلية، حيث يقول مستجدياً الأمير السماح والعفو بعد أن وشى به الواشون، وحسده الحاسدون، للمكانة التي وصل إليها عند ناصر الدولة يقول ابن اللبانة(٤٣):

عسى رأفةٌ في سراحٍ كريمٍ أَبُلُّ بِبَرْدِ نَدَاهُ الغَليلا

وَعَلِّي أُراحُ من الطالبين فَأَسْكُنُ للأمنِ ظِلاً ظَلِيْلا

ويصور بعض الشعراء في دانية والجزائر الشرقية بعض ملامح السياسة العامة، التي كان يسير عليها الحاكم أو الأمير في إدارة شؤون الرعية، ويقدم بعض هؤلاء الشعراء ملامح هذه السياسة، وما تكون عيه، وذلك على شكل نصيحة موجهة إلى الأمير ومن هؤلاء ابن غرسية الذي يكشف عن هذا الجانب، ويقدم النصيحة لعلي ابن مجاهد عند استلامه الحكم مهنئاً أياه بالعهد الجديد(٤٤):

الآن أُطْلِعَ في ليل الرَّجاءِ سنا وقابلَ الصبحَ والإظْلامُ قد ظَعَنَا

عَهْدٌ حباكَ به مَنْ ليس يشبهُهُ مَلِكٌ فَأَخْلِصْ عليه السِّرَّ والعَلَنَا

ولتَلْقَه بانتهاضٍ لاكفاءَ له ما إنْ يُبَعِّدُ لا مصراً ولا عَدَنَا

أما إدريس بن اليمان فيتحدث عن سياسة علي بن مجاهد، التي نهجها في تسيير شؤون الحكم في حالتي السلم والحرب، فيصف اهتمامه بشؤون الرعية، ومكارمه وفضائله عليها، في مواجهته الأعداء بكل قوة وعزم(٤٥):

بسياسةٍ يقفُ الزمانُ إزاءَها خَضِلَ الحياءِ ملازمَ الإسجاحِ

محفوفة بمكارمٍ وصوارمٍ تَثْني وتصرفُ غَرْبَ كلِّ جماحِ

ولم يتوقف الشعراء عند وصف السياسة الحالية التي ينتهجها الحاكم أو الأمير، بل يحاولون تقديم النصائح للأمير التي يرسمون من خلالها بعض ملامح

---

(٤٣) ابن خاقان: قلائد العقيان، ص٧٨٤.

(٤٤) ابن سعيد: المغرب، ج٢، ص٤٠٧.

(٤٥) ابن بسام: الذخيرة، ق٣م١١، ص٣٤٤.

السياسة القويمة التي يجب أن ينتهجها الأمير داخلياً وخارجياً في حالتي السلم الحرب، ومن ذلك قول ابن اللبانة مخاطباً أمير ميورقة حاضاً أياه على الحزم في التعامل مع الأعداء ومثيري الفتن، إذ إن عليه أن يرفع السيف في وجههم، وأن يحذر خديعتهم؛ وذلك في إطار الحكمة والموعظة، يقول(٤٦):

عالجْ بسيفكَ ما وراءَ بُحورها   فعليلُها في أَضْعَفِ البحرانِ
لا تُشغلنَّكَ خِدعةٌ فلربّما   في الكتب سرٌّ ليس في العنوانِ
والخُبْرُ يجلو كل شيء مثلما   تجلو الشكوكَ إقامةُ البرهانِ
ثُرْ ثورة السفاحِ تصفرْ بالعدا   ولو استقلَّ بهم بنو مروانِ

---

(٤٦) المصدر نفسه، ق٢ م٢، ص٦٨٨.

ثانياً: الشعر الاجتماعي

أ- النقد الاجتماعي

لقد صور الشعراء في دانية والجزائر الشرقية بعض المظاهر الاجتماعية السلبية التي سادت في هذا الجزء من بلاد الأندلس، وقد تمثل ذلك في بعض الأمراض الاجتماعية كالنفاق والفساد، ووقف الشعراء من ذلك موقف الناقد المصلح لهذه الأحوال.

فسعيد بن أبي مخلد الأزدي يصور انتشار النفاق في المجتمع، إذ لم يعد إلا المنافق صاحب الأمر والنهي فيه، أما صاحب الدين والفضيلة فليس له قيمة أو مكانة، وهذا العصر هو عصر البليد من البشر، أمّا صاحب الرأي فلا ينظر إليه وينسى الناس أن العقل والحلم والتقوى والدين هي أساس الحياة الكريمة وهي الصفات التي يجب أن يتحلى بها البشر، يقول سعيد بن أبي مخلد(٤٧):

أرى زَمَــناً فيه المنافــق نافــقاً ... وذو الدين فيه بايُر البَزِّ كاسدُه

تَرَى المرء حلواً في الرواء فإنْ تصلْ ... إلى طعمه تأجنْ عليك مــواردُهْ

وما الناس إلا الحلم والعــقل والتقى ... وإلاّ فسيَّانَ المسُودُ وســائدُهْ

أما وأبي لولا المــقــاديرُ لــم يـفزْ ... بليدٌ ويخفقُ ثابــت الرأي راشدهْ

ولكنه حــكمٌ من الدهــر نــافــذٌ ... فلا الحزمُ داعيه ولا العجز طاردُهْ

ويصف عثمان بن سعيد المقرئ انقلاب المعايير، ويتحدث عما يلقاه العلماء والأدباء من ذلّ، وإهانة، وهو يرى أن أشد أنواع الإهانة هو ما يلقاه العالم أو الأديب من هذه الفئة السيئة الخسيسة في المجتمع، ويعقد مقارنة بين هذه الفئة وفئة العلماء الأجلاء، الذين عرفوا أصول دينهم، فيقول(٤٨)

قد قلتُ إذ ذكروا حال الزمان وما ... يجري على كلِّ مَنْ يعزَى إلى الأدبِ

لا شيء ابلــغُ من ذلٍّ يجــرِّعَهُ ... أهلُ الخســاسةِ أهلَ الديـن والحسبِ

---

(٤٧) الحميدي، جذوة المقتبس، ص٢٣٢.

(٤٨) المصدر نفسه، ص٣٠٥.

العالمين بما جاء الرسول به والمبغضين لأهل الزَّيْغ والرِّيَبِ

ويشكو أبو الحسن علي بن أحمد الفخري الزمان وأهله، لأنهم لا يقدرون الشعر والشعراء، ويرى أن بضاعة الشعر قد كسدت، وما عاد للشعراء منزلة أو مكانة، مع أن الشعر هو ديوان العرب، ومفخرتهم، وإذا لم يقدر أهل هذا الزمان الشعر واصحابه، فماذا يقدرون للعرب من مفاخر ومآثر؛ ويبدو أن الشاعر كان يخص أهل دانية في عهد أميرها مجاهد العامري، الذي كان يتعقب الشعراء في كلّ ما يقولون، ويدقق فيه وينتقده يقول أبو الحسن(٤٩):

الموتُ أولى بـــذي الآداب من أدَبٍ يبغي به مكسباً من غيــر ذي أدَبِ

ما قيل لي شاعرٌ إلا امتعـضت لها حسبَ امتعاضي إذا نوديتُ باللقبِ

ومادها الشعرَ عندي سخفُ منزلةٍ بل سخفُ دَهْرٍ بأهلِ الدهر منقلبِ

صناعةٌ هانَ عند الناس صاحبُـها وكان في حــال مــرجوٍّ ومرتــقبِ

يرجى رضاه ويخـشى منه بـادرةٌ أبقى على حَقَب الدنـيا من الحقبِ

إذا جهلت مكان الشـعر عن شـرفٍ فأيُّ مأثُـرَةٍ أبقيـت للـــعربِ

ويقف الشعراء في دانية والجزائر الشرقية موقف الساخر المستهزىء من أصحاب بعض المناصب الادارية، الذين كانوا أصحاب نفوذ وسيطرة كصاحب الشرطة، فقد كان الشعراء ينتقدون أصحاب هذا المنصب الذين كانوا يسيئون استخدام مناصبهم ووظائفهم في سبيل مصالحهم الخاصة.

وكان الشعراء يقللون من قيمة وظيفة صاحب الشرطة، ويرون أنها لا وزن لها ولا مكانة؛ لأن صاحبها معروف بلؤمه وظلمه، فهو لا يرى إلا العصا وسيلة للقيام بعمله، فالكاتب أبو جعفر بن أحمد الداني يعطي رأيه في هذه المهنة، وهي كانت وظيفة أبيه، الذي عرف بعصاه التي يستخدمها لتنفيذ أوامره، فيصف هذه العصا التي أصبحت في يد أبيه وسيلة لإرهاب الناس وتخويفهم، يقول(٥٠):

وعصـــا أبينا إنَّها لأليَّةٌ شَوْهَاءُ إنك شوهةُ الوزراءِ

---

(٤٩) المصدر نفسه، ص٣٠٨.

(٥٠) ابن سعيد، المغرب، ج٢، ص٤٠٤.

ولم يقف هذا الشاعر عند هذا الحد بل يستمر في نقده اللاذع وسخريته من هذه الوظيفة، حين يرى أن أخاه قد أصبح وزيراً في الدولة، فيرى الشاعر أن الدهر قد جار وظلم، ومن طبيعة الدهر الجور والظلم، فقد كان والد الشاعر شرطياً، وها قد أصبح أخوه وزيراً، يقول(٥١):

جار ذا الدهر علينا   وكـذا الدهرُ يجور
كان شرطياً أبـونا   وأخـي اليوم وزيرٌ
أنا مأبونٌ صـغيرٌ   وهـو مأبـون كبيرٌ

ومما يتصل بالنقد الاجتماعي هجاء الأمراء بعضهم بعضاً من خلال الرسائل الشعرية أو الرقاع التي كان يبعثها أمير إلى آخر، كما نرى ذلك في رسائل شعرية بعثها مجاهد العامري إلى المنصور بن أبي عامر الأصغر أمير بلنسية، وضمنها بيتاً واحداً للحطيئة هو:

دَعِ المكارم لا ترحل لبغيتها   واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

وعندما وصلت الرسالة إلى المنصور أحرجته، وأقامته، وأقعدته، فأحضر وزيره أبا عامر بن التاكرني(٥٢)، فكتب عنه:

شتمت مواليها عبيد نزار   شيمُ العبيدِ شتيمة الأحرار

فسلا المنصور عما كان فيه(٥٣).

ومن مظاهر هذا النقد السياسي والاجتماعي أن يهجو الجندي أو القائد أمير دولته وحاكمها، كما نرى ذلك عندما غزا مجاهد العامري جزيرة سردانية وكان معه قائد جنده أبو خروب، وقدم له النصائح للحفاظ على سلامة جيشه، غير أن مجاهداً

---

(٥١) المصدر نفسه، ج٢، ص٤٠٤.

(٥٢) هو محمد بن سعيد التاكُرُني، كان أحد القادمين مع المهدي محمد بن هشام بن عبدالجبار، وقد ولي عبدالعزيز بن عبدالرحمن بلنسية، وكان محمد بن سعيد من أخص الناس به، ومتولي تدبير أموره إلى أن مات. (انظر ترجمته في: ابن الأبار: إعتاب الكتاب، ص٢٠١).

(٥٣) ابن الأبار: إعتاب الكتاب، ص٢٠٢، المقري: نفخ الطيب، ج٥، ص٢٦٨.

رفض نصيحة قائد جيشه، فهلك معظم الجيش، فقال أبو خرُّوب([54]):

بكا دَوْبَلٌ([55]) لا أرقأ الله عينه ... ألا إنما يبكي من الذلِّ دَوْبَلُ

وقد مال بعض الشعراء إلى السخرية التهكمية من المهجو واظهار عيوبه، وتذكيره بأصله، والحطّ من مكانته الاجتماعية بين الناس، ونرى ذلك في الأبيات التي قالها ابن غرسية في رسالته الشعوبية، وهو ينتقد الشاعر ابن الخرّاز، الذي ترك مدح مجاهد العامري واقتصر مدحه على المعتصم بن صمادح، يقول في رسالته الشعوبية([56]):

بَطَرْنَةُ تعلمُ أصلاً لهُ ... عَزُبْتَ فَسَلْهَا فما تنكِرُ

ومثّلْ بها وضماً ماثلاً ... وَشفْرةَ جَزْرو لا أكْثرُ

تجرُّ ذيولَ العلى تائهاً ... وجدُّكم الجازر الأكبرُ

فهذي العلا لا علا حاجب ... ومثلُكَ يا سيدي يَفْخَرُ

ب- العلاقات الاجتماعية بين الأمراء والشعراء والتنافس بين الشعراء

لقد صوّر الشعراء في دانية والجزائر الشرقية العلاقات التي تربط شعراء البلاط بالأمراء الذي كانوا يمدحونهم، وكان التنافس كبيراً بين الشعراء في بلاط هذا الأمير أو ذاك، فعندما كان يحظى شاعر ما بمكانة متميزة لدى الأمير، يكثر الحسّاد والوشاة من حوله، محاولين الإيقاع به والتقليل من شأنه، وقد ينجحون أحياناً في ذلك، فيحاول هذا الشاعر أن يدافع عن نفسه، ويستعطف ممدوحه أو أميره، وقد ينجح في ذلك وقد يفشل، والأمثلة على ذلك نراها في هذه المدينة والجزائر الشرقية كثيرة.

فقد كان ابن سيده منقطعاً إلى الأمير مجاهد العامري حتى وفاته، وعندما تولى ابنه إقبال الدولة الحكم في دانية، حدثت له نبوة فهرب من دانية خوفاً على نفسه، ولكنه لم يطق الابتعاد عن دانية التي أحس فيها بالأمان والراحة، فما عاد يحتمل

---

(٥٤) الحميدي: جذوة المقتبس، ص٣٥٢، وانظر خبر ذلك هناك.

(٥٥) الدَوْبَل: ولد الحمار أو ولد الخنزير، (انظر لسان العرب، مادة دَبل).

(٥٦) ابن سعيد، المغرب، ج٢، ص٤٥٦.

الحياة في غيرها من البلاد، فيكتب إلى إقبال الدولة يستعطفه، ويرجوه أن يعفو عنه، ليعيش في ظلاله، حيث يكون الأمن والراحة، فلقد واجه المحن والمصائب والهموم، وهو بعيد عن دانية، فما عاد للحياة لذة أو سعادة، يقول(٥٧)

ألا هل إلى تقبيل راحتك اليُمْنَى سبيلٌ فإنَّ الأمنَ في ذاكَ واليُمْنَا

صخيتُ فهلْ في برد ظلِّك نومةٌ لِذي كَبِدٍ حرّى وذي مقلة وَسْنَا

ونضوُ هموم طلَّحَتْه طِيَاتُهُ فلا غَارِباً أبقين منه ولا متنا

ثم يعبر عن محنته الأخرى المتصلة بهذا البعد، وهي بعده عن أهله، وهي محنة كفيلة ببعث الأسى والحزن في النفس، وهو يشير إلى أن الدهر قد أصابه بهذه المحن، وهو يأتي الآن شاكياً الدهر ونوائبه، ويرجو الصفح والعفو، فهل ستصفح لعبدك وخادمك أم ستثنيه؟ فيقول(٥٨):

هجان نأى أهلوه عنه وشفَّهُ فراقٌ فأمسى لا يدسُّ ولا يَهْنَا

فيامـلك الأملاك إني مُحَوَّمٌ على الوردِ لا عنه أذادُ ولا أُدْنَى

تحيفني دهري وأقبلت شاكياً إليكَ أمأذون لعبدك أم يثني

ثم يخاطب الشاعر أقبال الدولة مؤكد أن كل ما عنده من نعم ومكرمات هي نعم ومكرمات سيده وأميره، فدمي وحياتي هي أكبر نعمة، فإذا جعلت هذه النفس فداء وتضحية، وإذا سفكت دمي، فلا عتب ولا لوم عليك فأنت من صنعت هذه النفس فيقول(٥٩):

وإن تتأكد في دمي لك نيةٌ بسفك فإني لا أحبُّ له حَقْنَا

دمٌ كوَّنَتْهُ مكرماتك والذي يكوِّنُ لا عتبٌ عليه إذا أفْنى

إذا ما غدا من حَرِّ سيفك بارداً فَقِدْماً غداً من برد برِّك لي سجنا

ثم يؤكد الشاعر حتمية القضاء ونهاية كل إنسان، فالحياة ما هي إلا ساعة حينها يندم كل انسان على أعماله فيها، فليس للحياة قيمة أو فائدة أرجوها، وأنت غاضب

---

(٥٧) الحميدي، جذوة المقتبس، ص٣١١.

(٥٨) المصدر نفسه، ص٣١١.

(٥٩) المصدر نفسه، ص٣١١.

مني، فإذا كان في قتلي رضى وسعادة لك، فاقتلني وأرحْني من هذه الحياة، فيقول ابن سيده(٦٠):

وهل هـــي إلا ساعةٌ ثم بعـــدها ستقْـــرعُ ما عُمِّرْتُ من نَدَم سنّــاً
ولــلـه دمعي ما أقلَّ استــنانـه إذا في دمي أمْسَى سنانُكَ مُسْتَنا
ومالي من دهري حياةٌ أَلَــذُّها فيـــعتدُّها نُعْــمىَ عَلَيَّ و يمــتَنَّا
إذا قِتْلةٌ أرضتكَ منّا فهـــاتِها حبـــيبٌ إلينا ما رضــيتَ به عَنّا

أما ابن اللبانة فقد نال مكانة عظيمة عند ناصر الدولة أمير ميورقة بعد أن غادر إشبيلية، ولكن هذه المكانة لم تدم فقد كثر حاسدوه في البلاط، وكثر الوشاة فيتغير عليه ناصر الدولة ويغضب منه بعد كثرة الوشايات، فيخرج من ميورقة، فيخاطب ناصر الدولة مدافعاً عن نفسه، مؤكداً براءته، مبرراً أن خروجه من ميورقة ليس بسببك، ولكن لوجود هؤلاء العداة الحاسدين من الشعراء، فيقول(٦١):

سلامٌ على المجد ينـدى بلـيلا كنشر الربى بكرةً وأصـيلا
سلام وكنــتُ أقـــول الوداعُ ولكنْ أدرِّجُ قلـبي قـليـلا
جُرِحْتُ لديك وكنت البـــريا كما يَجْرَح اللحظُ خَدّاً أسيلا
ولَو لم أكن ماضِيَ الشفرتين لما فَلَّني الدهرُ عضباً صقيلا
ولولا مُقامِـــيَ بين العــداةِ لــما كنتُ أُوْثر عنك الرحيلا

ويحاول الشاعر أن يقترب إلى ناصر الدولة بعد ما حدث من جفوة، ليسمح له بمغادرة ميورقة لا لشيء، إلا لأنه يريد أن يرتاح من الوشاة والحاسدين، الذين أوقدوا نيران حقدهم وغضبهم، وقد حماني الله من هذه النار كما حمى الله سيدنا ابراهيم من نار قومه. فأصبحتْ برداً وسلاماً، لقد سعى هؤلاء الوشاة إلى الايقاع بي ولا علم لي بكل ما حدث، ولذلك يطالب الشاعر بالفرار من هؤلاء رغم أن ميورقة كانت كمصر في شهرتها ومكانتها في ظل هذا الأمير، يقول ابن اللبانة(٦٢):

---

(٦٠) المصدر نفسه، ص٣١١.

(٦١) شعر ابن اللبانة، ص٧٩.

(٦٢) المصدر نفسه، ص٨٠.

عسى رأفة في سراحٍ كريم أبلُّ ببرد نداه الغليلا

لعلي أُراحُ من الطالبين فأسكن للأمن ظلاً ظليلا

لقد أوقدوا لي نيرانهم فصيرني الله فيها الخليلا

سَعَوْا لِيَ عندك في عثرةٍ ولا علم لي فكنست المقيلا

أفر بنفسي وإن أصبحتْ ميورقة مصراً وجدواك نيلا

وعندما يخرج ابن اللبانة من ميورقة يخاطب أصدقاءه وأصحابه معاتباً ومودِّعاً، مبيناً في أبياته جانباً من تغير العلاقات التي كانت تربطه بهم، بعد هذه المحنة فقد تركوه، ولم يقدموا له شيئاً، على الرغم من انه كان وفياً مخلصاً لهم، فقد أضاعوه وأهملوه وتخلّوا عنه، يقول ابن اللبانة(٦٣):

أقول تحيةٌ وهيَ الوداعُ خداعاً لي وما يغني الخِداعُ

أُحَلِّلُ بالمنى قلباً شعاعاً ولَنْ يتسعلل القَلْبُ الشُّعَاعُ

وأترك جيرة جاورا وأشدو «أضاعوني وأيُّ فتى أضاعوا»

إذا لم يُرْعَ لي أدَبٌ وبأسٌ فلا طالَ الحسامُ ولا اليراعُ

لقد باعتني العَلياءُ بَخساً وعهدي بالذخائر لا تباعُ

أجَفَّتْني فلم ينبتْ ربيعٌ وحطَّتْني فلم يثبتْ يفاعُ

ومكنت العدى منيٌّ فعاثت بلحمي ضِعْفَ ما عاثَ السِّبَاعُ

ويتذكر ابن اللبانة في محنته هذه صديقه أبا القاسم، الذي أصبح وزيراً علّه يشفع له عند الأمير، ويبعد الجفاء بينهما، لكنه لا يجد من صديقه إلا الإعراض، والنأي، فيقول(٦٤):

نسيمكَ حتّام لا ينبري وطيفُكَ حتى ما لا يعترى

أعيذُكَ من عَرَضٍ أن يكون وانتَ الذي كنت من جوهري

أتذكر أيامنا بالحمى وأيامنا بذوي الأعْصُرِ

ألا رأفةٌ من وفيٍّ صفيٍّ ألا عطفةٌ من سَنيٍّ سري

---

(٦٣) ابن خاقان: قلائد العقيان، ص٧٨٨.

(٦٤) المصدر نفسه، ص٧٨٦.

رمى زُحَلٌ في أظفارِهِ وَحَلٌ يداً عني المشتري

وعندما وجد الشاعر الصدود من صديقه الوزير، كتب له رسالة شعرية أخرى يستطعفه فيها ويطلب إليه أن يكون شفيعه لدى الأمير، وأن يرعى ما بينهما من صحبة وصداقة، فيخلصه من هذه الوشاية والمؤامرة التي حاكها الحاسدون، فيقول(٦٥):

أذَكِّرُمن لا ينس عَهْداً ولاَ يَنْسَى وأبْسُطُ في أكناف ساحتِهِ النَّفْسَا

وأنشئُها خَلْقاً جديداً واغتدي بظلُّ عُلاَهُ أعتدي معه الأُنسا

وألبسُ ريعان الشباب وطال ما لبستُ الخطوبَ الحمرَ ما دونَه وَرْسَا

أبا القاسمِ اشربْ قهوة العزِّ وانتقل ثناني ومن فضل الكؤوس اسقني كأسا

وخذ بيدي من عَثْرة، قصَّرت يدي وكنتُ أخا بأسٍ فلمْ تبقِ لي بأسا

أما الأديب الشاعر أبو جعفر بن البني فينفيه ناصر الدولة من ميورقة؛ لمجونه وفسقه، ويرى أصدقاءَه قد تخلوا عنه؛ وهم أصحابه الذين كانوا يشاركونه في جلسات اللهو والمجون، حيث لم يجرؤ أحد منهم على زيارته والاطمئنان على أحواله، فيصور هذا الشاعر ماضي الود الذي كان يربطه بهم في السابق، وهم الأصدقاء والخلان، أما اليوم فقد تخلوا عنه وتركوه وحيداً يعيش في محنته، فيرحل عنهم مغادراً ميورقة عبر البحر، يقول(٦٦):

أحبتنا الألى عتبوا علينا فأقصرنا وقد أزف الوداعُ

لقد كنتم لنا جَذَلاً وأنسا فهل في العيش بعدكمُ انتفاعُ

أقولُ وقد صدرنا بعد يومٍ أشوق بالسفينة أم نزاعُ

إذا طارت بنا حامت عليكم كأنَّ قلوبنا فيها شراعُ

(٦٥) المصدر نفسه، ص٧٨٦-٧٨٧.

(٦٦) المقري، نفح الطيب، ج٦، ص٩.

انتشرت ظاهرة الافتخار بالحسب والنسب بين الشعراء في دانية والجزائر الشرقية، فنجد الشاعر يفتخر بنفسه وبنسبه وأصله وبمقدرته الشعرية وتميزه بين الشعراء.

فابن غرسية يفتخر بأصله الرومي، وهذا الأصل غيرالعربي لم يمنعه من أن يكون بليغاً فصيحاً وشاعراً كاتباً وخطيباً مفوّهاً، فقد تعلّم العربية وعرف أصولها، يقول(٦٧):

إنَّ أصلي كما علمت ولكنْ ... نَ لســـاني أعزُّ من سحبانِ

وأنا من خير الملوك بصدرٍ ... هل ترى بالقناةِ صَدْر السِّنَانِ

أما ابن اللبانة فيفتخر بنفسه ومقدرته الشعرية بين الشعراء الحاسدين، الذين سعوا إلى الايقاع به عند ناصر الدولة، فيشير إلى أنهم غير قادرين على أن يوقعوا به، أو ينالوا منه، لقد رأوا أنني في الظاهر سهل المنال لين الجانب، ولكنهم لا يعلمون حقيقة النفس من الداخل، إنهم أشبه بالفراش الذي يحوم حول المصباح فيحرقه، يقول ابن اللبانة(٦٨):

تقيسني الأعداء في مهجاتها ... كمن قاس في أوداجه ظَـبَّةَ الهندِ

وتحسبُ في عودي لياناً مرانه ... لفي السر من نبع وفي الجهر من رندِ

ويا عجباً من جهل كلُّ فراشةٍ ... تعـارضُ مصـباحي ليحرقها وقدي

وعندما يترك الأصدقاء والأصحاب صديقهم ابن اللبانة، وهو يواجه حاسديه وحده، يعتب عليهم ويفتخر بنفسه مشيراً إلى أن تخلّيهم عنه، يعود إلى عدم معرفتهم بصديقهم هذا، وقيمته بين الشعراء، فمثله لا يتخلى عنه أصدقاؤه، فالذخائر والجواهر الثمينة لاتباع، يقول(٦٩):

---

(٦٧) ابن سعيد: المغرب، ج٢، ص٤٠٧.

(٦٨) شعر ابن اللبانة، ص٣٨.

(٦٩) المصدر نفسه، ص٦٢.

وأتركُ جيرة جاورا وأشدو (أضاعوني وأيَّ فتى أضاعوا)

لقد باعتني الأيام بخساً وعهدي بالذخائر لا تباعُ

وفي قصيدة أخرى يتباهى ابن اللبانة بنفسه ومقدرته الشعرية، فهو شاعر لا يمكن لأحد أن يصل إلى مكانته الشعرية، لأنَّ مكانته فوق النجوم، وإذا كان الشعراء يكتبون شعرهم بالحبر أو المداد فإن شعره من سويداء القلب، كما يقول(٧٠):

تُباً لمحطوط يروم مكانتي والنجم من أذيالها متعلقُ

من كان ينفق من سوادِ كتابه فأنا الذي من نور قلبي أنفقُ

ويشير الشاعر في قصيدة أخرى إلى شهرته ومكانته الشعرية في قصيدة يودع ناصر الدولة، ويعاتبه لتخليه عنه، وسماعه أقوال الوشاة والحسدة، فقوّته ومكانته هي التي دفعت الأذى عنه، ولولا ذلك لاصابه الدهر بأحداثه ومحنه، يقول ابن اللبانة(٧١):

ولو لم أكن ماضِيَ الشفرتينِ لما فلّني الدهرُ عَضْباً صقيلا

ولا يتراجع الشاعر وهو يرى الوشاة ومؤامراتهم، فيقف ابن اللبانة موقفاً حازماً من هؤلاء الوشاة والحاسدين، وهم ينتقدون شعره، فيخاطب من يقلل من قدره ويحط من مكانته، وقيمة شعره وأنهم لا يعرفون قيمة الرجال، فالرجال لهم موازين ومعايير يعرفون بها، إنهم لا يكالون كما تكال الحبوب أو المحاصيل، ويشير إلى عجزهم عن تثمين الشعر الجيد، وتمييزه من الشعر الرديء، فأنا أرى الشعر أو القصيدة قلادة من لؤلؤ، وأنتم نحتم أحجارها من الصخر الصلب، أنا شمسكم التي تستضيئون بها عند ظهوري، يقول ابن اللبانة(٧٢):

يا حاقراً قدْري وقدْري فَوْقه ليس الرجال تقاسُ بالقفزانِ

عبتم رطوبةَ منطقي فكأنكم عبتمْ فتور اللحظ من وسنانِ

وجهلتمُ أن القلادة لؤلؤ فنحتُّمُ الأحجارَ من ثهلانِ

---

(٧٠) المصدر نفسه، ص٧٣.

(٧١) المصدر نفسه، ص٧٩.

(٧٢) ابن بسام: الذخيرة، ق٣ م٢، ص٦٨٨.

أنا شمسكم إنْ لُحْتُ غبتم أو أغِبْ   أبقيتُ منكم فَضْلةَ اللمعانِ

وعندما أرسل أبو المظفر البغدادي[73] رسالة شعرية مدح بها ناصر الدولة مطلعها[74]:

هو طيفُها وطُروقُهُ تعليلُ   فمتى يفي لكَ والوفاء قليلُ

يطلب أمير ميورقة ناصر الدولة من ابن اللبانة معارضة هذه القصيدة، فيقول ابن اللبانة قصيدة مطلعها[75]:

في الطيف لو سَمِحَ الكرى تعليلُ   يكفي المحبَّ من الوفاءِ قليلُ

وفي هذه القصيدة يفتخر الشاعر بنفسه وبشعره ومقدرته على المعارضة، والرد على قصيدة كهذه، مؤكداً أنه لا يوجد شاعر قادر على معارضة هذه القصيدة غيره[76]:

وأتتكَ من بغداد بكرٌ ما لها   غيري -وإن كثر الرجال- كفيلُ

ويعترف الشاعر بجمال تلك القصيدة، لكنه يجعل قصيدته موازنة لها، وتحلُّ معها في مرتبة واحدة، فهما قصيدتان جميلتان اجتمعتا في بلاط الأمير، كما جمع الله بين بثينة وجميل[77]:

جمعت وشعري في بساطِكَ مثلما   جُمِعَتْ بثينةُ في الهوى وجميلُ

ويجعل الشاعر مكانته كمكانة امرئ القيس في قبيلة كندة، بل يبالغ في ذلك، فيشير إلى أنه لو كان من قبيلة كندة لما استطاع امرؤ القيس أن يحلَّ محله، يقول[78]:

أنا ذاك لو أني أكونُ لكندةٍ   ما فاتني فيها الفتى الضِلِّيلُ.

---

(73) هو أحد الشعراء الذين أقاموا في مصر، في ظل الفاطميين.

(74) ابن بسام، الذخيرة ق٣ م٢، ٦٨٩.

(75) المصدر نفسه، ق٣ م٢، ص.٦٩٠، انظر: شعر ابن اللبانة، ص٨٣.

(76) المصدر نفسه، ق٣ م٢، ص.٦٩٠، انظر: شعر ابن اللبانة، ص٨٥.

(77) المصدر نفسه، ق٣ م٢، ص٦٩١، انظر: شعر ابن اللبانة، ص٨٥.

(78) المصدر نفسه، ق٣ م٢، ص٦٩٢، انظر: شعر ابن اللبانة، ص٨٥.

لقد صوّر الشعراء جانباً من الحياة الاجتماعية في شعرهم، وعبر بعضهم عن عزوفهم عن الدنيا وشهواتها، وما فيها من زينة وملذات، وهم يرون أن هذه الحياة الدنيا لا قيمة لها ولا وزن، إذا ما قورنت بالآخرة دار الحساب والعقاب والثواب، فإذا كانت هذه الحياة الدنيا ساعة من الزمن، فلماذا لا يجعلها الانسان في طاعة الله سبحانه وتعالى، كما يقول أبو الوليد الباجي(٧٩):

إذا كنت أعلم علمَ اليقين   بأن جميع حياتي كساعةْ
فلمْ لا أكونُ ضنيناً بها   وأجعلها في صلاحٍ وطاعة

يرى الحميدي، الفقيه والمؤرخ أن لقاء الناس والاجتماع بهم لا فائدة منه ولا يكسب الانسان من لقائه بالناس إلا المعصية والغيبة وغيرها من الأمور فعلى الإنسان أن لا يكثر من لقاء الناس، وأن لا يكون لقاؤه بالناس إلا لأخذ العلم أو الاستفادة في شؤون الحياة كما يقول(٨٠):

لقاءُ الناس ليس يفيد شيئاً   سوى الهذيان من قيل وقالِ
فأقلل من لقاء الناس إلا   لأخذِ العلم أو اصلاحِ حالِ

ويدعو الحميدي في بيتين آخرين إلى التزام طريق الزهد، وتقوى الله والخوف منه، والتوكل على الله دائماً، فهو يغنيك عن البشر، يقول(٨١):

طريق الزهد أفضل ما طريق   وتقوى الله تالية الحقوقِ
فثق بالله يكْفِكَ واستعنه   يُعِنْكَ ودَعْ بُنَيَّاتِ الطريقِ

ثم يتحدث في أبيات أخرى عن نهجه في هذه الحياة، التي جعل الزهد والبعد عن مفاتن الدنيا من أهم صفاته، فكلام الله هو منهجه في الحياة، وكذلك السنة الشريفة، وما اتفق عليه جمهور العلماء، يقول(٨٢):

---

(٧٩) ابن بسام، الذخيرة ق٢ م١، ص٩٨، وانظر كذلك: المقري، نفخ الطيب، ج٢، ص٢٨٤.

(٨٠) المقرى، نفح الطبيب، ج٢، ص٣١٩.

(٨١) المصدر نفسه، ج٢، ص٣٢٠.

(٨٢) المصدر نفسه، ج٢، ص٣٢٠.

كلامُ الله عز وجل قـولي   وما صحت به الآثار ديني

ما اتفق الجميع عليه بَدْأً   وعوداً فهو عن حق مبين

فَدَعْ ما صَدَّ عن هذا وهذا   تكن منها على عين اليقين

ويصـوِّر الفقيـه والمحدث أبو الحسن علي بن رجا الميـورقي الموت وقـرب الأجل، وقد ظهرت علاماته بالشيب الذي ملأ رأسه، وقد بلغ الخامسة والأربعين من عمره، فكل شيء له دواء إلا الموت، وهو يتـعـجب من الذين يلهـون ويمرحـون في هذه الحـيـاة، فيقول(٨٣):

كيف أصْبُو وأربعون وخمسٌ   رَقَّمَتْ بالمشيب مفرقَ رأسي

كلُّ داءٍ له دواء وذا الشيـ   ـب والموت ما لهُ من آسي

ويدعـو محـمـد بن عمار الكلاعي الميـورقي إلى التزام الطاعة والجماعة، وهو يوصي ابنه حسناً داعياً إياه إلى طاعة ولاة الأمر، حتى لو كانوا جائرين ظالمين، أما إذا كفروا وأعلنوا كفرهم فعليك بالهجرة والرحيل، فيقول(٨٤):

وطاعة من إليه الأمرُ فالزمْ   وإن جاروا وكانوا مسلمينا

فإن كفروا ككفر بني عبـيد   فلا تسكنْ ديارَ الكـافرينـا

وهذا البيتان هما إشارة من الشاعر إلى طبيعة العلاقة الاجتماعية التي يجب أن تربط الحاكم بالمحكوم، من وجهة نظر هذا الشاعر، لتتم من خلال هذه العلاقة، المحافظة على النسيج الاجتماعي مترابطاً متماسكاً.

هـ- الغربة والحنين

لقد كانت الظروف والأحوال التي سادت الأندلس في القرن الخامس الهجري، سبباً في ارتحال عدد من الشعراء من مدنهم وأوطانهم إلى مدن أخرى، بل دفعت الفتنة والحروب بعض الشعراء إلى مغادرة الأندلس.

فعانى هؤلاء من الغربة وآلامها وقسوتها، خاصة حينما تطول هذه الغربة عن

---

(٨٣) الحميدي، جذوة المقتبس، ص٣١٤.

(٨٤) ابن الأبار، التكملة، ج١، ص٤٠٣، وانظر: المقري: نفح الطيب، ج٢، ص٢٧٠.

الوطن والأصدقاء، فيحن الشعراء إلى وطنهم ويشتاقون إليه.

وقد بدت هذه الظاهرة في شعر أبي بكر محمد بن القاسم المعروف باشكهباط أو اشكنهاده، فقد ترك هذا الشاعر الأندلس متوجهاً نحو المشرق إلى العراق والشام، وأحس أثناء الرحلة بالشوق والحنين إلى الأندلس، فعاد مرة أخرى إليها، وحلّ في بلاط مجاهد العامري في دانية، وقد وصف رحلته وتحدّث عن مراحلها، فهو يرى أن العالم كله هو جهنم، أما دانية التي تعد رمزاً للأندلس عامة فهي جنة عدن، بكل ما فيها من جمال، فيقول مادحاً مجاهداً العامري(٨٥):

فلا تسألوني عن فراق جهنم   ولكن سلوني عن دخولي إلى عَدْنِ

إنّ هذا القول كان صدى لما واجهه في مدينة حلب، فقد وصف ما لقي من عناء وما رأى من خطوب وأحداث، لقد أضحى غريباً ذليلاً طريداً، فيخاطب أحباءَه واصدقاءَه لتكون رحلته هذه درساً وعبرة لكل مَن يفكر بمغادرة موطنه، يقول(٨٦):

يا أحبائي اسمعوا بعض الذي   يتــلقاه الــطريد المغتربْ

وليكن زجراً لكــم عن غــربةٍ   يرجع الرأس لديها كالذنبْ

ويرى أبو العرب الصقلي المبرر لكل من يغادر موطنه، فهو شاعر غادر صقلية، وتوجه إلى ميورقة، ولا فرق بين مكان وآخر -كما يرى- لأن أصل الإنسان من طين وتراب، ولذلك كلّ مَنْ على هذه الأرض هم أخوتي وأقاربي، يقول معبراً عن ذلك(٨٧)

إذا كان أصلي من تراب فكلُّها   بلادي وكل العالمين أقاربي

و- المناسبات والأعياد والمواسم الاجتماعية

كان عيد المهرجان و عيد الربيع أو النيروز من الأعياد والمناسبات الاجتماعية التي خلدها الشعر الأندلسي عامة، وخلدها شعر دانية والجزائر الشرقية خاصة في هذا العصر.

---

(٨٥) ابن سعيد، المغرب، ج٢، ص٣٢، المقري: نفخ الطيب، ج٢، ص٣٠٣.

(٨٦) المقري، نفخ الطيب، ج٢، ص٣٠٣.

(٨٧) ابن الأبار، التكملة، ج٢، ص٧٠٣.

فقد احتفل أهل دانية والجزائر الشرقية بهذا العيد، وصوّره الشعراء في قصائدهم لأنهْ كان «مناسبة طيبة درج الناس فيها على تقديم التهاني ورفع الدعاء، وسماع الأماني بالتوفيق، وتلقي الهدايا والعطايا والمنح، فالعيد مهرجان للفرح والسرور وإشاعة المحبة»(٨٨).

ولهذا كان للشعراء حضورهم في وصف هذه المناسبة، والتعبير عنها، ومشاركة الناس جميعاً في تقديم التهاني للأمراء، فيقول ابن اللبانة معبراً عن هذا العيد وبهائه وزينته وفرحة الناس به، مبيناً أنه مناسبة لتقديم الهدايا والمنح، ويقدم هذه القصيدة هدية لناصر الدولة مبشر بن سليمان أمير ميورقة(٨٩):

يا كوكبَ النيروز في بهجةٍ   أسنى من البدر المنير اللياحْ

جاءَتْ عطاياك تهادى به   تهادي العير غداة اقتراحْ

لوْ أن لي قوّة عهد الصبا   لم أترك النيروز دون اصطباحْ

يومٌ رقيقٌ ناثـر ناظمٌ   كافوره فوق الرُّبى والبِطَاحْ

أما يوم المهرجان فقد احتفل به شعراء دانية والجزائر الشرقية، ولهذا العيد نمط خاص أو أسلوب خاص للاحتفال به، فالاحتفال بهذا العيد «ربما تضمن عرضاً عسكرياً شاركت فيه أصناف مختلفة من القوات العسكرية المسلحة، ومنها الأسطول البحري، فتروح أنواع من السفن الحربية تشق عباب البحر، وقد علاها الفرسان في حال من البهاء والجلال والرفعة، تثير في نفوس الاندلسيين الزهو والفخار وتلقي في قلوب أعدائهم الرعب والخوف»(٩٠).

وقد وصف ابن اللبانة هذا العيد في ميورقة في حضرة أميرها ناصر الدولة، حيث يقول(٩١):

---

(٨٨) محمد مولود خلف المشهداني، الشعر الاجتماعي في الأندلس من الفتح إلى نهاية عصر الطوائف، الجامعة المستنصرية، رسالة دكتوره، ١٩٩٠، ص٢١١.

(٨٩) شعر ابن اللبانة، ص٣١.

(٩٠) محمد مولود خلف المشهداني، الشعر الاجتماعي في الاندلس، ص٢٠٧.

(٩١) شعر ابن اللبانة، ص٧٢.

بشـــرى بيوم المـــهرجان فإنه   يـــوم عليه من احتفالك رَوْنَق

طارت بنات الماء فيه وريشها   ريش الغراب وغير ذلك شوذق

ويستمر الشاعر في الحديث عن الجيوش والسفن الحربية، وحركتها داخل البحر واصفاً العرض العسكري البحري، الذي يقوم به أفراد جيش ميورقة في عهد أميرها ناصر الدولة.

ومن المناسبات الاجتماعية الأخرى التي نظم فيها شعراء دانية والجزائر الشرقية استلام ولاية العهد وتقلدّ أمور الدولة، فقد هنأ ابن غرسية إقبال الدولة بولاية العهد بعد أبيه، حيث عبر عن فرحته بهذه المناسبة، وسعادة أهل دانية والجزائر الشرقية بذلك. فقد بزغ فجر جديد وتلألأت أنواره، أما الظلام فقد ظعن وولّى إلى غير رجعة، وقد نال الأمير هذا العهد من أبيه الذي لا يشبهه ملك أو أمير، ولا ينسى الشاعر أن يبدي النصيحة لسيّده وأميره الجديد، فهو يدعوه إلى أن يقوم بأمر الدولة خير قيام، يقول ابن غرسية(٩٢):

الآنَ أطْلَعَ في ليل الرَّجاء سنا   وقابَلَ الصبحَ والإظلامُ قد ظعنا

عَهَدٌ حباك به من ليس يشبهه   مَلْكٌ فأخلصْ عليه السرُّ والعلنا

ولْتَلْقَهُ بانتـــهاضٍ لاكفاءَ لـــه   ما إن يُبَـــعِّدَ لا مِصْـراً ولا عَدَنَا

كذلك شارك شعراء دانية والجزائر الشرقية، الناس أحزانهم وأتراحهم، وعبروا عن حزنهم ومشاركتهم إياهم بقصائدهم ومقطوعاتهم الشعرية، ومن ذلك رثاء ابن اللبانة أخت المرتضى أغلب حاكم ميروقة قبل ناصر الدولة، فعندما ماتت شارك ناصر الدولة الناس في ميورقة حزنهم على وفاتها، فقال ابن اللبانة أبياتاً من الشعر في رثائها معزياً ناصر الدولة(٩٣):

أبنت الهدى جددت صـــنعاً علا صنعاً   مضى المرتضى أصلاً وأتبعه فرعا

جرى الموتُ جري الريح في ميتتيكما   فأذواك ريـــحاناً وكسَّـــره نبعا

على نَسَـــقٍ جاء المـصاب وإنّـــما   تقدّم وِتراً ثـــم أتْبَـــعَهُ شَـفْعا

---

(٩٢) ابن سعيد، المغرب، ج٢، ص٤٠٧.

(٩٣) شعر ابن اللبانة، ص٦١.

وقد عبّر الشعراء عن أحزانهم وأشجانهم عند فقدان للأعزاء عليهم من ذوي القربى، من أبناء أو آباء أو أخوة، فنجد الكاتب والشاعر عبدالعزيز ابن أرقم النميري، يرثي بنتاً له يجعلها مصدر حزنه حين ماتت، ويطلب من الشمس أن تنكسف لموتها، ومن القبر الذي ضم هذه المرثية أن يزهو لأنه احتوى نفس الشاعر ومقلته، يقول(٩٤):

انكسفي ويحك يا شمسُ　　وازهَ بما ضُمِّنْتَ يا رَمْسُ

في سرّ أجفانك لي مقلة　　وبين أضلاعك لي نفسُ

أما أبو إلوليد الباجي فيرثي ابنيه اللذين ماتا مغتربين، فيعبر عن حزنه بفقده مهجتيه، فإن غاب هذان المفقودان، فهما في فؤاده، يقول(٩٥):

رعى الله قبرين استكانا ببلدةٍ　　هما أسكناها في السواد من القلبِ

لئن غُيّبا عن ناظري وتبوّءا　　فؤادي لقد زاد التباعد في القربِ

يقرُّ بعيني أن أزورَ ثراهما　　والصق مكنونَ الترائبِ بالتربِ

وأبكي وأبكي ساكينها لعلّني　　سانجدُ من صحب وأسعد من سُحْبِ

ويربط أبو الوليد الباجي في رثائه لابن آخر مات، اسمه محمد بين موته وموت الرسول صلى الله عليه وسلم، فيرثي الرسول عليه السلام، ويرثي ابنه، فقد أُصيب الشاعر -وهو فقيه- بموت الرسول عليه السلام قبل أن يصاب بفقده ابنه، ويعبر الشاعر عن أن الذي أصابه بموت النبي عليه الصلاة والسلام كان أشد وأعظم من موت ابنه يقول(٩٦):

أمحمداً إن كنت بعدك صابراً　　صبر السليم لما به لا يَسْلَمِ

ورُزِئْتُ قبلكَ بالنبي محمداً　　ولرُزْوُه أدهى لديَّ وأعظمُ

وقد يتجاوز الشعراء في دانية والجزائر الشرقية رثاء الأقارب إلى رثاء الأباعد من الناس، فعبدالله بن أبي يوسف بن عبدالبر يرثي رجلاً مات مجذوباً، حيث يصف من خلال أبياته هذه الإنسان أي انسان مريض، فالناس يرونه سالماً معافى، ولكنّ

(٩٤)　ابن بسام، الذخيرة، ق٣ م١، ص٤٠٣.

(٩٥)　المصدر نفسه، ق٢ م١، ص١٠١ وانظر: ابن سعيد، المغرب، ج١، ص٤٠٥، المقّري، نفح الطيب، ج٢، ص٢٨٤.

(٩٦)　المقري، نفخ الطيب، ج٢، ص٢٨٤.

المرضَ إذا أصابه يصبح هذا الكائن الحي لا قيمة له ولا حول، فمرض الجذام أصاب هذا الرجل، وهو مرض يشبه البحر في أمواجه، وقد انتشر في جسم هذا الإنسان، الذي كان في السابق سيفاً صقيلاً لامعاً فأصبح بعد المرض سيفاً صدئاً، يقول(٩٧):

مات مَنْ كُـنَّا نراه أبـداً ... سَالمَ العقلِ سلَيم الجَسَدِ

بحرُ سقم ماج في أعضائه ... فرَمى في جلده بالزُّبَرْجدِ

كان مثل السـيف إلا أنَّه ... حُسِدَ الدهرُ عليه فصدي

ويتجاوزالشعراء رثاء البشر إلى رثاء الحيوان في شعرهم، إذ نجد الوزير الحكيم المصري عبدالله بن خليفة القرطبي، يرثي مهراً لإقبال الدولة أخذ له، وحُكيَ أن الذئب قد أكله، فيذكر الشاعر بعد مدح إقبال الدولة قصة هذا المهر الذي يرثيه، يذكر صفاته التي يتميز بها، يقول الوزير المصري(٩٨):

يا ويحَ قلبـي من دهرٍ تعمَّـدني ... بالنائبان فلاذتْ بي يد النُّوَبِ

حتى بمهر هضيم الكشح ذي هيفٍ ... كـأنَّ أجزاءه جـأبٌ على نسبِ

حلُو الصـهيلِ له في صـوته فتنٌ ... كانَّه حين يـشدو بالثقـيل رُبي

ثم يشير الشاعر إلى ما تردد من حكايات حول قصة فقدان هذا المهر وضياعه وأن الذئب قد أكله، فيستغل الشاعر هذه الحكاية ويربط قصة هذا المهر والذئب، بقصة سيدنا يوسف عليه السلام مع إخوته وأبيه، والذئب الذي ادّعى إخوته أنه أكله، وبين الشاعر مدى حزنه لفقده هذا المهر، وبين أنه إن كان يعقوب عليه السلام لم يقنع بقصة الذئب الذي أكل يوسف عليه السلام، فإنه أيضاً لم يقتنع بأن هذا المهر قد أكِلَ لقد سُرِقَ ولم يعرف مصيره؟ يقول الشاعر(٩٩):

يا يوسفَ الخيل يا مقتولَ إخوته ... قلبي لفقدك بين الحَرْبِ والحَرَبِ

إن كانَ يعقوبُ لم يقنـعْ بكذبِهمُ ... إني لأقنـعُ منهم بالدمِ الكذبِ

ونلاحظ من خلال استعراضنا لشعر الرثاء في دانية والجزائر الشرقية انه خلا

---

(٩٧) ابن خاقان، قلائد العقيان، ص٥٢٨-٥٢٩.

(٩٨) انظر: ابن بسام، الذخيرة، ق٤ م١، ص٥٢٩.

(٩٩) المصدر نفسه، ق٤ م١، ص٣٥٢.

من رثاء أمرائها مجاهد العامري، وابنه إقبال الدولة وأمير الجزائر الشرقية مبشر ابن سليمان. ونحن أمام أكثر من احتمال في تفسير هذه الظاهرة منها ان هناك أشعاراً وقصائد كانت قد قيلت في رثاء هؤلاء الأمراء، ولكن هذه الأشعار ضاعت ولم تصل إلينا اذا لم نعثر على شيء منها في المصادر الأدبية والتاريخية وكتب التراجم التي بين أيدينا.

وربما لم ينظم هؤلاء الشعراء مراثي في رثاء أمراء دانية والجزائر الشرقية لرحيل هؤلاء الشعراء إلى الممالك والإمارات الأخرى، قبل موت هؤلاء الأمراء وبالتالي لم يكونوا على صلة بهم عند وفاتهم، وقد يعود عدم وجود قصائد في رثائهم إلى تأثر الشعراء بعلاقة العداء التي كانت تربط بين مجاهد العامري وأمراء الطوائف الآخرين، حيث لم يجرؤ هذا الشاعر أو ذاك على رثاء مجاهد في ظل هؤلاء الأمراء، وربما يعود عدم وجود قصائد في رثاء إقبال الدولة عند وفاته إلى سقوط دانية بيد المقتدر بن هود، وبطشه بإقبال الدولة وإخراجه من دانية، حيث لم يستطع شعراء إقبال الدولة رثاء ولي نعمتهم خوفاً من بطش المقتدر بن هود بهم

ثالثا: الغزل

أ- صورة المرأة

تحدث الشعراء في دانية والجزائر الشرقية عن المرأة، وخصّوها بنصيب وافر من الشعر، وكان هؤلاء الشعراء يميزون بين صورتين معروفتين للمرأة: صورة المرأة بأوصافها المادية والحسية، حيث يتناول الشاعر بعض محاسن المرأة الجسدية، ويركز الشاعر في هذا الجانب على ما يتصل بمتعته الجسدية الحسية، وما في المرأة من مفاتن وعناصر جمالية، حيث يصل في تصويره أحياناً إلى الفحش والبذاءة. والصورة الثانية صورة المرأة العفيفة الطاهرة، حيث يترفع الشاعر عند حديثه عن هذه المرأة عن مواطن الجمال الحسي المادي، ويرقى في نظرته لهذه المرأة إلى السمو والرفعة والنقاء والعفة الطهر، وهو يحب هذه المرأة لا لمحاسنها الجسدية الحسية، ولكنه يحبها لأجل الحب فقط، ولأنه يحس بالراحة والسعادة وهو قريب منها، حيث اصبحت في عروقه ودمه ووجدانه(١٠٠).

وكانت الصورة العفيفة النقية أكثر وضوحاً في معظم شعراء دانية والجزائر الشرقية، إذ عبّر هؤلاء الشعراء عن آلامهم وأحزانهم حين يشعرون بالحرمان وعدم الوصال، فيعيشون في العذاب وآلام الوجد والفراق، حيث تظهر صورة المحب العاشق والذليل وتظهر صورة المرأة التي لا ترحم ولا تصل حبيبها، الذي يرضى منها بالقليل ومن هنا «نشأ عندهم ما يسمى بالحب المعذب الذي تفنن الشعراء في وصفه، فرحين بالتذلل للحبيب والخضوع له، وقلما حدثنا الشاعر عن أفراح الغرام، فهو إذاً في ألم دائم»(١٠١) وقد تناول ابن حزم الظاهري في كتاب (طوق الحمامة)(١٠٢) الحديث عن الحب

---

(١٠٠) انظر حول صورة المرأة في الشعر الأندلسي: هنري بيريس: الشعر الأندلسي في عصر الطوائف، ص٣٤٧ (المرأة والحب)، وشوقي ضيف: عصر الدول والامارات (الأندلس)، ص٢٥٦. وجودت الركابي: في الأدب الأندلسي، ص١٢١، وفايز القيسي: تاريخ المرية الاسلامية.... ص١٣٣-١٨٧،

(١٠١) جودت الركابي: في الأدب الأندلسي، ص١٢١.

(١٠٢) انظر: طوق الحمامة، ص٢١.

وأصوله وعلاماته وصوره، وأعراض الحب المحمود والمذموم وآفات الحب، والعاذل والرقيب والواشي وغيرها. ولذلك نجد العديد من الشعراء يتناولون هذه المظاهر المختلفة.

فالمرأة عند ابن اللبانة أو الزوجة تظهر في شعره وفية مخلصة، تحزن لفراق زوجها وتبكي عليه، وعندما يشاهد الراكب دموع المرأة يحتارون فيها هل هي قطرات المطر أم حبات من اللؤلؤ اللامع، وهي لا تبكي وحدها ولا تحزن وحيدة، بل يشاركها مجموعة من النساء كالنجوم تلألؤاً، إنها امرأة أو زوجة كريمة النسب رفيعة الحسب، سيدة في بيتها وبين أهلها، يقول ابن اللبانة(١٠٣):

بكتْ عندَ توديعي فما علم الركب أذاكَ سقيطُ الطَّلِّ أمْ لؤلؤ رَطْبُ

وتابعها سربٌ وإني لمخطيء نجوم الديساجي لا يقالُ لها سِرْبُ

عقيلةُ بيت المجد لم ترها الدُّجى ولا لمحتها الشمس وهي لها تربُ

ونجد الشاعر وهو يصور المحبوبة التي يستهل بها قصائده بأنها وفية مخلصة، وهو قنوعٌ، يريد شيئاً قليلاً من الوفاء، ويرى ذلك علامة من علامات الحب الحقيقي، وحتى في غياب الحبيب فإن خياله كافٍ، دالٌ على وجوده، والدليلِ على ذلك أن البرق دليل أو علامة على السحاب والمطر، وضوء الصباح إشارة إلى مجيء النهار ويحاول الشاعر أن يقنع نفسه أن بعد الحبيب عنه يعوّضه منه الذكريات، فإذا ابتعد الإنسان عن الرياض وثمارها وأشجارها، فإن الريح تأتيك برائحتها الطيبة العطرة، يقول ابن اللبانة(١٠٤)

في الطيف لو سمح الكرى تعليل يكفي المحب من الوفاء قليلُ

وينوبُ عن شخص الحبيب خياله إنْ لمْ يكنه فإنه تمثيلُ

بَرْقُ السماءِ على الغمام علامةٌ وسنا الصباح على النهار دليلُ

والروض إن بعدت عليك قطوفه وفدتك عنه الريح وهو بليلُ

وتظهر عند ابن خلصة الشذوني المرأة عفيفة طاهرة وهو يقع في عشقها وهواها، حيث يحسّ بآثار هذا الحب الذي يجعل الرجل الحر السيد بين الرجال عبداً

---

(١٠٣) شعر ابن اللبّانة، ص١٧.

(١٠٤) المصدر نفسه، ص٨٣.

للمحبوبة، التي تظهر كالبدر جمالاً وإشراقاً، وهي في الوقت نفسه مخيفة تثير الرهبة بعيونها التي تنظر من خلالها، ولقد أوقدت ناراً في القلب يصعب خمودها، يقول ابن خلصة([١٠٥]):

أمدنَفُ نفسٍ ذو هوى أم جليدها غداةَ غدتْ في حلبةِ البين غيدُها

وقدْ كَنَفتْ منهن أكناف منـعجٍ عبـاديدَ سادات الرجالِ عبيدُها

تبادرن أستار القبابِ كما بدتْ بُـدورٌ ولكنَّ البـروجَ عـقودُها

تخذُّ بألحاظِ العيونِ خدودها وترهبُ أن تـنقدَّ ليـناً قدودُها

فيا لدماءِ الأسد تسفكُها الدُّما وللصيِّد من عُفْر الظباءِ تصيدُها

وفوق الحشايا كل مرهَفَةِ الحشا حَشَتْ كَبِـديَ ناراً بطيئاً خمودُها

ثم يتحدث الشاعر في هذه القصيدة عن الغدر الذي أصبح من شيم هذه المرأة التي أحبها، فهو يخلص لها في الحب ولكنها تقابله بالغدر وعدم الوفاء، رغم أن قلبي لا يحب إلا هي، كما يقول([١٠٦]):

تَحِلُّ لو أخبتْ وقلبي محلها وتخلبني غَدْراً وقلبي وحيدُها

ثم يصف ابن خلصة حالته نتيجة هذا الحب الذي لم يلق إلا الغدر ممن أحب، فجسمه ناحل، ودموعه متساقطة كحبات المطر، وهو حزين باك، وهو يفديها بكل ما يستطيع، بعينيه وقلبه، إن مظاهر هذا الحب أكبر شهادة على إخلاصه ووفائه وصدقه، فيقول([١٠٧]):

لقد زعموا أني سَلَوْتُ لقد بَدَتْ دلائلُ من شكواي عَدْلٌ شهودها

نُحولٌ كرقراقِ السحـابِ وعَبْرَةٌ كما انهملتْ غُرُّ السحابِ وسُودُها

تغيضُ ولوْتُ الفـراقِ تَمدُّها وتنقصُ والشجو الأليم يزيدُها

لتفدكَ أكبـادَ ظمَـاءٌ أجَفُّها هَـوَاكَ وأجفانٌ جَفَاها هُجودُها

ومهجةُ صَبٍّ لم تـزل صبْةٌ بها يَـدُ الوَجْدِ حتى عادَ عُدْماً وجودُها

(١٠٥) الحميدي: جذوة المقتبس، ص٥٤.

(١٠٦) المصدر نفسه، ص٥٤.

(١٠٧) المصدر نفسه، ص٥٤-٥٥.

ويرى الشاعر في نهاية قصيدته أن اتلاف جسمه في سبيل المحبوبة، هو خلود حقيقي لنفسه المتألمة الحزينة، إن الهوى وحده السبب الذي يقود إلى الهوان والذل، غير أنه مفخرة للمحب كما يرى ابن خلصة الذي يقول[١٠٨]:

ضنا جسدي إن كان يرضيكَ بـروُه   وإتلاف نفسي في هواك خلودُها

ولولا الهوى لم ترضَ نفسٌ نفيسة   هواناً ولكن حُـــبُّ نفس فؤودُها

ويؤكد ابن خلصة في قصيدة أخرى أن الهوى سبب ذل الانسان وهوانه فهو يولد الألم والحزن للمحب، وأمام هذا الأمر الواقع فان على المحب أن يكون مطيعاً ومنقاداً لحبيبته، يقول وهو يؤكد أن هذا التذلل ليس عيباً[١٠٩]:

أطِعْ أمْرَ مَنْ تهواه مَنْ عزَّ قد بزَّا   كفَى بالهوى ذلاً وبالحسنِ معتَزّا

ويرى أبو جعفر بن البنيُّ وهو يخاطب المحبوبة، أنها جميلة تزدادُ حسناً وبهاءً، ولكنّ الموت كلّه في هذه المرأة، إنها كحد السيف المصقول اللامع عن بعد، القاطع عن قرب، أو هي كالنور والضياء، الذي يرى في النار، ولكنّه يحرقُ كلَّ من يقترب منه، فيقول[١١٠]:

تروقُ حُسْناً وفيكَ الموتُ أجمعه   كالصَّقْلِ في السيْفِ أو كالنُّورِ في النَّارِ

ويتحدث ابن اللبانة عن المحبوبة وما أصابه من عذاب وألم، ففي مقدمات إحدى قصائده المدحية في ناصر الدولة، يستعطف الشاعر هذه المحبوبة، لتكون مشفقة عليه محبّة له، فقد أصبح كالفراش الذي حرقه الضوء، وفي ذلك إشارة إلى المعاناة الجسمية والنفسية التي يمرُّ بها، يقول[١١١]:

هَلاَّ ثناكَ عليَّ قَلْبٌ مُشْفِقُ   فترى فَرَاشاً في فِرَاشٍ يَحْرقُ

ثم يصف الشاعر حالته هذه، فقد أصبح كالرمق أو النَّفَس الأخير في الجسم، المقترب من الموت والنهاية، إنه حزين باكٍ على هذا الهجر، وهو يبحث الآن عن

---

(١٠٨) المصدر نفسه، ص٥٥.

(١٠٩) ابن سعيد: المغرب، ج٢، ص٣٩٤.

(١١٠) المصدر نفسه، ج٢، ص٣٦٠.

(١١١) شعر ابنْ اللبانة، ص٧٠.

وسيلة توصلهُ بالمحبوب، فيقول(١١٢):

قَدْ صِرْتُ كالرَّمقِ الذي لا يرتجى ورجعتُ كالنَّفَسِ الذي لا يَلْحَقُ
وغرقتُ في دمعي عليك وغمني طـرفي فهلْ سَـبَبٌ به أتَعَلَّقُ

يشير الشاعر إلى الخداع الذي تتصف به المرأة حين تحب، فهو يرضى بهذا الخداع إذ ينتظر منها أن تحييه، حتى لو كانت هذه التحية على سبيل النفاق والخداع فهي مقبولة منها، إنه يعرف مواعيدها الكاذبة التي لا تصدق أبداً، رغم كل ذلك فهي المحبوبة وهي مناه وأمله في هذه الحياة، يقول(١١٣):

هَلْ خِدْعَةٌ بتـحـيـة مخفـيـةٍ في جَنْبِ موعدك الذي لا يَصْدُقُ
أنت المنيةُ والمنى فيك استوى ظـلُّ الغـمامَةِ والهجير المحْرِقُ

ويستمر الشاعر في الحديث عن هذه المحبوبة، فيصف ما لقيه من ألم وفراق، وصدود وهجر، حيث يمزج هذه المعاني بمظاهر الطبيعة المختلفة من أشجار وطيور وورود وأزهار، إذ نجد الشعراء بشكل عام يمزجون بين مظاهر الطبيعة المختلفة حين يتحدثون عن صفات المحبوبة، كما نرى هنا عند ابن اللبانة الذي يقول(١١٤):

لك قَدُّ ذابـلة الوشـيـج ولونُها لكـنْ سنانك أكحلٌ لا أزْرَقُ
ويقالُ إنَّـك أيـكـةٌ حتـى إذا غنّيتِ قيل هو الحمام الأزرقُ
لَوْ في يدي سحري وعندي أُخْذَةٌ لجعلتُ قَلْبَك بعض حين يعشقُ

أما أبو جعفر بن البني فيستمد أركان صورته في وصف المحبوبة من الطبيعة التي فُتِنَ بها فأسنان الحبيبة تشبه نَوْر الأقحوان في لونها الأبيض وانتظامها، أما رضابُها فهو الشهد بعينه، يقول(١١٥):

بني العرب الصميم ألا رعيتم مآثـركم بآثار السَّماحِ
رفعتم ناركـمْ فَعـشا إليهـا بوهنٍ فـارسُ الحَيِّ الوَقَّاحِ

---

(١١٢) المصدر نفسه، ص٧٠.

(١١٣) المصدر نفسه، ص٧٠.

(١١٤) المصدر نفسه، ص٧٠.

(١١٥) المقري: نفح الطيب، ج٦، ص١٠.

فهلْ في القَعْبِ فَضْلٌ تنضحوه   بَه من محضِ ألْبَانِ اللقاحِ

لعلَّ الرِّسْلَ شابته الثنايا   بِشَهْدٍ من ندى نَوْرَ الأقاحِ

ويتحدث أبو جعفر البني أيضاً في أبيات أخرى عن المحبوبة، فهي حين تسير، تزداد هذه الطبيعة بترابها وأشجارها جمالاً وبهاءً، بل إن رائحة المسك تنبعث من هذه الطبيعة بمرور الحبيب فيها، فيحمل النسيم هذه الرائحة الزكية معه، حيث ذهب يقول الشاعر(١١٦):

أقولُ وقد شممتُ التُّربَ مسكاً   بنفختها يميناً أو شمالاً

نسيمٌ جاءَ يبعثُ فيك طيباً   ويشكو من محبتكَ اعتلالا

ويرى الشاعر نفسه أن محبوبته بوجهها المشرق هي مصدر الضوء والنور في هذه الطبيعة، فهي التي منحت الشمس الضوء والإشراق، وهي التي حلّت محل الثريا جمالاً وتلألؤاً، إنها كريمة على الشمس بخيلة على الشاعر بصدّها وهجرانها: يقول(١١٧):

غَصبْتِ الثُّريا في البِعَادِ مكانها   وأوْدَعْتِ في عينيٌ صَادقَ نَوْئها

وفي كُلِّ حالٍ لم تَزالي بخيلةً   فكيفَ أعرتِ الشمسِ حَلّةَ ضَوْئها

ويتحدث الشاعر نفسه أيضاً عن المحبوبة في أبيات أخرى، فهي فاتنة جميلة وهي بقوامها تشبه الخيزران، أما هو فمفتون بجمال عيونها، ويعاني من الوحدة والشوق، على الرغم من أن عيني المحبوبة قد فتنته بجمالها إلا أنه لا يخشى ولا يخاف من ذلك رغم سيطرتها عليه بجمالها هذا، فيقول(١١٨):

هَلْ أمانٌ من لَحْظِكَ الفتان   وقوامٌ يميسُ كالخيزرانِ

مهجتي منك في جحيم ولكنْ   جفوني قد مُتِّعَتْ في جِنَانِ

فَتَنَتي لو احظُ ساحراتٌ   لستُ أخشى من فتنةِ السُّلطانِ

نجد ابن اللبانة يتناول المرأة في قصيدة يمدح بها ناصر الدولة يجعل صدر كل

---

(١١٦) ابن سعيد: المغرب، ج٢، ص٣٥٩.

(١١٧) المقري: نفخ الطيب، ج٥، ص٣٥.

(١١٨) ابن سعيد: المغرب، ج٢، ص٤٦٨.

بيت فيها غزلاً بالمحبوبة وعجزه مدحاً لناصر الدولة، حيث يوظف ما يورده في صدر البيت ليخدم ما يأتي به من معانٍ وصفات للممدوح، وهذه القصيدة مطلعها([119]):

وضحت وقد فضحت ضَياءَ النيِّر   فكـأنما التحفت ببشر مُبشِّرِ

ويحاول الشاعر أن يوظف صفات المحبوبة الجسدية ليرى من خلالها صفات الممدوح، فالشاعر يذنب مع محبوبته، وحين يطلب المغفرة والعفو منها تمنحه العفو، فهي بذلك تستمد هذا العفو من ناصر الدولة ممدوح الشاعر، يقول([120]):

أذنبتُ واستغفرتها فجرتْ على   عــاداته في المذنبِ المستغفرِ

وحين يصور الشاعر صفات الممدوح في حالة الحرب والقتال، يستمد هذه الصفات من المحبوبة، حين تقسو على الشاعر، فحواجبها جميله، غير أن شعر الحواجب سهام المدوح، وحين تنظر بعينيها اللامعتين يتذكر الشاعر السيف الصقيل الذي يحمله الممدوح في المعركة، فيقول ابن اللبانة([121]):

غمزتْ ببعض قسيِّهِ من حاجب   ورنتْ ببعض سهامه من مَحْجرِ

أومَتْ بمصقولِ اللحاظ فخِلْتُه   يومي بمصقول الصفيحة مُشْهَرِ

وهي حين تجلس على الأريكة تذكره جلستها هذه بامتطاء الممدوح صهوة جواده يحارب الأعداء، ثم هي ليست كأي امرأة أخرى، إنها من بنات الملوك بعزها ومجدها، يقول الشاعر([122]):

وضعت حشاياها فُوَيْقَ أرائكٍ   وَضْعَ السُّروجِ على الجياد الضُّمَّرِ

من رأمةٍ أو رومةـــ لا عِلْمَ لي   أأتت عن النعمان أم عن قيصرِ

بنتُ الملوكِ فقل لكسرى فارسٍ   تعـــزى وإلا قل لتبَّع حِمْـــيرِ

ونجد الشعراء في حديثهم عن المرأة يربطون بين صفاتها وأدوات المعركة والقتال، كالسهام والرماح والسيوف، وهي صفات تقليدية ومعانٍ مشرقية، سار

---

(١١٩) شعر ابن اللبانة، ص٥٢.

(١٢٠) المصدر نفسه، ص٥٣.

(١٢١) المصدر نفسه، ص٥٤.

(١٢٢) المصدر نفسه، ص٥٤.

عليها الشعراء في الأندلس عامة، وشعراء دانية والجزائر الشرقية خاصة، فابن اللبانة يتحدث عن جفون محبوبته، التي كانت السهام في سرعة وصولها إلى قلبه، فيقول[١٢٣]:

يا مَنْ رشقتُ إلى السلو فردّني   سَبَقَتْ جفونُكَ كُلَّ سَهْمٍ يُرْشَقُ

ويصف ابن اللبانة أيضاً قَدَّ الحبيب بالرمح وعينه بالسّنان، حيث يقول[١٢٤]

لك قدٌّ ذابلة الوشيج ولونُها   لكنْ سِنانُكَ أكْحَلٌ لا أزرق

أما أبو جعفر ابن البني فيرى أن النظرات التي يتبادلها الحبيب مع حبيبته أشبه بتناول طعنات الرماح بين الفرسان في أرض المعركة، حيث يقول[١٢٥]:

نظرتُ إليهِ فاتقاني بمقلةٍ   تَرُدُّ إلى نحري صدور رماحي

ويشير الشاعر نفسه إلى أن جمال عيون المحبوبة وسحرها أشبه بضربات السيوف في أعناق الأعداء، حيث يقول[١٢٦]:

سَلَّتْ محاسنه لقتلِ محبِّه   من سِحْرِ عينيه حسام سميِّه

ثم يصوِّر الشاعر نفسه في بيتين آخرين حاجب محبوبته بالقوس، حين تخرج منه السهام، فكما تخرج السهام من القوس في أرض المعركة، تخرج نظرات المحبوبة من العيون خروج السهم من القوس. فيقول[١٢٧]

قالوا تصيبُ طيورُ الجوِّ أسهمُهُ   إذا رَمَاها فقلنا عندنا الخَبَرُ

تعلمتْ قوسها من قَوْسِ حاجبه   وأيَّدَ السهمَ من ألحاظِه الحَوَرُ

ونجد الشعراء في دانية والجزائر الشرقية يتجاوزون في حديثهم عن المرأة الأندلسية إلى الحديث عن النساء الروميات في شعرهم، واظهار صورتهن في هذا الشعر، ويبدو أن هؤلاء النساء كنّ جواري أو ساقيات أو خادمات في قصور الأمراء

---

(١٢٣) شعر ابن اللبانة، ص٧٠.

(١٢٤) المصدر نفسه، ص٧٠.

(١٢٥) المقرى: نفخ الطيب، ج٦، ص١٠.

(١٢٦) المصدر نفسه، ج٦، ص٨.

(١٢٧) المصدر نفسه، ج٦، ص١٠.

أو في مجالس اللهو والغناء، حيث نجد صورة لهؤلاء النساء في شعر إدريس ابن اليمان، فهنّ يشبهن الأغصان اهتزازاً وحركة، وشَعْرهنّ الكثيف يشبه الماء الكثيف في الخلجان، وهنّ جميلات الوجوه، وحين يضحكن تبرز أسنانهن اللائي يشبهن اللآليء أو حبّات البرد، يقول إدريس بن اليمان، وهو يلبي دعوة مَنْ يدعوه إلى مجالس اللهو هذه(١٢٨):

لبيكَ لبيكَ داعي اللهو من كَثَبِ ... إلى معاطفةَ الأغْصَانِ في الكثبِ

إلى السوالفِ كالسوسان في صُعُدٍ ... إلى الغدائر كالخلجان في صَبَبِ

إلى خدودِ بناتِ الروم قد برزتْ ... من حجبها وأدارت أعين العربِ

من كلِّ سافرة عن مشرب خجلاً ... فيه طرازان من ماءٍ ومن لهبِ

واستضحكتْ عن لآلٍ أو حصى بَردٍ ... يكادُ يقطرُ من مائيةِ الشَّنبِ

وتظهر صورة المرأة الأم في شعر دانية والجزائر الشرقية، حيث تبدو الصورة المثالية للأم، التي لا يمكن للشعر أن يوفيها حقها من التكريم والتقدير، كما نرى عند إدريس بن اليمان الذي رثى أمه عند وفاتها، فرسم لها صورة صادقة بشعره، إذ يعجز اللسان بالشعر والنثر أن يوفيها حقها من الاحترام والتمجيد، فكيف يمكن لهذا الكلام أن يفي الأم حقها هذا، وهو كلام يسلك مسلك الطعام والشراب، وكيف للشاعر أن يصوغ من الشهب قلائد شعرية يرثيها بها، يقول(١٢٩)

وأمتني إلى الأجداثِ أمٌّ ... يعزُّ عليَّ أنْ صارتْ أمامي

وأكبِر أنِ يُرثيها لساني ... بلفظ سالك طُرُق الطَّعامِ

ومَنْ لي أن أصوغ الشهبَ شعراً ... فألبِسَ قبرها سِمْطَيْ نظامِ

ويشير الشاعر إلى مدى حاجته إلى أمه، رغم كهولته وكبر سنّه، فهو ما زال يشعر بأنه طفل صغير لم يبلغ سن الفطام بعد، إنه بحاجة إلى حنانها وعطفها ثم هو يعلن استسلامه للقضاء والقدر فلا يطلب له الآن إلا إرسال سلامه إليها في قبرها، ويؤكد في النهاية أنه لا يمكن أن يلتقي بها بعد هذه اللحظة إلا يوم البعث والحساب،

---

(١٢٨) ابن بسام: الذخيرة، ق٣ م١، ص٣٥٣-٣٥٤.

(١٢٩) ابن بسام: الذخيرة، ق٣، م١، ص٣٥١.

فيقول(١٣٠):

مضتْ وقد اكتهلتُ فخلتُ أني   رضيعٌ ما بَلغتُ مدى الفطامِ

فياركب المنون أمَا رســـولٌ   يبـلّغُ روحــها أرَجَ السلامِ

سألتُ متى اللقــاءُ فقيل حتى   يقومَ الهامــدون مِن الرِّجامِ

وظهرت في الشعر صورة المرأة الزوجة، فوصف الشعراء العلاقة الحميمة التي تربط الزوج بزوجته، ونحن أمام تجربة لشاعر دانيٍّ شاءت الظروف أن ينفصل عن زوجته لأسباب خارجة عن إرادته، وهذا الشاعر هو ابن هندو الداني، الذي أحسَّ بألم الفراق والبعد، ويتذكر ما كان من ذكريات جميلة بينه وبين زوجته، فهي قد فارقته وابتعدت عنه، لهذا فهو يعيش في أسى وهوان، وعذاب، أما هي فغير رحيمة به، هو يحاول أن تبقى أواصر المحبة دائمة ولو من بعيد، غير أنها تصر على قطعها، يقول(١٣١):

أبديتُ سرّي مذ كتمت سُراكِ   وعصيتُ صبري مذ أطعت هواكِ

ونثرتُ أسلاك الدموع معرضاً   أني بحـــيث سلــكت لا أسلاكِ

أرخيمة الألفاظِ غير رحيــمةٍ   الـــدلُّ دلُّكِ أم نهـــاك نُــهاكِ

ثم يتحدث الشاعر عن والد زوجته التي طلقها، فهو فارس شجاع، ولكنه لا يخافه ولا يرهبه، أما الذي يخافه ويرهبه فهو هذه الزوجة التي تملكته بحبها، فهو ضعيف أمامها فيتذلل لها وهو سعيد بهذا الذل، لأنه لا يعد ضعفاً أو نقصاً في رجولته فيقول(١٣٢):

يا بنتَ معتنق الفوارس بالقنا   والبيض ما أنا مَنْ يهابُ أباكِ

لا قِـرْنَ أرهبَه سـواك وإن غدا   شاكي السلاح فإنْ قلبـي شاكِ

ثم يتحدث عن زوجته المطلقة فهو يحبها لذاتها، يحبها متجملة متزينة، ويحبّها خالية من أدوات الزينة فجمالها الحقيق النقي يكفيه، يقول(١٣٣):

---

(١٣٠) المصدر نفسه، ق٢، م١، ص٣٥١.

(١٣١) المصدر نفسه، ق٣ م٢، ص٨٩٧.

(١٣٢) المصدر نفسه ق٣، م٢، ص٨٩٧.

(١٣٣) المصدر نفسه ق٣، م٢، ص٨٩٧.

أهواك حالية وعاطلة وإنْ تذرَي الحليَّ كفاك بعضُ حلاك

ثم هي زوجة يسرُّها ويسعدها الألم الذي يعانيه من حبّه لها، وهي لذلك تشبه الروض الذي يفرح ويسعد برؤية السحابُ الذي ينهمر منه المطر، وهو يطالب الزوجة أن ترفق به وبحبه، فيكفيه أنه أسكنها في سويداء القلب، يقول(١٣٤)

ويسرُّها ما ساءني من حبّها كالروضِ يضحكهُ السحابُ الباكي

رفقاً بقلب أنت في سودائه فهُنَاك أسكنك الهوى فَهَنَاك

ثم يشير الشاعر إلى أنه كان صاحب عزيمة وقوة وصبر، وقد رضي لها الطلاق، رغم أنه لا يطيق الفراق ولا يحتمله، لكنه كريم لا يرضى أن يكون لئيماً سيئاً مع مَنْ أحب، يقول(١٣٥)

وعزيمة أمضيتها لا أُخْلِها من عزم أخّاذ لها ترّاك

فعلَ الكرام وإنني لزعيمهم فاخترتُ تسريحاً على إمساكِ

وقد استطاع الشعراء تصوير هذه العلاقات تصويراً دقيقاً نابعاً من تجربة انسانية خاصة(١٣٦).

ب- الغزل بالمذكر

لقد انتشرت ظاهرة الغزل بالمذكر في كثير من جوانب المجتمع الأندلسي، وقد أسرف الشعراء في تصويرها، حتى هؤلاء الشعراء الذين ارتبطت اسماؤهم بسمات من الوقار والاحتشام، قد تورطوا في نظم شعر الغزل بالغلمان، بحيث يخيل لدارسي الحياة الاجتماعية في الأندلس، أن هذه العادة قد أصبحت جزءاً من كيان المجتمع الأندلسي(١٣٧).

---

(١٣٤) المصدر نفسه ق٣ م٢، ص٨٩٨.

(١٣٥) المصدر نفسه، ق٣ م٢، ص٨٩٨.

(١٣٦) انظر: سلمى سليمان علي : المرأة في الشعر الأندلسي، عصر الطوائف، الجامعة المستنصرية، بغداد، رسالة ماجستير، ١٩٨٦، ص٨١.

(١٣٧) انظر: مصطفى الشكعة، الأدب الأندلسي، موضوعاته وفنونه، دار العلم للملايين، بيروت، ط٢، ص٥٤.

لقد تفشت هذه الظاهرة في بعض انحاء الأندلس، فظهرت في شعر دانية والجزائر الشرقية، ونجدها في شعر إدريس بن اليمان، الذي يقول وقد شاهد غلاماً وسيماً بالحمام عليه أسمال[١٣٨]

توشحٌ بالظلماء وهو صباحُ ... فأمرضت الألبابُ وهي صحاحُ

وظلّ فؤادي طائراً عن جوانحي ... وليس له إلا الغرامَ جناحُ

قضيبُ صباح في وشاح دُجُنّةٍ ... ألا ليتني تحت الوشاحِ وشاحُ

ولا عجبٌ أن أفسدتني جفونُهُ ... فكل فسادٍ في هواه صلاحُ

فالشاعر يتحدث عن جمال هذا الغلام، فهو غلام جميل كالصباح في هذه الأسمال، وكان قد أصاب القلوب بالمرض بعد أن كانت صحيحة الجسم معافاة، والقلب طار من مكانه، وجريمته هي الغرام والحب، ويتمنى الشاعر أن يكون وشاحاً تحت الوشاح الذي يلتف به هذا الغلام الجميل، فأجفان هذا الغلام ساحرة، ولا عجب إن أفسدته هذه الجفون بجمالها، فما يحصل من فساد في هذا الموضع هو صلاح، كما يرى الشاعر.

ثم يتحدث الشاعر نفسه في مقطوعة أخرى عن غلام آخر تعلق به وأولع بجماله فقد كان جميلاً يشبه ولد الظبية الجميل، وليس من عادته أن يعشق الصغار، فعيونه صغيرة جميلة، ووجهه جميل مشرق يعيد الليل نهاراً مشرقاً، ويصف حياءه وخجله، فيقول[١٣٩]:

عُلّقْتُـهُ شادناً صغيراً ... وكنت لا أعشَقُ الصغارا

أعارني سُقْم ناظريه ... فاستشعرتْ نفسُهُ حذارا

يُسْفِرُ عن وجه مستنير ... يَردُّ جُنْح الدُّجى نهارا

لم أر من قبل ذاك ماءً ... أضْرَمَ فيه الحياءُ نارا

وكان أبو جعفر بن البني من الشعراء الذين عرفوا بهذا اللون من الغزل في جزيرة ميورقة، إذ يقول عنه ابن خاقان أنه «كان أليف غلمان، وحليف كفر لا

---

(١٣٨) ابن بسام: الذخيرة، ق٣ م١، ص٣٢٨.

(١٣٩) المصدر السابق، ق٣ م١، ص٣٢٨.

إيمان»(١٣٩) يصف هذا الشاعر غلاماً فتنه بجماله وحسن منظره واشراق وجهه، وكان حين يظهر يزول ظلام الليل، ويتحدث عن جمال وجهه وخدوده وحبات العرق، التي تتساقط حياءً كحبات المطر، حين ينظر، فلواحظه ونظراتها سيوف تقتل من ينظر إليها فيقول(١٤٠):

من لي بِغرَّة فاتنٍ يختال في ... حلل الجمال إذا بدا وحلْيه

لو شَبَّ في وضح النهار شعَاعها ... ما عادَ جنح الليلِ بعد مضيِّه

شرقت لآلي الحَسن حَتى خلصت ... ذهبيّه في الخد منَ فضيِّه

في صفحتيه من الجمال أزاهر ... غُذِّيَتْ بَوسَمْيّ الحيا ووليِّه

سَلَّتْ محاسنُه لقتل محبِّه ... من سحر عينيه حُسام سميِّه

وفي مقطوعة أخرى يتساءل أبو جعفر بن البني كيف لا يُبْهَرُ بجمال هذا الغلام، وكيف لا يزداد شوقاً وهوى، وهو يرى هذا الغلام الذي سماه عليّاً، والناس جميعاً يبهرون بجماله، فهو. كالغصن دقة واهتزازاً، وهو كالبدر جمالاً وحسناً، ومن يرغب أن يسليني عنه، فهو يطلب المستحيل، ويصمم الشاعر على عدم نسيان هواه سواء أكان هذا الهوى رشداً وهداية أم ضلالاً، يقول(١٤١):

كيف لا يَزدادُ قَلْبي ... من جَوَى الشَوق خَبَالا

وإذا قلت: عليٌّ ... بَهَرَ الناسَ جمالا

هو كالغُصْن وكالبد ... ر قواماً واعتدالا

أشرق البدر كمالاً ... وأنثنى الغصنُ اختيالا

إنَّ مَنْ رامَ سُلُوِّي ... عنه قد رَامَ محالا

لستُ أسلو عن هواه ... كان رشداً أو ضالا

قُلْ لمن قصر فيه ... عَذْل نفسي أو أطالا

دون أن تدرك هذا ... تَسْلُب الأفق الهلالا

---

(١٤٠) المقرى: نفخ الطيب، ج٦، ص٧.

(١٤١) ابن خاقان: مطمح الأنفس، ص٢٧٠، ابن سعيد: المغرب، ج٢، ص٣٥٨.

(١٤٢) ابن سعيد: المغرب، ج٢، ص٣٥٨، وانظر: المقري، نفخ الطيب، ج٦، ص٨.

ويتحدث ابن اللبانة عن غلام آخر يشبهه بالظبي الصغير، الذي حل بسواد العين لجماله وبسواد القلب لحسنه، فهو مقصد الناس جميعاً، يطوفون حوله هوى وعشقاً ويصف الشاعر حالته بعد أن وقع في هذا الهوى فما عاد يعرف للنوم طعماً، يقول(١٤٣):

يا شادناً حلَّ بالسواد   من لحظ عيني ومِنْ فؤادي
وكعبة للجمال طافت   من حولها أنفس العبادِ
مَازدتني في الوصال حظاً   إلا غدا الشوقُ في ازديادِ
أعشى سنا ناظريك طرفي   فليسَ يلتذ بالرقادِ

ويتحدث ابن اللبانة عن غلام آخر ظهر العذار في وجهه، وقد بدا العذار غريبا فجمال هذا العذار، قد وقتل العشّاق ظلماً وبذلك أصبح الشعر تعبيراً عن ذنوب الغلام وظلمه. فيقول(١٤٤):

بدا على خَدِّه عذارٌ   في مثله يُعْذَرُ الكئيبُ
وليس ذاك العذار شعراً   لكنّما سِرُّهُ غريبُ
لما أراق الدماءَ ظلماً   بَدَتْ على خَدِّه الذنوبُ

(١٤٣) شعر ابن اللبانة، ص٣٤-٣٥.

(١٤٤) شعر ابن اللبانة، ص١٦.

ظهرت الطبيعة الأندلسية بمظاهرها المختلفة بصوره جلية واضحة في الشعر الأندلسي بشكل عام، وتحدث هؤلاء الشعراء عن جمال الطبيعة التي فتنوا بها في مختلف مدن الأندلس(١٤٥).

أما في دانية والجزائر الشرقية فقد ظهرت الطبيعة جلية في شعر هؤلاء الشعراء، فتغنوا بمظاهر الطبيعة في هذه المدنية وخاصة، الجزائر الشرقية حيث وصفوا مدينة دانية واعتبروها جنة الدنيا، ووصفوا كذلك جزيرة ميورقة التي أصبحت عاصمة إمارة ناصر الدولة، وتغنوا بمظاهر الطبيعة الأخرى، من حدائق وأزهار ونباتات، ومطر ورياح وغيوم، وليل ونهار وفجر ونجوم وقمر وكواكب، وحيوانات وغيرها.

والمتأمل في شعر وصف الطبيعة في دانية والجزائر الشرقية يجده ينقسم إلى قسمين:

- الشعر الذي وصف مظاهر الطبيعة الصائتة (الحيّة) كالخيل والحمام.
- الشعر الذي وصف مظاهر الطبيعة الصامتة، كوصف الربيع، والرياض والأزهار، والورود، والليل والنهار والفجر القمر والنجوم والكواكب والثريا وغيرها من المظاهر الأخرى.

نجد الشعراء أيضاً يصنفون صورة الطبيعة إلى صنفين- الصورة الطبيعية والصورة الحضارية، من عمران ومدن، وما كان للإنسان من دور في صنعه وإيجاده ولكن الشعر الذي صوّر المظاهر الحضارية كان مقتصراً على الحديث عن دانية وميورقة، ولا نجد شعراً يصف القصور والمتنزهات والبرك والمساجد، ويبدو أن هناك شعراً في وصف هذه المظاهر لكنه لم يصل إلينا.

---

(١٤٥) لقد ساعد على اهتمام الأندلسيين بوصف الطبيعة مجموعة عوامل، حول ذلك انظر:سيد نوفل: شعر الطبيعة في الأدب العربي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٨، ص٢٤٦، وجودت الركابي: في الأدب الأندلس، دار المعارف بمصر، ط٢، ص١٣٠-١٣٥، وهنري بيريس: الشعر الأندلسي في عصر الطوائف، ترجمة الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، مصر، ط١، ١٩٨٨، ص١٠٦، وفايز القيسي: أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري، ص٢٦٥-٢٤٦.

أ- وصف مظاهر الطبيعة الصامتة

لقد كان الاهتمام بوصف الحمام مظهراً هاماً من مظاهر الطبيعة الصائته، التي تحدث عنها الشعراء في الأندلس عامة، وشعراء دانية والجزائر الشرقية خاصة، فقد «حركتهم أشجانه، ضربوا المثل بوفائه، وحبه لأولاده يذكرونه صادحاً على الأفنان في شجو وحنين»(١٤٦).

فقد وصف ادريس بن اليمان الطوق المحيط برقبة الحمامة الجميل، الذي يشبه السندس حيث يعجز الحائك أن يصنع شيئاً يشبهه، في تناسق ألوانه وجماله، كما يقول(١٤٧):

ورقاً مطوقةُ السوالف سندساً   لمْ يحكِ صَنْعَتَها حياكة حاكِ

ثم يتحدث الشاعر عن صوتها الجميل، وهي تشدو على الأغصان، بألسن تردد أصواتاً جميلة. أما أرجلها الحمراء الداكنة، فقد ظهرت وكأنها تلبس نعلاً من المَرْجَان الجميل، وتظهر عيونها المكحلة باللون الأحمر، ويجعل الشاعر كحل هذه العيون من نار جوانحه فيظهر لهيب عيونها، والشاعر هنا يعكس الحالة النفسية القلقة التي كان يمرّ بها، فهو حزين، متألم، النار تكوي جوانحه، رغم أن الحمام عند الشعراء يعتبر مبعث الفرح والبهجة والأمل والتفاؤل في الحياة، وهو من جانب آخر يمثل الحنين إلى الأوطان والشوق إلى الآخرين، يقول إدريس بن اليمان:

تشدو على خُضْر الغصون بألسنٍ   صُبِغَتْ ملاثمها بلا مِسْوَاك

وكأن أرجلها القواني ألبِسَتْ   نعلاً من المرجان دون شراكِ

وكأنها كحلت بنار جوانحي   فترى لأعينها لهيب حَشاكِ

أما ابن حمديس فيتحدث عن صوت الحمام الجميل، وخاصة حرف الراء الذي تردده في نغمة جميلة متكررة، إنه يشبه صوت الماء المنساب في الجداول، وهي تستمر في تغريدها فوق الأغصان، فترى عنقها المطوق بهذا اللون الجميل الذي يشبه

---

(١٤٦) د. سعد اسماعيل شلبي: البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر، عصر ملوك الطوائف، دار نهضة مصر، القاهرة، (د.ت). ص١٥٤.

(١٤٧) ابن بسام: الذخيرة، ق٢ م١، ص٣٤٥.

عُقْداً من الجمان، المصنوع صناعة محكمة جميلة منقمة، وإذا ما زال الكحل الأسود من جفونها رأيت عيناً جميلة تشبه عين الغزال المكحل، يقول الشاعر(١٤٨):

ناطـــقـــة بالـــراء سجـــعـــاً مُـــرَدِّداً كحُسْن خرير من تكـسر جَدْوَلِ

مغردة في القُضْبِ تحَسَبُ جيدَهـا مُـــقَلَّدَ طَـــوْق بالجمانِ المُفصَّلِ

إذا ما امَّحَى كحل الدُّجى من جفونها دعتْكَ إلى كأسِ الغـــزالِ المكحَّلِ

ونجد من خلال الأبيات السابقة أن الشاعر صور هذه الحمامة على أنها طائر مرحٌ مغردٌ، بعث الفرح والبهجة في النفس، ويدعو إلى التفاؤل والأمل، في هذه الحياة، فهي مخلوق يسرِّي عن النفس حزنها وأساها وألمها. فارتباط صوت الحمامة وتغريدها بخرير الماء الذي هو رمز للحيوية والأمل، واستمرارية الحياة وديمومتها، أكبر دليل على الأثر النفسي الذي تركته هذه الصورة في وجدان الشاعر، وهي صورة بشكل عام تدلل على العلاقة الإرتباطية بين الانسان والحياة.

ووصف الشعراء الخيل في شعرهم، فهي ليست أداة تنقل وحركة فقط، بل هي أداة حرب وقتال، ولها ارتباط وثيق بالعرب وفروسيتهم وجهادهم، وما يتصل بذلك من صفات المنعة والعزة والفخر، لذلك نجد أن هذا الحيوان قد حظي باهتمام الشعراء المشارقة والمغاربة، فقد افتخروا بقوته وسرعتهِ وأصالته، لان لهذه الصفات معاني كثيرة في نظر الشاعر العربي كالبطولة والشجاعة والمجد ولهذا «كانوا يتعرضون لها، ويقفون عندها بإطالة ملحوظة في قصائد المدح خاصة للعلاقة القائمة بينها وبين الممدوح، وللقيم والمثل التي يوحيها ذكرها، ويومي إليها وجودها، مما يتصل بالشرف، والعزة والفخر والعلى، وبذلك تأخذ الخيول بعداً آخر في شعرهم إلى جانب كونها أداة تنقل وحركة»(١٤٩).

ولذلك نجد أن وصف الخيل يأتي في معظم الأحيان في قصائد المدح في حضرة الممدوح، وقد اتخذ هذا الوصف اتجاهين بارزين:

---

(١٤٨) ديوان ابن حمديس، ص٣٦١.

(١٤٩) د. محمد مجيد السعيد: الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالاندلس، الجمهورية العراقية، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، دار الرشيد للنشر، ١٩٨٠، ص١٤٥.

« أولهما يتمثل في الربط بين الصفات المادية للممدوح، وفي مقدمتها وأهمها الكرم وما يتعلق به من أمور أخرى، يمكن أن تعد مساعدة وتابعة له، مثل جمال المظهر وتناسق الأعضاء، استقامة الخَلْق، وصفات الجواد الظاهرية المتمثلة في اللون والشكل والمظهر بشكل عام.

وأما ثانيهما، فيتمثل في الربط بين صفات الجواد وصفات الممدوح، واعطاء صورة اعتماد الأول على الثاني، واستمداده الشمائل المعنوية منه، ومن أبرز هذه الصفات: الشجاعة والشهامة وسرعة النجدة وكرم الأصل والفضائل العالية السامية »(١٥٠).

ونلحظ هذين الاتجاهين بوضوح في قصيدة ابن حمديس التي مدح بها ناصر الدولة أمير ميورقة وقد أهدي خيلاً، ومطلعها(١٥١):

جاءَتك أولاد الوجيه ولاحق   فأرتك في الخلق ابتداع الخالق

فهو يبدأ القصيدة -التي جاءت في معظمها لوصف هذه الخيول- ببيان قدرة الخالق سبحانه وتعالى الذي أبدع خلقها، وقد أطال الشاعر في وصف هذه الخيول حتى استغرق هذا الوصف معظم أبيات القصيدة، لكنْ كان الشاعر ماهراً في توظيف هذه القصيدةْ لخدمة الغرض الرئيس من هذه القصيدة، وهو المدح، وقد ظهر في هذه القصيدة الاتجاهان السابقان اللذان أشرنا إليهما.

فهذه الخيول عظمية في صفاتها الخلقية، فهي سريعة الحركة والانتقال، لا تعرف الكلل أو التعب، حين تقطع المفازات، وهي كالظباء سرعة وحركة، عالية أجسامها، فيقول ابن حمديس(١٥٢):

نينان أمواهٍ وفُتْخُ سباسب   وظباءُ أجامٍ وعُصْمٌ شواهق

ثم يتحدث الشاعر عن أرجل هذه الخيول التي تتحرك بخفة وسرعة كأنها تشبه

---

(١٥٠) وصف الحيوان في الشعر الأندلسي -عصر الطوائف والمرابطين، دار الشؤن الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٧، ص. ٤٠-٤١.

(١٥١) ديوان ابن حمديس، ص. ٢٣.

(١٥٢) المصدر نفسه، ص. ٢٣.

الأقلام حين يكتب بها الكاتب بسرعة ونشاط[153]:

بمؤللات تستـدير كأنها أقلامُ مبتدعِ الكتابة ماشقِ

ثم هي خيولٌ غرٌّ محجلة تكامل خلقها، ولا يوجد في صفات وجوهها ما يشوب هذا الجمال، وهذه الصورة البهية الجميلة هي في الحقيقة صورة وجه الممدوح، الذي يفيض بشراً وبهجة، كهذه الخيول المحجلة التي تحييّ هذا الأمير، أما اللون الأبيض الذي يظهر في هذه الصورة اللونية، فيعكس صفة النقاء التي تميز بها ناصر الدولة في علاقاته مع الآخرين، ووجهه المبتسم الطلق في تعامله معهم، فكأنه يستمد هذه الإشراقة وطلاقة الوجه من الفجر والإصباح، فهناك علاقة بين الفجر والاصباح والخيل الغر المحجلة وهذا الممدوح، يقول ابن حمديس[154]:

غرٌّ محجّلة تكامل خلقها بمجانسٍ مِنْ حُسْنِـها ومطابق

وكأنما حيّت علاك وجوهها فأسَالَ فيها الصبحِ بيضُ طرائقِ

ثم يتوقف الشاعر عند أصل هذه الخيول ونسبها، فهي خيول عربية أصيلة، وكل ما تمتاز به من حركة وسرعة عدو وشكل جميل يؤكد أصالتها العربية، وهي محاولة من الشاعر أن يمدح الأمير بأصله العربي، فيوظف الحديث عن هذه الصفة في الخيول لتكون صفة ممدوحه، يقول[155]:

كَرُتْ ذخائر عُربـها في عتقها وشأت بفضلة عَدْوِها المتلاحقِ

وإذا الجلالَ تجردتْ عن جردهـا لبسـت غـلالة كلِّ لوْنٍ رائقِ

من كُلِّ طِرْفٍ يستطير كطرفِهِ جَرْيَاً فوثبته غِلابُ السـابقِ

ويتوقف الشاعر عند بعض الصفات الجسدية الأخرى لهذه الخيول، كلونها الأحمر الجميل، ويستمد الشاعر هذه الصورة اللونية الرائعة، من الطبيعة الأندلسية وخاصة جزيرة ميورقة، موطن ناصر الدولة، التي تميزت بجمالها ومناظرها الطبيعية الخلابة، وألوان ورودها وأزهارها البهية، فهذه الخيول بحمرتها تشبه

---

(١٥٣) المصدر نفسه، ص٣٢٠.

(١٥٤) المصدر نفسه، ص٣٢٠.

(١٥٥) المصدر نفسه، ص٣٢٠.

الورود الشديدة الحمرة، التي تهدي وتقدم لمحبيها في فصل الربيع، فإذا كان الإنسان العادي يشعر بالراحة والسعادة حين تقدم له الورود، فناصر الدولة أكثر سعادة وسروراً، حين تهدي له هذه الخيول وهو الفارس الشجاع، فيقول(١٥٦):

وَرْدٌ تَمَيَّعَ فيه عَـنْدَمُ حُمْـرَةٍ   كالوَرْدِ أُهْدِيَ في الربيع لِنَاشقِ

ويعود الشاعر مرة أخرى ليصف مقدمة هذه الخيول ووجوهها وغررها، فهي حمراء اللون بيضاء الغرر، تشبه الشفق الذي يتكون من لونين ممزوجين: الأبيض والأحمر، أما أفواه هذه الخيول التي بدت محاطة بدائرة بيضاء، فقد استعارت هذا اللون، والشكل الجميل من الصبح، الذي تجسد في صورة انسان يقبلها، ويتجلى هنا فن اللقطة الشعرية عند هذا الشاعر، وهو يصور هذا الجزء الدقيق من وجوه هذه الخيول، الذي بدا ابيض اللون لمن يراه، حيث يقول(١٥٧):

وكأنه وكـأنَّ غُرَّةَ وجـهه   شفقٌ تألّق فيه مَطْلعُ شارقِ

وَكأنَّ صبحاً خصَّ فاه بقبلةٍ   فابْيَضَّ مَوْضِعُها لِعَيْن الرامقِ

ويحاول الشاعر أن يربط في وصف الخيل بين صورتين: صورة هذه الخيول بخفتها ورشاقتها وحركتها، وصورة عاشقين يحب كل منهما الآخر وما يحسّان به من فرح وسعادة نشوة، يقول ابن حمديس(١٥٨):

متصـيِّد برياضة وطلاقة   في تيهِ معشوق وطاعة عاشقِ

ثم ينتقل الشاعر إلى صورة صوتية مسموعة، حين يتحدث عن صهيل هذه الخيول فهو صوت يطرب له السامع، وترتاح له الأذن، ويتكيء الشاعر على التراث العربي المشرقي في وصف هذا الجمال الصوتي، إذ جعله أجمل من صوت المغنين العرب القدماء كمعبد وخارق، المعروفين بجمال صوتيهما في مجالس الغناء واللهو، يقول(١٥٩):

---

(١٥٦) المصدر نفسه، ص٢٣.

(١٥٧) المصدر نفسه، ص٢٣.

(١٥٨) المصدر نفسه، ص٢٣.

(١٥٩) المصدر نفسه، ص٢٣.

وإذا تغنّى بالصهيل مطرِّبا   أنسى أغانيَ معبدٍ ومخارقِ

ثم يصور الشاعر الخيول الصفراء مستمداً عناصر صورته من الطبيعة الأندلسية، فهي خيول شقراء ضاربة إلى الصفرة، شبيهة بالزعفران في لونها، وهي كالريح في سرعتها وشدة جريها، حيث يقول(١٦٠):

ومزعفر لونَ القميص بشُقْرةٍ   كالريح تعصفُ في التهاب البارقِ

وقد تأثر ابن حمديس في وصفه للخيول بالبيئة البحرية المحيطة بجزيرة ميورقة ، كما تأثر بأجواء المعارك البرية والبحرية التي كان يخوضها ناصر الدولة، حيث وصف الشاعر هذه الخيول وهي تقفزُ فوق جسور مُدَّت لها فوق الماء لتعبر البحر، وكأنها تعانق السماء، حيث يقول(١٦١):

ويَمُدُّ فوق البحرِ عند عُبُوره   جسْراً بهادٍ للسماء معانقِ

وهي خيول سريعة العدو قد أضحى لركضها أثر كبير، يبعث على الفزع في قلوب المعاندين والمنافقين، يقول(١٦٢):

خيلٌ كأن الركض من خيلائها   في قلب كلٍّ معاندٍ ومنافقِ

وهي خيول تستحق أن تكون عند مَنْ يعرف قيمتها ويتصرف بها، ويستخدمها كما يكون الاستخدام الصحيح، حيث الحرب والقتال، فهي الخيول التي تصلح لك ولجندك، لأنها في أرض المعركة الصواعق شدة وبأساً وقوّة، ولا يمكن أن يستغل كل هذه المميزات في هذه الخيول إلا الجنود الأشداء الحاذقون لفنون الحرب والقتال، يقول ابن حمديس(١٦٣):

قُدْها تخبُّ بكلِّ ذِمْــرٍ أبلهٍ   بخــداعِ أبطالِ الوقائعِ حاذقِ

وإذا أثرنَ بنقعهنَّ سحائباً   صبَّتْ على الأعداءِ صَوْبَ صواعقِ

ومن الشعراء الذين تحدثوا عن الخيول ووصفوها في دانية والجزائر الشرقية

---

(١٦٠) المصدر نفسه، ص٣٢٠.

(١٦١) المصدر نفسه، ص٣٢٠.

(١٦٢) المصدر نفسه، ص٣٢٠.

(١٦٣) المصدر نفسه، ص٣٢١.

إدريس بن اليمان، حيث يصف الخيل وسرعتها، وخفة حركتها ونشاط فرسانها في أرض المعركة، يقول(١٦٤):

خيلٌ يَميدُ الدهر عند هبوبها   مَيْدَ القضيب بعاصف زَعْزَاعِ

فكأنَّ خُطْفَاً من نتائج أعوجٍ   تَنْقَضُّ من فُرسَانها بِسبَاعِ

ويربط ابن اللبانة بين الجيش، وهو يتحدث عن ناصر الدولة في إحدى مدائحه، فهي خيل ضامرة البطون، سريعة الخطو كالطير في مباراتها الرياح، وفرسانها مكُللون بالنصر والظفر، ومن يفكر في الاعتداء أو النيل من ناصر الدولة وجيشه، فلن يلقي إلا هؤلاء الفرسان فوق هذه الخيول الضامرة التي تسابق الريح من خفتها ورشاقتها، حتى لتبدو كأنها طيور تباري الرياح في سرعتها، يقول(١٦٥):

لك البسيطان فمن ضُمَّرٍ   تُردى ومن طير تباري الرياحْ

أغْرِبة للورقِ في ظهرها   أجنحةٌ خفاقة بالنجاحْ

ويصف ابن اللبانة جواداً كان يركبه ناصر الدولة حين يغزو الأعداء ويحاربهم بجيشه، فهو يقود المعركة ويغزو بهذا الجيش على جواد طويل الجسم قويِّ البنية، يثير الذعر والخوف في قلوب الأعداء، يقول(١٦٦)

ويركبُ في أرحالها ظهرَ شَيْظَمٍ   فيحملهمْ منهم على ظهر شَيْهَمِ(١٦٧)

ويقدمُ أبو العطار اليابسي صورة جميلة للفرسان وهم يعتلون ظهور الخيل في أرض المعركة، فهذه الخيول الأصيلة عنوان قوة الجيش وعظمته وانتزاع النصر على الاعداء من خلال مساهمتها في المعارك والحروب، فإذا ما اشتدت نيران الحرب أخمدها ما في معاطفها من عرق، يتصبب نتيجة عدوها الشديد وصولات فرسانها، وهي تبدو في ساحة المعركة كأنها بحوز غير أن في ظهورها منجاة من السقوط في

---

(١٦٤) ابن بسام: الذخيرة، ق٣ م١، ص٣٣٩.

(١٦٥) شعر ابن اللبانة، ص٣١.

(١٦٦) المصدر نفسه، ص٩٧.

(١٦٧) (الشيظم: الفرس الطويل الجسم، انظر: لسان العرب، مادة شظم، وعلى ظهر شيْهم أي على ذعر وخوف، انظر: لسان العرب: مادة شهم).

مهاوي الردى، يقول(١٦٨):

والجيش قد جَعَلَتْ أبطاله مرحاً   تختالُ عن خُيَلاء السُّبَّق العتقِ

إذا تَسَعَّرت الهيـجاءُ أخمدهـا   ما في معاطفها من نُدْوةِ العَرَقِ

هي البحور ولكنْ في كواثبها   عند الكريهة منجاةٌ من الغَرَقِ

ومن الموضوعات الطريفة التي تتصل بالخيل في دانية والجزائر الشرقية، رثاء الشاعر مهراً لعلي بن مجاهد العامري كان قد مات(١٦٩). وفي ذلك تعبير عن تقدير هؤلاء الشعراء للخيل واعتراف بفضلها ودورها في الحياة العسكرية.

ب- وصف مظاهر الطبيعة الصامته

توقف الشعراء في دانية الجزائر الشرقية عند بعض مظاهر الطبيعة الصامته، كالليل والنهار، والفجر والظلام، والشمس والقمر، والثريا والنجوم والرياض والأزهار والورد، من نرجس وريحان، وغيرها من المظاهر الأخرى.

قد حاول هؤلاء الشعراء رسم لوحات فنية لما يشاهدون من مظاهر طبيعية مختلفة في البيئة التي يعيشون فيها، فنجد ابن مقانا الأشبوني قد دهش بمنظر النجوم والثريا في الليلة المظلمة في مدينة دانية، حيث يصور هذه النجوم بالروضة أو الحديقة بنباتاتها وأزهارها لحظة أو فترة مرور السحاب فوقها، ويوظف الشاعر هذا المنظر بعناصره المترابطة لخدمة غرض القصيدة الرئيس وهو المدح، فالنجوم ابطال، والثريا وسط النجوم هي الراية لهذا الجيش وقادته والأمير مجاهد هو مَنْ يقود هؤلاء الأبطال وجيشهم، يقول هذا الشاعر(١٧٠):

كأنَّ نجومَ الدُّجى رَوْضَةٌ   تجرُّ بها السُّحْبُ أذْيالها

كأنَّ الثـريا بها رايـة   يقـودُ الموفـقُ أبْطالها

ويحاول إدريس بن اليمان أن يربط بين صورة مجاهد وجيشه أيضاً، حين يخرج

---

(١٦٨) ابن بسام: الذخيرة، ق٢ م١، ص٤٦٥، وانظر كذلك: ابن سعيد: المغرب، ج٢، ص٤٧.

(١٦٩) انظر هذا البحث، ص٨٦.

(١٧٠) ابن بسام: الذخيرة قم م٢، ص٧٩٦.

بهذا الجيش في الليالي المظلمة شديدة السواد، قبل أن يطلع الفجر، حتى لا يحسُّ به الأعداء، ثم يصور القائد وجيشه وسط هذا المنظر، فمجاهد العامري قائد الجيش هلال يقف خطيباً بين هذه الكواكب في السماء، ويظهر من خلال البيتين التاليين قدرة الشاعر على تصوير الفجر بامرأة تضع البرقع على وجهها فلا يرى هذا الوجه من شدة الظلام، فيقول إدريس(١٧١):

والفجرُ ملويُّ النقابِ مبرقَعٌ   والليل مسدولُ الرواقِ مطنّبُ

وكأن باهرة الكواكب مَعشرٌ   قامَ الهلالُ بهم خطيباً يخطبُ

ووصف الشعراء الرياض الجميلة والبساتين بأشجارها وأزهارها وورودها فيتحدث هؤلاء عن هذه اللوحات الفنية الطبيعية التي رسمها الخالق فأبدع في رسمها، فهذه الروضة -عند إدريس بن اليمان- تدخَّل الغمام في حياكة ثوب جميل لها تلبسه وتتزين به وهو مزركش بالبنفسج الذي انتشر فوق هذه الروضة وهو متناثر كاللآليء، حيث يقول(١٧٢):

وأريضةٍ حاك الغمامُ برودَها   وسقى بريقِ الغانياتِ بَرودَها

ضحك البنفسج فوقها فكأنما   نثرتْ به خضر الحمامِ عُقودَها

ويتحدث ابن اللبانة واصفاً الورد والنرجس الأصفر والريحان في صورة متناسقة كونت لوحة فنية جميلة، تجلّت في هذه اللوحة قدرة الشاعر على التقاط عناصر مترابطة لصورته هذه، وكأنه مصور بارع يعرف كيف يكون من الأشياء المتناثرة المتباعدة صورة متناسقة الألوان، لا يشوبها عيب أو نقص فهو يتحدث عن الورد وقد رآه وحبات الندى تلامسه فهي تشبه خد المرأة الخجولة وحبات العرق تظهر عليه فتزيد هذا الخد جمالاً.

أما النرجس الأصفر فقد أصابه الرعب، وهو يرى الشاعر، فأصبح أصفر اللون من شدة الخوف والرهبة، أما الريحان، فهي كروح الشاعر الثابته التي لا تتغير ولا

---

(١٧١) المصدر نفسه، ق٣ م١، ص٣٤٠.

(١٧٢) الحميري، أبو الوليد اسماعيل بن محمد بن عامر بن حبيب (ت٤٤٠هـ)، البديع في وصف الربيع، تحقيق، د. عبدالله عبدالرحيم عسيلان، دار المدني للطباعة والنشر، ط١، ١٩٨٧، ص١١٢.

تتبدل، هي إشارة هنا من الشاعر إلى بيان بعض صفاته وطبائعه، لقد مزج الشاعر في هذه اللوحة ألواناً مختلفة ساهمت في عرض هذه اللوحة متجسدة فكأننا نراها أمام أعيننا، حيث يقول(١٧٣):

والوردُ تحت الطلِّ فيها مشبه   خداً يذوبَ من الحياءِ فيقطرُ
وكأن نرجسها أصيب بروعتي   فَعَلاه لون مثل لوني أصفرُ
فكأنما الريحان روحي كلما   تتغير الأشياءُ لا يتغيرُ

ووصف الشعراء الربيع حيث تظهر الأرض في صورة جميلة زاهية، حين كان الأندلسيون يحتفلون بأعياد الربيع أو النيروز، وقد كان هذا العيد يسمى بعيد العُنْصُرة، وكان يقام سنوياً. فهذا ابن اللبانة يشارك أهل ميورقة احتفالهم بهذا العيد في ظل أميرهم ناصر الدولة، حيث يتمنى الشاعر أن يعود إلى أيام الصبا والشباب ليحتفل بهذا اليوم كما يجب أن يكون الاحتفال مصدر سعادة وسرور، فهو يوم جميل، وكافوره يغطي السهول والجبال، فيقول(١٧٤):

يا كوكب النيروز في بهجةٍ   أسنى من البدر المنير اللياحِ
جاءت عطاياك تهادى به   تهادي الغير غداة اقتراحِ
لو أن لي قوة عهد الصبا   لم أترك النيروز دون اصطباحِ
يوم رقيق ناثرٌ ناظمٌ   كافوره فَوْقَ الربى والبطاحِ
تلعبُ فيه كل مياسةٍ   ميسَ غصونٍ تحت روح الرواحِ

ﻫ- صورة دانية والجزائر الشرقية

ظهرت مدينة دانية والجزائر الشرقية في شعر الشعراء الذين ينتسبون إليها، وشاركوا في الحركة الشعرية فيها، أو هاجروا إليها وعاشوا فيها، وظهرت هذه المدينة والجزائر الشرقية في صورة جميلة ولوحات فنية رائعة؛ لما تتمتع به من جمال طبيعي، ضم جمال البحر، وعناصر الطبيعة الأخرى من أنهار وأشجار وازهار

---

(١٧٣) شعر ابن اللبانة، ص٤٥-٤٦.

(١٧٤) شعر ابن اللبانة، ص٣١-٣٢.

ونباتات غطت هذه البلاد التي عرفت بخصبها.

لذلك نجد أن أبا بكر محمد بن القاسم يترك الأندلس أثناء الفتنة، ويرحل إلى المشرق وتطول به رحلة التعب، ويطوف البلاد، العراق وبلاد الشام، وغيرها، فلا وجه مقارنة بين الأندلس وهي أقصى الغرب، وبين الشام المتمثلة في مدينة حلب: فيقول متسائلاً(١٧٥):

أينَ أقصى الغرب من أرضِ حلب   أملٌ في الغربِ موصول التعب

ولا يرتاح الشاعر وهو في غير بلاده، فيعود إلى الأندلس، يستقر في مدينة دانية في بلاد مجاهد العامري ويرى، أنه حل في جنة الدنيا التي فارقها أثناء الفتنة وينظر إلى البلاد التي جاء منها على أنها جهنم، لأنه ذاق العذاب والألم فيها، حيث يقول في أبيات نظمها في مدح مجاهد العامري(١٧٦):

فلا تسألوني عنْ فِراق جهنم   ولكنْ سَلُوني عن دُخولي إلى عَدْنِ

أما ميورقة فقد وصفها ابن اللبانة في أكثر من قصيدة مدح بها ناصر الدولة، فصور جمال هذه الجزيرة وعاصمتها التي عرفت واشتهرت بجمالها الطبيعي وخصوبة أرضها كما أشار إلى ذلك الجغرافيون.

وقد وصف هذا الشاعر ميورقة في بيتين جميلين، يعبران عن جمال موقعها وطيب أرضها ونباتاتها، وجمال منظرها، فيربط الشاعر بين الحمامة الجميلة والطوق الجميل الذي يحيط بعنقها، وبين هذه الجزيرة وسط هذا البحر، بما فيها من رياض وأنهار وجداول وغيرها، ويبدو أن هذه الصورة التي برع الشاعر في التقاط عناصرها كانت في فصل الربيع، حيث الأزهار والورود المزركشة الملونة، فتظهر هذه الجزيرة وكأن طاووساً قد منح أرضها ألوان ريشه الزاهية: حيث يقول ابن اللبانة(١٧٧):

فكأنما ماء الغمام مدامةٌ   وكأنْ ساحات الديار كؤوسُ

بَلَدٌ أعارته الحمامة طوقها   وكساه حُلّة ريشه الطاووسُ

---

(١٧٥) المقري: نفح الطيب، ج٢، ص٣٠٢.

(١٧٦) المصدر نفسه، ج٢، ص٣٠٢.

(١٧٧) شعر ابن اللبانة، ص٥٥.

ولم يكتفِ الشعراء باظهار معالم الصورة الطبيعية لمدينة دانية والجزائر الشرقية فقط، بل تجاوزوا هذه الصورة إلى رسم معالم الصورة الحضارية لهذه البلاد، وبيان ماطرأ عليها من تغير بفعل امرائها.

فهذا ابن اللبانة يصور ميورقة وقد أصبحت عاصمة مزدهرة ورمزاً للسلام والأمن، وموردا للعطاء، حيث غدا مقر أميرها مأوى للشعراء والأدباء، وأصبح النزول فيه أمنية كل إنسان ومطلبه، يقول(١٧٨):

ولما رأت عيني جناب ميـــورقٍ   أمِنْتُ وحَسْبُ المرء بغيته حَسْبُ

نزلت بكافـــورٍ وتبرٍ وجـوهـــر   يقالُ لها الحَصْباء والرملُ والتربُ

وقلت: المكان الرحب اين؟ قيل لي   ذرى ناصـر العلـياء أجمعه رجبُ

فهي جزيرة حصباؤها الكافور، ورملها التبر وترابها الجوهر، وهي فوق هذا وذاك بلاط ناصر الدولة وعاصمة إمارته.

ويؤكد ابن اللبانة في قصيدة أخرى على الدور الكبير الذي قام به ناصر الدولة في اعلاء شأن جزيرة ميورقة، وخاصة في مجال العمران والبناء وإشاعة أسباب الازدهار والرقي الحضاري، ويستدعي في سبيل ابراز هذه الجهود عدداً من الصور والشخصيات التاريخية فقد عمَّر ناصر الدولة ميورقة بالعدل والإحسان، وبنى فيها مباني عظيمة تذكر بتلك التي شيَّدها الاسكندر المقدوني، وغدت مدينة ميورقة حاضرة علمية تشبه بغداد أيام ازدهارها في عهد هارون الرشيد ووزيره جعفر بن سليمان البرمكي يقول(١٧٩):

وعمرّتَ بالإحسان أفق ميورقة   وبنيت فيها ما بنى الاسكندر

فكأنها بغداد أنـت رشيـــدها   ووزيرها -وله السلامة- جعفر

وشاءَت الظروف أن تتغير الأحوال، ويصبح ابن اللبانة غريباً -كما كان- في ميورقة التي أحبها حين حلّ بها عند هذا الأمير، وصورّها أجمل تصوير في شعره، فقد حسده الحاسدون من الشعراء، وشوا به عند أميرها ناصر الدولة، فقرر الهروب

---

(١٧٨) المصدر نفسه، ص١٨.

(١٧٩) شعر ابن اللبانة، ص٤٧.

والبحث عن مكان آخر، ولم تعد ميورقة تعني له شيئاً حتى لو أصبحت كمصر قيمة وأهمية والنيل عطاءً وجوداً، لقد خرج منها يقول(١٨٠):

أفِرُّ بنفسي وإنْ أصبحتْ ميورقة مصراً وجدواك نيلا

د- البحر والسفن الحربية

كان لموقع دانية على البحر والجزائر الشرقية فيه أثر كبير في جعل هذه المدينة، وهذهْ الجزر ذات موانئ عسكرية، ودور لصناعة السفن التجارية والحربية، فمن هذه الموانئ في دانية والجزائر الشرقية كانت تنطلق الجيوش في غزواتها البحرية على سردانية وسواحل ايطاليا بقيادة مجاهد العامري، وناصر الدولة أمير ميورقة اللذان عُرِفا بغزواتهما وجهادهما في البحر.

ولذلك نجد بعض الشعراء في دانية والجزائر الشرقية يتحدثون عن البحر بأهواله وأمواجه العاتية ومده وجزره وظلماته، حيث تظهر هذه الصورة في شعر ابن اللبانة، فنجده يقارن بين البحر الحقيقي، وبحر الهوى، ولكنه في الوقت نفسه يظهر لنا صورة واضحة المعالم عن البحر بأهواله، فهذان البحران مركبهما صعب مخيف مرعب، فللبحر الحقيقي لجج خضر تشبه الروابي والجبال، وله لجج أخرى بيضاء نتيجة تراشق الأمواج العالية، وهي تشبه الغيوم الكثيفة من شدة البياض، يصور لنا الشاعر أمواج البحر ورياحه، فيقول(١٨١)

وبحر سوى بحر الهوى قد ركبته لأمر كلا البحرين مركبه صعبُ

له لجج خضر كما اخضرت الربى إلى أخر بيض كما ابيضت الكثبُ

غريب على جنبي غرابٌ نهوضهُ بقادمتي ورقاء مطلبها شعبُ

هوى بين عصف الريح والموج مثلما هوى بين أضلاع المعنى به قلبُ

وعلى الرغم من اهتمام الشعراء بوصف البحر في الأندلس عامة ودانية والجزائر الشرقية خاصة، إلا أنهم في أوصافهم للبحر «لم يتجاوزوا الشكل ولم

---

(١٨٠) المصدر نفسه، ص٨٠.

(١٨١) شعر ابن اللبانة، ص١٧-١٨.

ينفذوا إلى اسرار البحر يرسمونها ويضفون عليها ألوان الفن، كما فعلوا في غيرها من ألوان الوصف لمظاهر الطبيعة، بل إن بعض الشعراء كانوا حين يركبون البحر يركبونه على خوف، ويتصورونه سبيل المضطر...»([182]).

وكثيراً ما كان الشعراء يقلدون المشارقة في حديثهم عن البحر، من حيث ارتباط البحر بالممدوح رمز العطاء والجود، فلذلك نجد صورة البحر ظاهرة عند ابن اللبانة في مدائحه لناصر الدولة، إذ يتوقف الشاعر عند صفة الكرم والعطاء، فقد عرف البحر بجوده وكرمه، وقد عرف الممدوح أيضاً بهذه الصفات، ولكن الشاعر هنا وهو يمدح ناصر الدولة، يميل إلى أن يظهر الممدوح بحراً لكنه أكثر عطاءً من البحر الحقيقي وأعظم جوداً منه، إنّ هذين البحرين شقيقان، لكن البحر الحقيقي مِلْحٌ ماؤه أما الممدوح فماؤه عذب بارد، ولكل منهما ديمتان، ويعترف البحر الحقيقي بأن ديمته قد تمطر، وقد لا تمطر، أما ديمة ناصر الدولة فدائمة العطاء والجود، فهي على الأرض البرية ندى وهي في البحر سحب كثيفة، يقول ابن اللبانة([183]):

سألتُ أخاه البحر عنه، فقال لي	شقيقي إلا أنه الباردُ العَـذْبُ
لنا ديمـتا مـاءٍ ومالٍ فديمـتـي	تماسـكُ أحياناً وديمتـه سكبُ
إذا نشـأت بريــــة فله النـدى	وإن نشأت بحرية فلي السحبُ

ويؤكد الشاعر في قصيدة أخرى أنّه لا قيمة للبحر الحقيق بخيراته وعطائه أمام عطاء ناصر الدولة وجوده، حيث يحدثنا الشاعر عن ظاهرتين من ظواهر البحر وهما: المد والجزر، ويقرن بينهما وبين صفات الممدوح الذي هو دائم العطاء، وفي جميع أحواله، يقول([184]):

وألقوا حديث البحرِ عند حديثهِ	فكمْ يبني في جَزْرٍ وكم يبني في مَدِّ

ولا يكتفي الشاعر بهذه الصور للبحر أمام الممدوح، ولكنه يتجاوز ذلك إلي أن يجعل البحر يسكن ويخاف رهبة من ناصر الدولة، ويعترف الشاعر أن البحر

---

(١٨٢) سيد نوفل: شعر الطبيعة في الأدب العربي، ص٢٦٣.

(١٨٣) شعر ابن اللبانة، ص١٨-١٩.

(١٨٤) المصدر نفسه، ص٣٧.

وأهواله كان مصدر خوف ورهبة لدى الناس، فهذا الممدوح حين أصبح أميراً بعد وفاة المرتضى أصبح البحر يخافه ويرهبه، وهي إشارة إلى بطولاته وغزواته في البحر، وكأن الأعداد يخافون مواجهته، يقول[١٨٥]:

والبحرُ يسكنُ خيفةً من ناصرٍ　　أرضى الرياسةَ بعدَ موتِ المرتَضى

وتظهر في حديث الشعراء عن البحر صورة المهرجانات البحرية التي كانت تقام في كل عام، وهي مناسبات اجتماعية وسياسية وعسكرية تهدف إلى عرض قوة الدولة البحرية، وقدرتها على مواجهة الأعداء، حيث تظهر في هذه الصور عناصر مختلفة تشمل البحر والسفن الحربية والجنود وأدوات المعركة البحرية، ويدقق الشعراء في وصف الجيوش ومراكبهم فهؤلاء الجنود -كما يرى ابن اللبانة- كثيرون يتدفقون من مراكبهم، وسفنهم كتدفق الماء في الخلجان، وهذه السفن الكثيرة تنتشر في البحر الذي امتلأ بكتائب الجيش، ويربط الشاعر بين هذا الجيش والسفن التي تحمله ويبين مدى سرعتها فهي تشبه الخيول السريعة الجري، التي تسابق الريح، ويشبه منظر السفن وهي تسير في البحر بقافلة من الإبل في انتظامها وسيرها، وهي مليئة بالجنود الذين غطوا هذه السفن، وهي تأتي من بعيد بكثافة تشبه كثافة الغيوم القادمة من البحر، وتثير هذه الصورة تَعجُّب الشاعر واستغرابه، فكيف يمكن لهذه السفن أن تحمل جنوداً كالأسود قوة وشجاعة.

ولذلك نجد هذه الصورة للبحر تمزج بين صورة السفن الحربية وصورة الجيش بشكل عام، كما يقول ابن اللبانة[١٨٦]:

بشرى بيوم المهرجان فإنّه　　يوم عليه من احتفالك رونق

طارت بنات الماء فيه وريشها　　ريش الغراب وغير ذلك شوذق

وعلى الخليج كتيبة جرارة　　مثل الخليج كلاهما يتدفق

وبنو الحروب على الجواري التي　　تجري كما تجري الجيادُ السُّبَّقُ

خاضت غدير الماء سابحة به　　فكأنما هي في سرابٍ أينُقُ

---

(١٨٥) المصدر نفسه، ص٦٠.

(١٨٦) المصدر نفسه، ص٧٢.

ملأ الكماة ظهورها وبطونها   فأتت كما يأتي السحاب المُغْدِقُ

عجباً لها ما خلت قبل عيانها   أن يحملَ الأُسْدَ الضواري زورقُ

وفي قصيدة أخرى يصف ابن اللبانة مراكب الغزو وهي تجري في البحر، حيث يصور ضخامتها وكثرتها، ومنظرها في البحر، إنها تشبه الطيور الجارحة التي تحوم فوق الماء والناس ينظرون إليها، ثم يصف الشاعر الجنود الذين يملأون هذه المراكب، وهي مراكب يشبهها الشاعر بالنساء الحوامل اللواتي يُنْتَظَرُ منهنّ أن يلدن توائم من كثرة ما تحمل من جنود ومقاتلين، يقول ابن اللبانة(١٨٧):

لك المنشآت الجاريات كأنها   ضواري شواهين على الماء حوّمِ

فظلّت بها بين النواظر والكرى   فمن محرمٍ يَسْري الخيال لمحرم

حمدنا لها فضل التأخر إنه   يقال: يكون الفضل للمتقدم

أقامت عذارى بالعذارى حواملاً   ولمْ تـرَ إلا أن تجيءَ بتوأمِ

أما المجاذيف التي يحرك به الجنود هذه المراكب، فهي تتحرك بانتظام عن اليمين واليسار، حيث تبدو كأنها أهداب العين التي تحدق بالآخرين، أو كأنها فوق الماء أقلام كاتب الدولة، تخط على صفحات قرطاس، يقول(١٨٨):

هزت مجاذيفاً إليك كأنها   أهدابُ عين للرقيب تحدّقُ

وكأنها أقلام كاتب دولة   في عرض قرطاسٍ تخطُّ وتمشقُ

---

(١٨٧) شعر ابن اللبانة، ص٩٧.

(١٨٨) المصدر نفسه، ص٧٢.

الفصل الثاني

الدراسة الفنية للشعر في دانية والجزائر الشرقية

في القرن الخامس الهجري

ميّز النقّاد العرب القدماء في حديثهم عن بناء القصيدة العربية بين ثلاثة أجزاء هي: المطلع والتخلص ثم الخاتمة. وعدّوا البراعة في هذه الأجزاء معياراً من معايير المفاضلة بين الشعراء، إذ اشترطوا على الشاعر أن يجتهد في تحسين الاستهلال والتخلص وبعدها الخاتمة(1).

ولذا نجد بعض الشعراء في دانية والجزائر الشرقية ينهجون نهج الشعراء القدامى في بناء القصائد، حيث استهلّوا قصائدهم المدحية بمقدّمات غزلية، ونجد مثل هذه المقدّمات عند ابن اللبانة في قصيدته البائية التي مدح بها مبشراً بن سليمان العامري، فالمحبوبة تبكي وهي تودّعه، وهو يصف هذه المحبوبة ورفيقاتها، وحبّات الدموع التي تتساقط من عينيها، فيقول(2):

بكَتْ عندَ توديعي فما عَلِمَ الركبُ　　　أذاكَ سقيط الطلِّ أمْ لؤلؤٌ رَطْبُ

وتابعها سِربٌ وإني لمخطــــــيءٌ　　　نجومَ الدياجي لا يقالُ لها سِرْبُ

ويمضي الشاعر في وصف المحبوبة ونسبها وشرفها، فهي من بيت كريم ذي عز وشرف ومجد، ومثل هؤلاء النساء يختلفن عن النساء الأخريات اللواتي يخرجن من بيوتهن لقضاء بعض الأعمال؛ لعدم وجود من يخدمهنّ، ويقوم برعايتهنّ، فيقول(3):

عقيلةُ بيت المجدِ لم تَرَها الدُّجَى　　　ولا لَمَحَتْهَا الشمسُ وهي لها تربُ

وبعد أن يتحدث الشاعر عن صفات المحبوبة في بعض الأبيات، ينتقل للحديث عن الاختلاف بين بحر الهوى والحب والبحر الحقيقي، فكلاهما خطيران والركوب بهما مخيف ومرعب، فيقول(4):

---

(1) انظر حول ذلك: القاضي الجرجاني : الوساطة بين المتنبي وخصومه، ص٤٨.

ابن رشيق القيرواني: العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ج١، ص٢٨٨.

(2) شعر ابن اللبانة، ص١٧.

(3) المصدر نفسه، ص١٧.

(4) المصدر نفسه، ص١٧.

وبحر سوى بحر الهوى قد ركبته   لأمر كلا البحرين مركبُهُ صَعْبُ

ثم ينتقل الشاعر إلى الحديث عن جزيرة ميورقة التي تحتضن ناصر الدولة، أميرها وحاكمها القريب من البحر، حيث نجد التوافق الجميل بين المقدمة وكيفية الانتقال منها، أو حسن التخلص إلى المدح، وإلى هذا المدوح الذي يعرف البحر ويحيطه من كل جانب، فنجد الشاعر قد ربط بين المحبوبة والوقوع في الهوى والحب، وهو بحر عظيم ومخيف، لينتقل إلى البحر الحقيقي في ميورقة، هذه الجزيرة التي يحتضنها البحر، ثم المدوح الذي تحتضنه هذه الجزيرة، ثم كرم هذا المدوح الذي يشبه هذا البحر في عطائه وجوده، فيقول(٥):

ولما رأتْ عيني جَنَاب ميــــورقٍ   أمْنتُ وحسبُ المرء بغيته حَسْبُ

وقلت المكان الرحبُ أين فقيل؟ لي   ذرى ناصر العلياء أجمعه رَحْبُ

براحته بحرٌ محيطٌ مُسَخَّــــرٌ   يُفاد الغِنى فيه ولا يَذْعَرُ الرَكْبُ

وتظهر في هذه القصيدة براعة الشاعر في حسن التخلص من موضوع إلى موضوع، والانتقال بين هذه الموضوعات بسلاسة، من غير أن يقطع الشاعر كلامه، ودون أن يحسّ القارىء بأنّه انتقل من موضوع إلى أخر.

ويظهر هذا النهج أيضاً عند ابن اللبانة في قصيدة أخرى بدأها بمقدمة غزلية طويلة في ذكر المحبوبة، وأوصافها حيث بناها بناءً مختلفاً غير مألوف كثيراً عند الشعراء، إذ جعل نصف القصيدة مدحاً ونصفها غزلا من خلال جعل صدر كل بيت في الغزل وعَجُزَه في المدح، فيقول فيها(٦):

وضَحَت وقد فضحت ضياءَ النيِّـر   فكأنّما التحفتْ ببشرِ مبشِّــرِ

وقد استمر في القصيدة كلّها معتمداً هذا النهج وهذه الطريقة(٧).

ويتّبع بعض الشعراء طريقة أخرى في بناء القصيدة والتقديم لها، إذ نجد ابن اللبانة يبدأ بعض قصائده في مدح ناصر الدولة بمقدمة في وصف الربيع، ومظاهر

---

(٥) المصدر نفسه، ص١٨.

(٦) المصدر نفسه، ص٥٣.

(٧) انظر القصيدة كاملة في المصدر السابق، ص٥٣-٥٥.

الطبيعة الجميلة، فيقول[٨]:

راقَ الربيعُ ورَقَّ طَبْعُ هوائِـــهِ فانظرْ نضارة أرضهِ وسمائـــهِ

واجعل قرينَ الوردِ فيه سُلافـةً يحكي مشعشعها مُصَعَّدَ مائـــهِ

ثم يربط الشاعر بين هذه الطبيعة ومظاهرها، والمحبوبة وجمال وجهها وحمرة خدّها، حيث يظهر هذا المزج عند الشاعر، عندما يعقد مقارنة بين جمال الطبيعة في فصل الربيع وجمال المحبوبة، حيث يقول[٩]:

لولا ذبولُ الورد قلتُ بأنّـــهُ خَدُّ الحبيب عليه صِبْغُ حيائـــهِ

هيهات أينَ الوردِ من خَدِّ الذي لا يستحيلُ عليك عهدُ وفائـــهِ

ويظهر هذا المزج أيضاً بين عناصر الطبيعة المختلفة وصفات المحبوبة وصفات الممدوح في قصيدة أخرى لابن اللبانة، مدح بها ناصر الدولة، يقول فيها[١٠]:

عاوَدَهُ الشوقُ وكانَ استـــراح وانبرت الطيرُ تغنّي فنـــاحْ

حيث ينتقل الشاعر في هذه القصيدة من المقدمة الوصفية التي يتناول فيها بعض مظاهر الطبيعة إلى وصف المحبوبة ثم الحديث عن الممدوح وذكر صفاته المعنوية[١١].

ومن القصائد الأخرى التي تبدأ بمقدمة غزلية، قصيدة ادريس بن اليمان في مدح إقبال الدولة، التي بدأها بالحديث عن حاله وزوال شبابه، ثم انتقل إلى التغزّل بالمحبوبة، يقول فيها[١٢]:

قد كنتُ لا أضحى إذا جئتُ الضحى حتى دُفِعْتُ إلى القَتيرِ الضاحـــي

فانجابَ عن أوضاحِهِ ذاك الدُّجـــى ووردتُ بعدَ الغمرِ في الضَحْضَاحِ

ثم يقف الشاعر عند الشيب الذي كان أمارة من أمارات ذهاب الشباب، الذي

---

(٨) شعر ابن اللبانة، ص١٢.

(٩) المصدر نفسه، ص١٢.

(١٠) المصدر نفسه، ص٢٩.

(١١) انظر القصيدة في المصدر السابق، ص٢٩-٣٣.

(١٢) ابن بسام،الذخيرة، ق٣، م١، ص٣٤٣.

لا يندم عليه، بل يأسف على صاحباته اللواتي لم يعدنَ قريبات منه، فيقول(١٣):

صاحَ الصباح بجانبي ليلي فلم أسَفْ لليلي إذ محاهُ صباحي

لكنْ أسفتُ على طِلىً وترائبٍ صَفِرَتْ يدي من حليها الصيّاحِ

من كل ناعمة يجولُ وشاحُها هيمانَ بين مهفهفٍ ورداحِ

ومن هذه القصيدة البيتان المشهوران في وصف الخمر، وهما(١٤):

ثَقُلَتْ زجاجات أتَتْنا فُرَّغاً حتّى إذا مُلِئَتْ بصرفِ الراحِ

خَفَّتْ فكادتْ أن تطيرَ بما حَوَتْ وكذا الجسومُ تَطيرُ بالأرواحِ

ثم ينتقل الشاعر إلى الغرض الرئيس من القصيدة وهو المدح(١٥).

وتكشف لنا بعض القصائد أنّه على الرغم من تأثُّر الشعراء الأندلسيين بالنمط التقليدي للقصيدة العربية، وتأثُّرهم بمعاني الشعراء المشارقة، إلاّ أنهم أضافوا إليها ممّا أملته عليهم ظروف بيئتهم، ومن ذلك أنّ ابن حمديس قد بدأ قصيدة مدحية بمقدمة تختلف عمّا سلف، إذ يتحدث عن وصف خيل كانت قد أهديت لناصر الدولة أمير ميورقة، فيصفها ويتحدث عنها طويلاً، فيقول(١٦):

جاءَتْكَ أولاد الوجيه ولاحق فأرتْك في الخلقِ ابتداع الخالق

ويطيل الشاعر في وصف الخيل، إذ يخصص ثلاثة وعشرين بيتاً من هذه القصيدة لهذا الوصف ثم ينتقل في الأبيات الأربعة الأخيرة إلى مدح ناصر الدولة، فيقول(١٧):

أصبحتَ في الساداتِ ناصر دولةٍ تصف العلى [ ]عدل مناطقِ

وثمّة نمط آخر من القصائد التي يبدأ فيها الشاعر بالموضوع مباشرة دون مقدّمة، حيث تكون القصيدة ذات موضوع وهدف واحد، وينسحب عليها كلها شعور عاطفي واحد، ويظهر ذلك في قصائد العتاب والوداع، وبعض قصائد الاستمناح

(١٣) المصدر نفسه، ق٣، م١، ص٣٤٣.

(١٤) المصدر نفسه، ق٣، م١، ص٣٤٤.

(١٥) انظر القصيدة كاملة في المصدر السابق، ق٣، م١، ص٣٤٣.

(١٦) ديوان ابن حمديس، ص٣٠.

(١٧) المصدر نفسه، ص٣٣.

والطلب.

ومن الأمثلة على ذلك قصيدة ابن اللبانة، التي يعاتب فيها ناصر الدولة ويودّعه، لما عزم على مغادرة ميورقة مضطراً، حيث يقول(١٨):

سلامٌ على المجدِ يندى بليـــلا   كنشرِ الرُّبى بكرةً وأصيـــلا

ونجد هذا النهج عند الشاعر أبي عمر أحمد بن دراج القسطلي، عندما وفد على مجاهد العامري، حيث مدحه بقصيدة يبدأها بالغرض الرئيس دون مقدّمات، حيث يقول(١٩):

إلى أيِّ ذِكْرٍ غير ذِكركَ أرتـاحُ   ومِن أيِّ بحرٍ بعد بحركَ أمْتَاحُ

ولعلّ طبيعة الشاعر النفسيّة والظروف التي كان يمرّ بها، قد تحول دون قيامه ببناء مقدّمات مختلفة للقصائد التي يقولها في مدح هذا الأمير أو ذاك.

ومهما يكن من أمر، فإنّنا نستطيع أن نقول إنّ القصائد، التي انتهت إلينا كاملة من أشعار شعراء دانية والجزائر الشرقية، تشير إلى أنهم، قد نوّعوا في مقدّمات قصائدهم، وخاصة القصائد المدحية، فكانوا يبدأون بمقدّمات غزلية أو مقدّمات وصفيّة أحياناً، وقد يمزجون بين الطبيعة والغزل في مقدّماتهم أحياناً أخرى.

كما وجدنا أنّ بعضهم كانوا يبدأون قصائدهم بالموضوع مباشرة دون مقدّمة، ولعلّ ذلك يعود إلى جملة عوامل، تتعلّق بظروف الشاعر وحالته النفسيّة والاجتماعيّة، وطبيعة الموضوع الذي يتناوله.

ثانياً: الألفاظ و التعبير عن المعاني

لقد حرص الشعراء في دانية والجزائر الشرقية على اختيار ألفاظهم، والعناية بها وحسن صياغتها، شأنهم في ذلك شأن الشعراء الأندلسيين عامّة في هذا القرن. «فهم شأن كل من يعمل بالفن -يثقفون شعرهم لا ليخرجوا به إلى التعقيد أو الإغراب، بل ليتوافر له الاعتدال والرزانة، بحيث يصير متعة الآذان،

(١٨) شعر ابن اللبانة، ص٧٩.

(١٩) ديوان ابن دراج، ص٤٧٨.

وراحة النفوس»(٢٠).

ولذلك نجد أن هؤلاء الشعراء قد مالوا إلى السهولة والوضوح في أشعارهم، وحرصوا على انتقاء ألفاظهم بما يتناسب وطبيعة الموضوع الذي ينظمون فيه، بحيث خرجت ألفاظهم، وعباراتهم سلسة جميلة واضحة، بعيدة عن التعقيد اللفظي واستخدام الحوشي الغريب، رغم استخدامهم للمحسنات اللفظية كالجناس لكنها جاءت عفوية بعيدة عن التعقيد اللفظي والغموض.

ومن الأمثلة على ذلك قول أبي جعفر بن أحمد الداني، وهو يتحدّث عن الوظائف والمناصب التي شغلها بعض أفراد أسرته، يقول(٢١):

جارَ ذا الدهر علينا	وكذا الدهرُ يجورُ
كان شرطياً أبونا	وأخي اليومَ وزيرُ
أنا مأبونٌ صغيرٌ	وهو مأبونٌ كبيرُ

فالشاعر في ألفاظ قليلة واضحة، وعبارات سهلة سلسة، لا تعقيد فيها ولا غموض، ينقل لنا ما يريد من معنى، فهو ناقد ساخر مستهزيء بما يرى ويشاهد، ولسان حاله يقول ما يقوله أهل زمانه، لمن يشغل مثل هذه المناصب، ويسيء استخدام السلطة.

وفي أبيات جميلة في ألفاظها، عذبة في موسيقاها، يتحدث ابن عبد الولي الميورقي عن محبوبته الفاتنة، التي تشبه الخيزران في دقتها ورشاقة قوامها، إضافة إلى جمال عيونها الفتان، وسحر لواحظها التي لا أمان فيها، يقول(٢٢):

هَلْ أمَانٌ من لحظِكِ الفتَّانُ	وقوامٌ يميسُ كالخيزُرانِ
مهجتي منك في جحيمٍ ولكن	نَ جفوني قد مُتِّعَتْ في جنانِ
فَتَنَتْنِي لواحظٌ ساحراتٌ	لَسْتُ أخْشَى من فتنةِ السُّلْطانِ

وتتجلى اللفظة الشعرية جمالاً ورونقاً وحسن اختيار، في قول ابن مقانا

---

(٢٠) سعد إسماعيل شلبي، الأصول الفنية للشعر الأندلسي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٨٢، ص٢٩٨.

(٢١) ابن سعيد، المغرب، ج٢، ص٤٠٤.

(٢٢) المصدر نفسه، ج٢، ص٤٦٨.

الأشبوني وهو يصوّر مجاهداً العامري، قائلاً [٢٣]:

كأنَّ نجومَ الدُّجى رَوْضَـــــةٌ   تجرُّ بها السُّحْبُ أذْيَالَهــــا

كأنَّ الثُّرَيَّا بها رايــــــــةٌ   يقود المُوَفّق أبْطَالهــــــا

ويلجأ بعض الشعراء في شعرهم إلى اختيار بعض الألفاظ والمصطلحات اللغوية النحوية، وتوظيفها توظيفاً جيداً في خدمة المعنى الذي يريدونه، كما يظهر ذلك عند ابن خلصة في مدحه لإقبال الدولة، حيث يقول موظّفاً بعض هذه المصطلحات[٢٤]:

خدمتكم ليكون الدهرُ من خدمي   فما أحالتْهُ عن أحوالِهِ حِيَلــي

إن لم تكن بكم حالي مُبَدَّلَــــةً   فما انتفاعي بعلم الحال والبَدَلِ

فهو يوظّف مصطلحي الحال والبدل في خدمة المعنى الذي يذهب إليه.

وقد استخدام الشعراء الجناس في أشعارهم بعفوية وبساطة، فجاءت مزينة للألفاظ، مبتدعة عن الغموض. ومن الأمثلة على الجناس قول ابن حمديس[٢٥]:

جاءَتك أولاد الوجيه ولاحــق   فأرتْكَ في الخَلْق ابتداع الخالقِ

حيث جانس الشاعر جناساً ناقصاً بين كلمتي (الخلق والخالق).

ويظهر الجناس أيضاً في قول ابن اللبانة في مدح مبشر، حيث يقول[٢٦]:

وأتى يجرُّ ذوائباً وذوابــــلاً   فرأيتُ روضاً بالصِّلال تحرّسا

فقد جانس الشاعر جناساً ناقصاً بين كلمتي (ذوائب وذوابل).

ويظهر الجناس عند ابن اللبانة بين كلمتي (فَراشاً وفِراشٍ) في قوله[٢٧]:

هلاّ ثناك عليَّ قلبٌ مشفق   فترى فراشاً في فراشٍ يُحْرَقُ.

ومال الشعراء في دانية والجزائر الشرقية إلى استخدام بعض الفنون البديعية المعنوية، كالطباق والمقابلة وغيرها من هذه الفنون. وقد وظّفوا هذه الفنون توظيفاً جيداً لخدمة المعاني التي يذهبون إليها وتوضيحها.

---

(٢٣) ابن بسام، الذخيرة، ق٢، م٢، ص٧٩٦.

(٢٤) ابن سعيد، المغرب، ج٢، ص٣٩٤.

(٢٥) ديوان ابن حمديس، ص. ٣٣.

(٢٦) ابن بسام، الذخيرة، ق٣، م٢، ص٦٨٤.

(٢٧) المصدر نفسه، ق٣، م٢، ص٦٩٢٣.

فمن أمثلة الطباق ما ورد في قول ابن غرسية في مدح إقبال الدولة، حيث طابق بين كلمتي الصبح والإظلام، وبين السر والعلن في البيتين التاليين(٢٨):

الآن أطْلِعَ في ليلِ الرَّجاءِ سَنَا   وقَابَل الصبحَ والإظلامُ قد ظعنَا

عَهْدُ حَبَاكَ به من ليسَ يشبهُهُ   مَلْكٌ فأخْلِصْ عليه السرُّ والعَلَنَا

ومن أمثلة الطباق أيضاً قول ابن اللبانة في مدح ناصر الدولة(٢٩):

وألغُوا حديث البحر عند حديثه   فكمْ بين ذي جَزْرٍ وكم بين ذي مَدِّ

حيث طابق الشاعر بين كلمتي جزر ومد.

وقوله أيضاً (٣٠):

وتحسب في عودي لياناً وإنّه   لَفي السرِّ من نَبْعٍ وفي الجهرِ من رندِ

فقط طابق الشاعر بين كلمتي السر والجهر.

وقوله(٣١):

وفيك جرعتُ الذلَّ والعزُّ عادتي

فلي شيمةُ المولى ولي شيمةُ العبدِ

ويظهر الطباق في هذا البيت بين كلمتي الذل والعز، والمولى والعبد، حيث استطاع الشاعر توظيف الطباق لخدمة المعنى الذي يريد وهو بين يدي الممدوح.

ومن الأمثلة على الطباق ما جاء في قصيدة ابن اللبانة في مَدْحِ مبشر الدولة، حيث يقول(٣٢):

وقفتْ عليه من النفوس بواطنٌ   وظواهرٌ وأواخرٌ وأوائلُ

وتجاذَبَتْهُ مشارقٌ ومغاربٌ   فتلطفتْهُ وسائلٌ ورسائلُ

فقد طابق الشاعر بين (بواطن وظواهر)، وبين (أواخر وأوائل)، وبين (مشارق ومغارب).

---

(٢٨) ابن سعيد، المغرب، ج٢، ص٤٠٧.

(٢٩) ابن بسام، الذخيرة، ق٣، م٢، ص٦٨٢.

(٣٠) المصدر نفسه، ق٣، م٢، ص٦٨٢.

(٣١) المصدر نفسه، ق٣، م٢، ص٦٨٣.

(٣٢) شعر ابن اللبانة، ص٨٢.

ومن أمثلة الطباق أيضاً في القصيدة السابقة قول ابن اللبانة[33]:

فسختْ مكارمُكُم مكارمَ غيركم والحقُّ يفسخُ ما يخطّ الباطـلُ

فقد طابق الشاعر بين كلمتي الحق والباطل.

أمّا المقابلة، فتظهر عند ابن اللبانة، وهو يقابل بين موقفين لمدوحه ناصر الدولة، فهو ملك كريم جواد شجاع، فالسيف وسيلة لجمع الأمة والحفاظ على وحدتها، وهو كريم بعطائه الذي يفرّقه على من يستحق، حيث يقول[34]:

ضدّان فيه لمعتدٍ ولمعتـــــفٍ السيفُ يجمعُ والعطاءُ يُفرِّقُ

ومن المعاني الجميلة اللطيفة، قول ابن اللبانة، وهو يتحدّث عن شعره، فإذا كان الشعراء ينفقون الحبر أو المداد في كتابة الشعر ونظمه، فإنّه يختلف عنهم، إذ ينفق نور قلبه وأحاسيسه ووجدانه من أجل صياغة هذا الشعر، حيث يقول[35]:

من كان ينفق من سوادٍ كتابهُ فأنا الذي من نور قلبي أنفقُ

ومن المعاني الجميلة التي طرقها الشعراء المشاركة الوجدانيّة بين عناصر الطبيعة والإنسان، فقد جعل ابن اللبانة عناصر الطبيعة المختلفة من شمس وقمر وزهر وريح وروض وظل وغيرها، تشارك مبشر الدولة آلامه وأحزانه، وقد حلَّ به المرض، حتّى مظاهر الطبيعة نجدها قد مرضت لمرضه، يقول[36]:

شكَى لشكواكَ حتى الشمس والقمر وبات درّ الدراري الزهر ينتشرُ

وراحت الريحُ لا يذكو لها عبـــقٌ وأصبحَ الروض لا يندى له زهـرُ

وقلص الظلُّ في فصل الربيع لنا فكادت الأرضُ بالرمضاء تستعرُ

أما الماء في الينابيع فقد غاض وتلاشى بسبب مرض مبشر الدولة، والأنهار ما عاد فيها ماء يجري، والسحب التي تحمل المطر أصابها الخوف والفزع، فما عادت تمطر، بل إنّ الدر والياقوت قد تلاشا ولم يظهرا- كما يقول ابن اللبانـــة[37]:

---

(٣٣) المصدر نفسه، ص٨٢.

(٣٤) المصدر نفسه، ص٧١.

(٣٥) المصدر نفسه، ص٧٣.

(٣٦) المصدر نفسه، ص٤٧.

(٣٧) شعر ابن اللبانة، ص٤٨.

والماءُ غيضَ لنا غيضاً فما نبعت غين ولا سالَ في بطحائها نهــرُ

والسُّحْبُ صاحَبها ذُعْرٌ فما نشأتْ ولا استهلَّ لها فوق الربى مطرُ

ومعدنُ الدُّرِّ والياقوتِ غيض بـه فلم يصب فيه من أحْجَارهِ حَجَـرُ

ولقد ظهر اهتمام الشعراء في دانية والجزائر الشرقية بالاقتباس من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف وتضمين الشعر القديم.

فمن أمثلة الاقتباس من القرآن الكريم، قول ابن اللبانة(٣٨):

وكنتُ أهُزُّ المجدَ في حالِ حيرةٍ كمريمَ إذْ هَزّتْ وقد حازتْ الجذعا

فقد اعتمد الشاعر في صياغة المعنى الذي قصده على قصة مريم الواردة في القرآن الكريم، وقول الله تعالى على لسان مريم :

{ وَهُزِّي إليكِ بجذعِ النخلةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيًّا}(٣٩).

ويظهر الاقتباس من القرآن الكريم في قول ابن اللبانة أيضاً، وهو يخاطب ناصر الدولة، متحدّثاً عن الحسّاد والواشين(٤٠):

لقدْ أوقدُوا لي نيرانَهُــــم فصيّرني اللهُ فيها الخليـــلا

فقد استمدَّ المعنى من قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام مع قومه ورميهم له في النار، حيث يقول تعالى :

{ يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم} (٤١).

ومن الأمثلة على الاقتباس قول الوزير المصري عبدالله بن خليفة القرطبي وهو يرثي مهراً أُخذ لاقبال الدولة، حيث يربط بين قصة هذا المهر وقصة سيدنا يوسف عليه السلام الواردة في القرآن الكريم، فيقول(٤٢):

يا يوسفَ الخيلِ يا مقتولَ إخوتِـهِ قلبي لفقدكَ بين الحَرْبِ والحَرَبِ

إن كانَ يعقوب لم يقنعْ بكذبِهِــمِ إني لأقنعُ منهم بالدَّمِ الكـــذبِ

---

(٣٨) شعر ابن اللبانة، ص٦٢.

(٣٩) سورة مريم، الآية رقم ٢٥.

(٤٠) شعر ابن اللبانة، ص٨٠.

(٤١) سورة الأنبياء، الآية رقم ٦٩.

(٤٢) ابن بسام، الذخيرة، ق٤، م١، ص٣٥٢.

أمّا التضمين من الشعر القديم، فمن ذلك قول ابن اللبانة وهو يخاطب بعض أخوانه الذين لم يساندوه ولم يَقِفُوا إلى جانبه[43]:

وأتركُ جِيرةً جاروا وأشـــدو (أضاعوني وأيُّ فتى أضاعوا)

فقد ضمَّن الشاعر بيته صدر بيت الشاعر العرجي الذي يقول فيه[44]:

أضاعوني وأيُّ فتى أضاعـــوا ليوم كريهةٍ وسِدادِ ثَغـــرِ

إنَّ شيوع ظاهرة الاقتباس والتضمين في شعر شعراء دانية والجزائر الشرقية يدل على اتساع ثقافة هؤلاء الشعراء واهتمامهم بترصيع شعرهم.

---

(٤٣) شعر ابن اللبانة، ص٦٢.

(٤٤) الأصفهاني، الأغاني، ج١، ص٣٩٩.

حذا الشعراء الأندلسيون حذو الشعراء المشارقة في تشبيهاتهم واستعاراتهم وصورهم الشعرية بشكل عام، فاستمدّوا منهم بعض صورهم الشعرية واستفادوا من أشعارهم، لكنهم لم يغفلوا جانب التجديد والابتكار بتأثير البيئة الجديدة الأندلسية، التي أثّرت في تصويرهم وخيالهم.

وإلى ذلك يشير أحمد ضيف بقوله(٤٥):

«إذ رغم ما كان في نفوسهم من الأثر الذي اكتسبوه من تلك البلاد، وما حصل لهم من الحياة التي لم يكن لهم بها عهد في بلادهم، كانوا لا يزالون يميلون إلى أخيلتهم الأولى، ولم يكن لهم أن يهجروا عاداتهم، لأنّ العُجْبَ والخيلاء اللذين كان لهما السلطان على عقولهم، جعلاهم -حتى في تلك البلاد البعيدة، وحتى بعد قرون من انتجاعهم إياها- يتغنّون بذكر بلادهم، ويتّخذون الشعر القديم نموذجاً لهم في الصناعة والخيال».

وما يقال عن شعراء الأندلس عامة في تقليدهم للشعراء المشارقة، في صورهم وأخيلتهم، وما جاءوا به من تجديد، يقال أيضاً عن شعراء دانية والجزائر الشرقية، حيث نجدهم يحتذون حذو المشارقة في بعض صورهم. فإدريس بن اليمان يصوّر جيش مجاهد العامري بالأسود والذئاب قوة وشجاعة وقدرة على السير في الليل والقتال في النهار، يقول في وصفه(٤٦):

في معشرٍ شُمِّ الأنوفِ كأنّهم سيدانُ رَمْلٍ أوْ أُسودٌ دُرَّبُ

لَبِسوا دياجير الدُجى إذ أسادوا وتقنّعوا بسنا الضحى إذ أوّبوا

ويصوّر الشاعر أيضاً في القصيدة نفسها الفجر والليل، فالفجر وجه مغطّى بالنقاب، والليل مظلم أسود يشبه البيت أو الخيمة المسدولة الرواق، حيث يقول(٤٧):

والفجرُ ملويُّ النقابُ مبرقعٌ والليلُ مسدولُ الرواقِ مطنَّبُ

(٤٥) أحمد ضيف، بلاغة العرب في الأندلس، مطبعة مصر القاهرة، ١٩٢٤، ص٣٥.

(٤٦) ابن بسام، الذخيرة، ق٣، م١، ص.٣٤.

(٤٧) المصدر نفسه، ق٣، م١، ص.٣٤.

وتظهر عند ادريس أيضاً صورة الهلال والكواكب، فيصوّر الكواكب وهي محيطة بالهلال متلألئة مشرقة، بالرجال يقف فيهم الهلال يلقي خطبة أو يقدّم حديثاً، فيقول(٤٨):

وكأنّ باهرةُ الكواكبِ معشرٌ قامَ الهلالُ بهم خطيباً يخطبُ

أمّا نور الصبح فيشبه راية قائد حمراء، حين يتبعها الجيش، ويهتدي بها في سيرها، كما يقول إدريس بن اليمان(٤٩):

وكأنّ نورَ الصبحِ رايةُ فارسٍ حمراءُ يتبعها خميس أشهبُ

ويستخدم الشاعر نفسه التشبيه المقلوب في تصويره لمجاهد العامري في القصيدة نفسها، إذ يشبّه الشمس حين طلوعها بوجه مجاهد، فعندما يظهر وجهه ويشرق فإنّ الشمس تكاد تغرب وتزول، حيث يقول(٥٠):

وكأنّ قَرْن الشمسِ وجهُ مجاهدٍ لمّا أنارَ سناه كادتْ تغربُ

ويصوّر إدريس بن اليمان الشيب الذي ظهر في شعره، وهو علامة على شيخوخته وكبر سنه، فيصوّر هذا الشيب بالصباح الذي يزيل سواد الليل، فيقول(٥١):

صاحَ الصباحُ بجانبي ليلي فلم

أسَف لليلي إذْ مُحاهُ صباحي

ومن الصور التقليدية التي استخدمها الشعراء صورة وجه المحبوبة الذي يشبه الشمس، وصورة دموع هذه المحبوبة التي تشبه قطرات الندى أو حبّات اللؤلؤ، يقول ابن اللبانة في تصوير المعشوقة من قصيدة مدح بها مبشراً العامري وقد بدأها بمقدمة غزلية(٥٢):

بَكَتْ عَنْدَ توديعي فما عَلِمَ الركبُ أذَاكَ سَقيطُ الطَلِّ أمْ لؤلؤٌ رَطْبُ

(٤٨) المصدر نفسه، ق٢، م١، ص٣٤.

(٤٩) المصدر نفسه، ق٢، م١، ص٣٤.

(٥٠) المصدر نفسه، ق٢، م١، ص٣٤.

(٥١) المصدر نفسه، ق٢، م١، ص٣٤٣.

(٥٢) شعر ابن اللبانة، ص١٧.

عقيلةُ بيتِ المَجْدِ لم تَرَها الدُّجى   ولا لمحتْها الشمسُ وهيَ لَهَا تِرْبُ

ومن هذه الصورة التقليدية أيضاً تصوير الهوى أو العشق بالبحر لبيان هول ركوبه وصعوبته، يقول ابن اللبانة(٥٣):

وبَحْرٍ سِوَى بحرِ الهوى قد ركبتُـــــهُ

لأمرٍ كِلا البحرين مركبُهُ صعـبُ

ويصوِّر ابن مقانا الأشبوني النجوم والسحاب، فالنجوم في الليل المظلم روضة مليئة بالنباتات والزهور والورود، والسحب في السماء تخفيها وتظهرها أحياناً. أمّا الثريا فهي راية تشبه راية الجيش، ومجاهد العامري يقود هؤلاء الأبطال في المعركة، فيقول(٥٤):

كأنَّ نجوم الدُّجى روضـــــةٌ   تجرُ بها السُّحبُ أذيالهـــــا

كأنَّ الثريَّا بها رايــــــــةٌ   يقودُ الموفَّقُ أبطالهـــــــا

ونلاحظ براعة الشاعر في هذه الصور، حيث استطاع أن يمزج بين مظاهر الطبيعة وصفات الممدوح. فقد مزج الشاعر بين النجوم والسحب والثريا، ووظّف ذلك توظيفاً جيداً لخدمة غرض القصيدة الرئيس وهو المدح فظهر حسن التخلّص وبراعة الانتقال من غرض إلى غرض عند هذا الشاعر.

وتتجلّى الصورة عند إدريس بن اليمان في وصف الخمرة، فالكؤوس إذا كانت خالية كانت ثقيلة، حتى إذا ملئت بالخمرة أحدثت خفة وبعثت نشوة في الكؤوس، وكادت تطير بما حوت، لقد فعلت الخمرة في الكؤوس، فعل الأرواح في الجسوم، يقول(٥٥):

ثَقُلَت زجاجات أتتنا فُرَّغـــاً   حتّى إذا ملئت بِصِرْفِ الـراحِ

خفَّتْ فكادتْ تستطيرُ بما حَوَتْ   وكذا الجسومُ تَخِـفُ بالأرواحِ

ونلحظ مدى تأثر الشعراء في دانية والجزائر الشرقية بالبيئة الأندلسية في صورهم وتشبيهاتهم، فهذا صاعد البغدادي يصوّر الخريطة والمركب اللتين أهديتا

(٥٣) المصدر نفسه، ص١٧.

(٥٤) ابن بسام، الذخيرة، ق٣، م٢، ص٧٩٦.

(٥٥) المصدر نفسه، ق٣، م١، ص٣٤٤.

له من مجاهد العامري، حيث يصوّر المركب وقد حطّ بالميناء بالمولود الصغير الذي تضعه الأم لحظة ولادتها، وهي صورة مستمدة من البحر والبيئة الأندلسية، يقـــول(٥٦):

أتتني الخريطةُ والمركـــــبُ كما اقترن السعدُ والكوكـــبُ

وحطّ يميناً به قِلْعَــــــــةُ كما وضعت حَمْلَها المُقْـــرِبُ

وهذه الصورة من الصور الجديدة المبتكرة المستمدّة من البيئة الأندلسية البحرية. ومنْ الصور الأخرى المستمدّة من البيئة الأندلسية وبيئتها البحرية قول إدريس في مدح علي بن مجاهد ،وهو يصوّر كرم الممدوح وجوده، فيجعل البر بحراً في مدائحه، فيأخذ الشاعر بعض العناصر البحرية كالبحر والسباح، فيجعلها في صورته وتشبيهه، فيقول(٥٧):

فالبرُّ بَحْرٌ من مدائحه التي تربي على الطيارِ والسبّـــاحِ

ومن الصور الجميلة التي ظهرت في شعر دانية والجزائر الشرقية قول ابن اللبانة مصوّراً جزيرة ميورقة، فهي بلد أخذت من الحمامة طوقها الجميل، ومن الطاووس ألوانه البديعة، فظهرت هذه الجزيرة جميلة خلابة، بعناصر الجمال التي توفّرت فيها، لقد غدت حيطان بيوتها البيضاء تشبه طوق الحمامة، وسهولها الخضراء المزركشة بالأزهار والورود كريش الطاووس، يقول(٥٨):

بلدٌ أعارَتْهُ الحمامةُ طوقَهـــا وكساهُ حلةَ ريشهِ الطـــاووسُ

ونجد عدداً من الصور الفنيّة الجميلة في وصف ابن حمديس الخيل التي أهديت إلى مبشر بن سليمان. ومن ذلك قوله مصوّراً تلك الخيول بالورد الأحمر في فصل الربيع، يقول(٥٩):

وَرْدٌ تَميَّعَ فيه عَنْدمُ حمـــرةٍ كالوردِ أهدي في الربيع لناشقِ

وقد برع ابن حمديس في تقديم صورة جميلة للخيل، معتمداً في ذلك على

(٥٦) الحميدي، جذوة المقتبس، ص٣٥٤.

(٥٧) ابن بسام، الذخيرة، ق٢، م١، ص٣٤٤.

(٥٨) شعر ابن اللبانة، ص٥٥.

(٥٩) ديوان بن حمديس، ص٣٣٠.

المزج بين الألوان المختلفة، فقد مزج بين اللونين الأحمر والأبيض، في وصفه وجه الحصان الأحمر وغرّته البيضاء، كأنّه الشفق وقد لاح فيه الضياء، وقد بدا فاه الحصان الأبيض كأنّه أثر قبلة طبعها الصبح على فاهِهِ، يقول(٦٠):

وكأنّه وكَأنَّ غُرَّةَ وجهِــــــهِ شَفَقٌ تَألَّقَ فيه مَطْلَعُ شــارقِ

وكأنَّ صبحاً خصَّ فاهُ بقبلــةٍ فابيضَّ موضعها لعين الرامقِ

ومن الصورة الجميلة التي تكشف عن تأثّر الشعراء بالبيئة الأندلسيّة عامّة وبيئة دانية والجزائر الشرقية خاصة، تصوير مجاذيف السفن البحرية والقوارب بأهداب العين، ويظهر ذلك في قول ابن اللبانة(٦١):

كأنّي قذى في مقلةٍ وهو ناظــــــــرٌ

بها والمجاذيفُ التي حولها هدبُ

ومن الصور الجميلة والتشبيهات البديعية تشبيه أصابع المحبوبة بالسيوف المخضّبة بالدماء، كما يظهر ذلك في القصيدة الجميلة لابن اللبانة التي جعل فيها صدر كل بيت غزلاً وعجزه مدحاً، يقول(٦٢):

وكأنَّ أنْمُلَها سيوفُ مبشــــرٍ وقد اكتستْ عِلْقَ النجيعِ الأحمرِ

ولقد استوحى بعض شعراء دانية والجزائر الشرقية صورهم من الاحتفالات البحرية والمهرجانات الاستعراضية التي كانوا يقيمونها في الأعياد والمناسبات الاجتماعية والعسكرية المختلفة.

ومن ذلك ما جاء من تصوير ابن اللبانة أمواج الماء المتطايرة بفعل حركة السفن والقوارب بالريش الذي يتطاير، حين يطير الغراب والطيور الأخرى، حيث يقول(٦٣):

طارتْ بنَاتُ الماءِ فيه وريشُهــا ريشُ الغرابِ وغير ذلك شَوْذَقُ

ثم يصوّر الشاعر الخليج وانطلاق كتيبة جند على شاطئه، في صورة يكمِّل

(٦٠) شعر ابن اللبانة، ص١٨.

(٦١) المصدر نفسه، ص٥٥.

(٦٢) المصدر نفسه، ص١٨.

(٦٣) المصدر نفسه، ص٧٢.

فيها الخليج الكتيبة، فكلاهما بحر متلاطم الأمواج، هذا متدفّق بجنده، وذاك بأمواجه، يقول(٦٤):

وعلى الخليج كتيبةٌ جـــرارةٌ   مثل الخليج كلاهما يتدفّـــقُ

ويصوّر الشاعر الجنود وهم يركبون هذه السفن البحرية، التي تشبه الخيول السريعة العدو، حيث تظهر هنا براعة الشاعر في الربط بين صورتين، إحداهما بحرية والأخرى برية، مستمدّة من المعارك البحرية، فهذه السفن تسير مسرعة في البحر، وقد اعتلاها فرسان الحروب سير الخيول في ساحة السباق أو الحرب، يقول ابن اللبانة(٦٥):

وبنو الحروب على الجواري التي   تجري كما تجري الجياد السُّبّـقُ

ثم يصوّرها الشاعر وهي تمخر عباب البحر بالإبل التي تقطع الفيافي في السراب، يقول(٦٦):

خاضتْ غديرَ الماءِ سابحةً بــــهِ   فكأنّما هي في سرابٍ أينُـــقُ

أمّا المجاذيف، فهي أهداب عين الرقيب المحدِّقة، أو هي أقلام كاتب الدولة، وهي تخطُّ كتاباً أو رسالة -كما يراها ابن اللبانة- من خلال هذا العرض العسكري(٦٧):

هزّتْ مجاذيفاً إليك كأنّهـــا   أهدابُ عينٍ للرقيب تحـــدِّقُ

وكأنّها أقلام كاتب دولـــةٍ   في عرضِ قرطاسٍ تخطُّ وتمشقُ

ويصوّر ابن اللبانة السفن في البحر بالشواهين، وهي تحوم فوق الماء، وهي صورة تعبّر عن قوة الشكيمة، كما يصوّرها وهي ترمي بالجنود الذين، يخرجون منها إلى البحر كالنساء الحوامل اللواتي يدفعن بمواليدهن، حيث يقول(٦٨):

لك المنشآت الجاريات كأنّهـــا   ضواري شواهين على الماءِ حُوَّمِ

أقامت عذارى بالعذارى حواملاً   ولم تر إلاّ أن تجيء بتـــوأمِ

---

(٦٤) المصدر نفسه، ص٧٢.

(٦٥) المصدر نفسه، ص٧٢.

(٦٦) المصدر نفسه، ص٧٢.

(٦٧) المصدر نفسه، ص٧٢.

(٦٨) المصدر نفسه ص٩٧.

تأثر شعراء دانية والجزائر الشرقية كغيرهم من الشعراء الأندلسيين ببيئتهم وطبيعتها الفاتنة، وانعكس هذا التأثر في اختيار الشعراء لأوزانهم الشعرية وبحور قصائدهم. ومال الشعراء في بعض الأغراض إلى البحور الشعرية الخفيفة، والبحور المجزوءة، التي تتناسب وطبيعة غرض القصيدة أو المقطوعة الشعرية.

ومن الأمثلة على استخدام الشعراء لهذه الأوزان الخفيفة، قول أبي جعفر بن أحمد الداني على مجزوء الرمل(٦٩):

جارَ ذا الدهرُ علينـــــا   وكذا الدَّهْرُ يجـــــورُ

ومن الأمثلة أيضاً قول صاعد البغدادي على البحر المتقارب(٧٠):

أتتني الخريطة والمركـــــب   كما اقترن السعدُ والكوكبُ

وقد أكثر الشعراء من استخدام البحور الخفيفة في حديثهم عن الموضوعات الاجتماعية والدينية المختلفة، ومن ذلك قول الحميدي مستخدماً البحر الوافر(٧١):

لقاءُ الناسِ ليسَ يفيدُ شيئاً   سوى الهذيان من قيلٍ وقالِ

وممّن استخدم الأوزان الخفيفة أبو محمد عبدالله بن عبد البر النمري، حيث نظم على مجزوء الكامل مستخدماً القافية الساكنة(٧٢):

لا تكثرنْ تأمّـــــــلاً   وأحبسْ عليكَ عنانَ طَرْفَكْ

فلربّما أرسلتـــــــهُ   فرماكَ في ميدانِ حتفـــكْ .

وقد استخدم ابن البني مجزوء الرمل، وهو من الأوزان الخفيفة، في قصيدة غزلية، حيث يقول(٧٣):

كيف لا يزدادُ قلبــــي   من جوى الشوق خُبـــالا

(٦٩) ابن سعيد، المغرب، ج٢، ص٤٠٤.

(٧٠) الحميدي، جذوة المقتبس، ص٢٥٤.

(٧١) ابن سعيد، المغرب، ج٢، ص٤٦٨.

(٧٢) المصدر نفسه، ج٢، ص٤٠٣.

(٧٣) ابن خاقان، طمع الأنفس، ص٢٧؛ ابن سعيد، المغرب، ج٢، ص٣٥٨؛ وانظر كذلك المقري: نفح الطيب، ج٦، ص٨.

ومن الأمثلة الأخرى على استخدام الأوزان الخفيفة قول ابن مقانا على البحر الخفيف في مدح مجاهد العامري(٧٤):

كأنّ الثريّا بها رايـــةٌ . يقود الموفقُ أبْطَالَهــــا

وعلى الرغم من استخدام الشعراء للأوزان الخفيفة والمجزوءة في بعض أغراضهم الشعرية، إلاّ أننا نجدهم يستخدمون البحور القويّة في بعض الأغراض الشعرية الأخرى، كالفخر والمدح والرثاء والوصف، فقد استخدموا البحر الطويل والكامل وغيرها من البحور.

ومن أمثلة ذلك قول ابن دراج في مدح إقبال الدولة، حيث استخدم البحر الطويل(٧٥):

ولمّا لحاني الدهر لحْو العصا ولم . أجدْ من بينه غيرَ من زادني وخزا

جعلتكَ لي حِصْناً ونبّهْتُ مقولا . جُرَازاً جُذاذاً لا كَهَاماً ولا كَــــزّاً

ومن الأمثلة الأخرى على هذه الأوزان قول ابن اللبانة في مدح ناصر الدولة مستخدماً البحر الكامل(٧٦):

ملك يروعك في حلى ريْعانِــهِ . راقتْ برونقه صفات زمانـــــهِ

وقوله أيضاً يمدح ناصر الدولة من قصيدة جاءت على البحر الكامل(٧٧):

وغمرت بالإحسان أُفقِ ميورقةٍ . وبنيتَ فيها ما بنى الاسكنــدر

وهناك أمثلة أخرى كثيرة استخدمت فيها مثل هذه الأوزان القوية التي تتناسب وطبيعة هذه الأغراض التي تتطلّب الجزالة في اختيار الألفاظ والمعاني.

لكن نجد بعض الشعراء لا يتقيّدون بالأوزان الخفيفة والمجزوءة، ليبنوا عليها شعر الغزل والوصف والخمرة وغيرها، إذ نجدهم يستخدمون الأوزان القوية في غزلهم، كاستخدامهم للبحر الطويل والكامل. ومن ذلك قول ابن البني(٧٨):

---

(٧٤) ابن بسام، الذخيرة، ق٣، م٢، ص٧٩٦.

(٧٥) ابن سعيد، المغرب، ج٢، ص٤٩٤.

(٧٦) شعر ابن اللبانة، ص٩٩.

(٧٧) المصدر نفسه، ص٤٧.

(٧٨) المقري، نفح الطيب، ج٥، ص٣٥.

غصبْتِ الثُّريا في البعادِ مكانَها   وأودعتِ في عينيَّ صادقَ نَوْئها

وفي كلِّ حالٍ لم تزالي بخيلةً   فكيفَ أعرتِ الشمس حُلَّةَ ضَوْئها

وعلى الرغم من ذلك، فإننا نجد أنّ الشعراء حتى في المدح والأغراض الأخرى التي تحتاج إلى الأوزان القوية، قد استخدموا الأوزان الخفيفة والمجزوءة، كما لاحظنا ذلك عند ابن مقانا في مدح مجاهد العامري(٧٩).

ويظهر ذلك في قول أبي العلاء صاعد البغدادي وهو يمدح مجاهداً العامري، وقد جاءت الأبيات على البحر المتقارب(٨٠):

مجاهدُ رُضْتَ إباءَ الشُّمُوسِ   فأصحبَ ما لم يَكُنْ يُصْحَبُ

---

(٧٩) ابن بسام، الذخيرة، ق٣ م٢، ص٧٩٦.

(٨٠) الحميدي، جذوة المقتبس، ص٣٥٤.

الباب الثاني

أدب الرسائل في دانية والجزائر الشرقية في القرن الخامس الهجري

الفصل الأول

اتجاهات أدب الرسائل وأغراضه

ازدهر أدب الرسائل في دانية والجزائر الشرقية ازدهاراً ملحوظاً، وحظي الكُتّاب بمنزلة رفيعة في ظل أمرائها؛ إذ كان هؤلاء الأمراء بحاجة إلى كتاب يساعدونهم في إدارة شؤون بلادهم ،لا تقل عن حاجاتهم إلى شعراء، يتغنون بشخصياتهم وينشرون فضائلهم بين الناس.

وقد ظهر عدد من الكتاب في إمارة دانية والجزائر الشرقية، وكانت لهم شهرة واسعة في الأندلس وكان في مقدمتهم أبو محمد بن الفقيه أبي عمر بن عبدالبر النمري، والكاتب أبو الإصبغ بن أرقم، وابن سيده، وأبو عبدالله محمد بن مسلم، وأحمد بن رشيق وغيرهم(١).

وقد استطاع هؤلاء الكتاب أن يشاركوا في التعبير عن مختلف مظاهر الحياة السياسية والاجتماعية وغيرها من المظاهر الطبيعية والحضارية.

أولاً: الاتجاه السياسي

- الخصومات والاضطرابات السياسية:

صورت الرسائل في دانية والجزائر الشرقية جانباً من الخصومات السياسية والمؤامرات التي كانت تحدث بين الأمراء والقادة، وأطماع كل منهم في مد سلطانه على حساب الآخر، وقد وصلت هذه الخصومات والمؤامرات السياسية إلى الأنباء والأخوة؛ إذ نراهم يتنازعون فيما بينهم على الحكم والقيادة.

ومن ذلك المؤامرة التي دبّرها حسن بن مجاهد العامري، ضد أخيه إقبال الدولة، وقد ساعده في ذلك المعتضد بن عباد أمير إشبيليّة، ولم يُكْتَب لهذه المؤامرة النجاح إذ انتهت بالفشل، وقد كتب أبو محمد بن عبدالبر رسالة على لسان إقبال الدولة إلى المنصور الصغير بن أبي عامر، يعلمه بهذه المؤامرة وما كان من غدر أخيه له وتآمره عليه، بمساعدة المعتضد بن عباد بعد أن كان قد أعطاه البيعة قبل ذلك، وأيّده في الحكم والولاية، حيث يقول مفتتحاً هذه الرسالة بالحديث عن البيعة والعهد

(١) سبق أن ترجم لهؤلاء الكتاب.

له بعد موت أبيه(٢): «وإنّ الموفق مولاي -رضي الله عنه- كان رمى إليّ بعهده، وقلّدني الأمر من بعده، وبايعني بذلك من كان في قبضة سلطانه، واشتمال ديوانه ولما اتفقت الآراء، ويئس الأعداء، مدّ أخي حسن ببيعتي يداً، وأظهر في طاعتي معتقداً...».

ثم يكشف له عن أدوار المؤامرة، إذ بدأ حسن بمساعدة المعتضد بن عباد بالتآمر على حياة أخيه، لانتزاع الحكم من يده، حيث يقول(٣): « فما آن لمداد عهده أن يجفّ، ولا حان ليد عاقده أن تنحرف، حتى داخل صاحب اشبيلية في الغدر والخلاف، فأنفذ إليه رجلاً يدعى سَلَمَةَ بين جنده ، ليتصرف على إرادته، فأجمعوا أيديهم والقضاء أملك، وأزمعوا كيدهم والقدر يضحك، توخّوا صدري من صلاة الجمعة، فوافوني قد انسربت في كَلّة الأمن، ونمت في حِجْر حسن الظن، فما استيقظت إلا لصفح صفائحهم تصلت عليّ ولا انتبهت إلا لضوء رماحهم تشرع إليّ..».

ثم يتحدث عن فشل هذه المؤامرة؛ لأن الله سبحانه وتعالى كان خير عون لإقبال الدولة في حمايته وحفظه من أيدي الغدر التي امتدت إليه، ويبين للمنصور نهاية هذه المؤامرة الفاشلة، فيقول(٤): «إلا أن الله كان بإزائي ظهيراً، وتلّقاني نصيرا، وبين يديّ رفداً، ومن ورائي مدداً ورِدءاً، فما كان إلا أن تساط فراشهم في مصابيح الفرج، وأُتعْسَت شبههم في موارد الثلج، وفزتُ، وقد انجلت الكرّةُ عليهم..».

وفي جزْء من هذه الرسالة يتحدث إقبال الدولة عن مكانة أخيه حسن في قلبه قبل هذه المؤامرة، فيصور مشاعره اتجاهه ومحبته له، في عبارات رقيقة جميلة، وصفت بدقة المشاعر الأخوية الصادقة، التي كان يكنها إقبال الدولة لأخيه، الذي اضمر له العداوة والخصام والحقد والحسد، فيقول(٥): «وأما حسن فمرّ مستمرئاً لما استمراه، مستمرًا لما استحلاه، قد عارض النعمة بحمدها، فسلبت عنه، وقارض

---

(٢) ابن بسام، الذخيرة، ق٣ م١، ص١٦٩.

(٣) المصدر نفسه، ق٣ م١، ص١٦٩.

(٤) المصدر نفسه، ق٣ م١، ص١٧٠.

(٥) المصدر نفسه، ٣ م١، ص١٧٠.

الحسنة بضدِّها، فانتزعت منه، على أنه كان بين الجفن والناظر نازلاً، وبين الضمير والخاطر جائلا، وقد قاسمته العيش نصفين، والحياة شطرين، له النوم ولي السُّهر، وله الأمن ولي الحذر، وله الصفو ولي الكدر، أشقى لينعم، وأُمْتهن ليُكْرمَ، إلى أن واصلَتْه الرفاهية فَمَلَّ، ونادمته النعمةُ فاعتلَّ، ومسَّه الخيرُ فمنع، وغرَّته الأماني فانخدع، حتى ذاق وبالَ أمرِهِ...».

وكان بعض الكتاب الأمراء يتبادلون الرسائل فيما بينهم عقب نجاحهم في احباط الفتن، واخماد الثورات المحلية التي كانت تشهدها إماراتهم، ومن ذلك المؤامرة(٦)، التي قادها اسماعيل بن المعتضد بن عباد ضد أبيه، حيث تغلب المعتضد على ابنه، فيكتب إلى حلفائه وأصدقائه، ومنهم علي بن مجاهد، رسائل يخبرهم بهذه المؤامرة، وقضائه على مدبريها، وقد ردّ علي بن مجاهد على ذلك برسالة جوابية بقلم ابن أرقم، يتحدث فيها عن هذه المؤامرة ويبدي أسفه لما حدث، ويعتبر ما قام به الابن نزوة شباب، وحادثة بسيطة، لا يمكن لها أن تؤثر في البلاد والرعية، ولن يكن لها أثر يذكر، حيث يقول(٧): «وافتني -أيدك الله- مساهمتك الكريمة، ومشاركتك السليمة، الصادرة عن الصدر السليم، المقتضية للحمد والشكر العميم، وقد كان سبق كتاب قبلُ بما لزمني في الحادثة الأولى، فقلت: حسامٌ دلق، وسنانٌ زلق، وشبابٌ عصفٌ وجوادٌ جَمَح فأسرف...».

ثم يتحدث ابن أرقم على لسان إقبال الدولة عن هذه الحادثة، حيث يحاول أن يخفف من وطأتها، ويقلل من شأنها، فلها ما يشبهها في التاريخ الإسلامي، فقد عرف الناس عدداً من المؤامرات في العصرين الأموي والعباسي، فيقول(٨): «وفي الأيام والليالي معتبر، وإنها لكما ذكرت ووصفت -عقيمة معجبة وعنقاء مغربة، وما شُهِدَتْ لها أخت إلا من أحد الفرس، وأخرى من بني العباس، كما ذكرت، وقديماً استغوى الشيطان، وكان للمرء سلطان والزمان بمثلها جواد، ولإطلاع الغرائب معتاد، وقد أُوتي صاحبُ الخضرِ على علمك من أقرب الولد رحماً، وأضعفهم نفساً وجسماً،

---

(٦) انظر خبر هذه المؤامرة في: ابن بسام، الذخيرة ق٣ م١، ص١٤٣.

(٧) ابن بسام، الذخيرة، ق٣ م١، ص.١٥٠.

(٨) المصدر نفسه، ق٣ م١، ص١٥١.

ومن سوق بني أمية وغيرهم الجمّاء الغفير والعدد الكثير...».

ثم يشير صاحب الرسالة إلى أن هذا الابن الذي حاك المؤامرة ضد أبيه، إنما هو قاتل نفسه، مُلْق بها إلى التهلكة، ولم يعلم عاقبة أمره ومنقلبها، والنهاية التي تنتظره، ثم يبين صاحب الرسالة أن أصحاب السّوء لهم دور كبير في ايقاعه وهلاكه، فيقول(٩): «وكثيراً ما شهدنا وسمعنا بقاتل نفسه، وهي أكرم النفوس عليه، وآكل جسمه وهو أحبُّ الجسوم إليه، وقد يفيضُ الداءُ من الدواء، ويشرقُ المرءُ بالماء، ويُؤْتَى الحَذِرُ من مأمنه، ويجتنى القبيحُ من حُسْنِه، والأدواءُ تثور في الولد كما تثورُ في الجسد، وتتولد في القلب والكبد، وقرناء السوء يكدِّرون الأصفياء، كما يكدِّر المشربَ العذبَ الدِّلاءُ، وما ندري يا سيدي إلا أنك أردت إقالته والله قد عثره...».

وقد صورت الرسائل في دانية الانتصارات المزعومة، التي حققها بعض أمراء الطوائف في معاركهم ضد إخوانهم، إذ نجد بعض الرسائل التي يتبادلها الأمراء في التهنئة بهذه الانتصارات.

ومن هذه الرسائل تلك التي كتبها أبو محمد بن عبدالبر على لسان مجاهد العامري، يهنيء فيها المعتضد بن عباد عند استعادته حصن شِلْب من الاعداء، ويعبر له عن فرحته بهذا الانتصار، ويصف النعمة العظيمة التي تحققت باستعادة هذا الحصن، وخروج الأعداء منه، يقول ابن عبد البر(١٠): «كتابي -أعزك الله- عن حال قد أظَلَّ جناحُها، وآمال قد أسفر صباحُها، ويد قد أورى زَنْدُها، ونفس قد انتجز وعدها، أعزز به من صنع جميل، صنعَ الله لك بحصول قاعدة شِلْب وذواتها في قبضتك واستظلال ذلك الأفق بظلِّ طاعتك، وخروج صاحبها عنها من غير عقد عاصم، ولا عهد لازم، قد خابَ ظنه في التماسك، وأخلفه أملهُ في التهالك...».

ثم يتحدث الكاتب عن النعمة العظيمة التي تحققت للمعتضد بهذا الانتصار، فقد ظهر جمال هذه النعمة وحسنها ولطفها، وكان أثرها طيباً لنا جميعاً، يقول(١١): «فأي نعمة ما أجَلَّها وأجزلها، وأيُّ مِنّة ما أتمها وأجملها، على حين تضاعف حسن موقعها، وبان

---

(٩) المصدر نفسه، ق٢ م١، ص١٥١.

(١٠) ابن بسام، الذخيرة، ق٣ م١، ص١٢٩.

(١١) المصدر نفسه، ق٣ م١، ص١٢٩.

لطف محلها وموضعها، ولاحت عنواناً في صحيفة مساعينا، وبرهاناً على تأتي أراجينا...».

ويختتم الكاتب الرسالة بحمد الله وشكره على هذه النعمة، والدعاء لله بأن يتبعها بما شاكلها وماثلها من النعم، مؤكداً أن سروره في الحياة مستمد من سرورك وسعادتك وفرحتك، حيث يتحدث بذلك على لسان مجاهد العامري، فيقول الكاتب(١٢): «فالحمد لله على ما منَّ به وأحسن، حمداً يوافي الحق ويقضيه، ويحتوي على المزيد ويقتضيه، وهو المسؤول أن يتبعه بأشكاله، ويشفعه بأمثاله فظهوري منوط بظهورك، وسروري موصول بسرورك...».

ومن هذه الرسائل أيضاً رسالة كتبها أبو العلاء صاعد بن الحسن البغدادي إلى مجاهد العامري، يصف فيها ظهوره وانتصاره على خيران العامري أمير المرية، وأسره لجماعة من الصقالبة، وقد افتتح الكاتب رسالته هذه بالإعراب عن فرحته واستبشاره بما سمع من أنباء النصر الذي سارت به الركُبان في الأندلس، حيث يقول(١٣): «كتابي وأنا مستطار فرحاً، ومستوفزٌ مَرَحاً، بالغادي والرائح عليّ من البشائر التي تُسْمعُ الصُّمّ، وتُنْطِق البُكم بعدوٌ نجا بعد ما ظَنَّ أن ليَس ناجياً، وخُنْزُواني(١٤) أقبل في صِفاده عانياً، صنعاً من الله أسأله ضارعاً أن يجعله عندك راسياً، وعليكَ مخيماً، فإن الذي أوي إليه من تطوٌ لك يبدي ولوعاً ويغري بالنزاعِ إليك، والنزوع عنك».

ومن الرسائل التي سجلت الانتصارات التي أحرزها إقبال الدولة على أمراء الطوائف رسالة أبي عبدالله بن مسلم التي سماها (طي المراحل) وقد كان الكاتب سفيراً عن إقبال الدولة إلى عدد من أمراء الطوائف، لنشر قصة نزاعه مع المقتدر ابن هود، واستيلائه على أحد الحصون، حيث يقول الكاتب(١٥): «لما صفا الحصن الفلاني إلى مَنْ أيدَّه الله أجلب عليه المقتدر بخيله ورَجْله، وأحدقَ حوله بضبطه ومنعه، حتى صار كالسماء ملئت حرساً شديداً وشهباً» ثم يتحدث الكاتب عن دعوة

---

(١٢) ابن بسام: الذخيرة ق٣ م١، ص١٢٩.

(١٣) المصدر نفسه، ق٤ م١، ص١١.

١٤) الخنزواني: الصلف المتكبِّر (انظر: لسان العرب: مادة خنز).

(١٥) ابن بسام، الذخيرة، ق٣ م١، س٤٢٩.

إقبال الدولة إخوانه وحلفاءه لنصرته، لاسترداد الحصن، ويصف تخاذلهم عن ذلك فيقول[١٦]: «فدعا إقبال الدولة إخوانه لانجاده، ونادى حفاءه لإمداده، فاستغشوا بأردانهم، وجعلوا أصابعهم في آذانهم...». ثم يتحدث الكاتب عن بطولة إقبال الدولة وجنده في استعاده الحصن دون قتال أو مواجهة، مشيراً إلى ما لقي أهل الحسن من ضيق وجوع وهلاك، فيقول[١٧]: «والحصن في أثناء ذلك قد اشتد وثاقه، وضاق خناقه، حتى أيقن أهلُهُ بالهلكة، وكادوا يلقون بأيديهم إلى التهلكة، فلما رأى أنه ربما أودى العليل، قبل أن يوتى الشفاء، ويهلك المريض قبل أن يركّب الدواء، وعلم أن الليث لا يقتبس إلا زنده، ولا يفترسُ إلا وحْدهُ وفي كفِّه أنصاره، وفي شِدْقه شَفْرته وناره، أقام للزحف أعلامه وجعل الحزم أمامه، فَنُصِرَ بالرعب، وَفَرَّ عدّوه قبل الحرب».

وصف النكبات والدعوة إلى وحدة الصف

لقد أثارت المصائب والمحن التي حلت بالمسلمين بالأندلس حكام دانية والجزائر الشرقية، ونبهتهم إلى الخطر الكامن وراء تلك الفتن والخصومات السياسية، فقد دفعهم حرصهم على مصلحة الأمة إلى تكليف كتابهم بكتابة رسائل إلى الأمراء المسلمين في الأندلس وخارجها، في الدعوة إلى وحدة الصف لمواجهة الخطر الصليبي الداهم، الذي يهدف إلى القضاء على الإسلام والمسلمين في الأندلس، ومن الأمثلة على ذلك ما كتبه ابن أرقم على لسان علي بن مجاهد إلى المعز بن باديس صاحب افريقية، يصف فها المحن والنكبات التي حلت بالمسلمين في الأندلس، ويشخص أسباب الشر التي جلبت هذه المصائب والمحن على الأندلسيين، فهي تتمثل في سير الحكام الأندلسيين في طريق الفتنة، وانشغالهم بها عن مواجهة الخطر الصليبي، ويوجّه إليهم نقداً شديداً، لاستعانتهم بالنصارى ضد اخوانهم في الدين، وبين ما جرّه ذلك على المسلمين من مصائب ومحن، فيقول هذا الكاتب[١٨]: «ومما وجب التعريف به ما

---

(١٦) المصدر نفسه، ق٣ م١، ص٤٢٩.

(١٧) المصدر نفسه، ق٣ م١، ص٤٢٩.

(١٨) ابن بسام، الذخيرة، ق٣ م١، ص٣٦٣.

عمّ أقطار ثغرنا، وغشي مجامعَ أفقنا من تمالؤ النصارى وتضافرهم من كلّ أوب إلينا، بجمع لا عهد بمثله، ملأ الفضاء، وطبّق الأرجاء، وشغلنا بالفتنة بيننا عن تخفيف وطأتهم وتضعيف سَوْرَتهم، فطمسوا الآثار وجاسوا خلال الديار، موفورين لا مانع منهم، ولا دافع لهم إلا التفافة الله تعالى لأهل دينة، بأن أقلّ فائدتهم، وخيّب مرامهم، وأطاش سهامهم...».

وفي الرسالة نفسها يوجه الكاتب نداء إلى المسلمين بضرورة الوحدة والتعاون ونبذ الفرقة، وتوحيد الجهد لمواجهة الخطر الصليبي اعداء الدين، حيث يبين فوائد كل هذا فيقول(١٩): «إذا كانت نعمُ الله عند الحضرة الإسلامية مشرقة المطالع، رحيبة الأرجاء والمراتع، وكان أنصارها وعبيدها وكتائبها المنصورة، وجنودها المرهوبة في اجتماع من كلمتهم على طاعتها، واتفاقٍ من أهوائهم في مناصحتها، وتضافر من جميعهم على خدمتها، فقد علت يد الإسلام، واحتمى عزّهُ أن يضام، وجانبه أن يرام...».

كذلك نجد مَن يصف المحن والنكبات العامة التي حلت بالأندلس، وعلى رأس هذه النكبات الفتنة البربرية في قرطبة، التي تركت أثراً كبيراً في نفوس بعض كتاب دانية والجزائر الشرقية في هذا العهد، فقد رثى الكاتب أبو عبدالله بن مسلم في رسالته (طي المراحل) قرطبة بعد هذه الفتنة، وندب عهودها الذهبية، فقد زارها هذا الكاتب، وقد امّحتْ رسومها، وطمست أعلامها، وذهب أهلها، وغيّرها البلى، واصبحت خرائب مهجورة، وقبوراً دارسة، فيقول(٢٠): «فلما أديت الرسالة، جعلت أسلك في منازة المدينة، وأنظر من تلك المشابه المبينة، فإذا برسومها قائمة الأعلام ووقفت بالقصر المرواني، وطفت على المصنع القحطاني، وانتبذت إلى المنزه العبدي الرحماني، فإذا الثلاثُ الأثافي، والديار البلاقع، فأخذت بالسنة في ديار ثمود، أسكب الدموع وأمّجدُ المعبود، فقال قريبنا، هنا كانت قصورهم، وهنالك هي قبورهم قد صارت مفاصلهم تراباً، ومساكنهم يباباً، وقد عادوا يسكنون القبور، وكانوا يستهجنون القصور... فقلت أين من كان هنا من القيول الأبية، والملوك الأموية، ذوي

---

(١٩) المصدر نفسه، ق٣ م١، ص٣٦٣.

(٢٠) ابن بسام، الذخيرة ق٣ م١، ص٤٤١-٤٤٢.

التيجان المنظومة بالمرجان..».

ثم يتحدث الكاتب في حسرة وألم عن معالم المجالس التي شهدت لهو القوم وشرابهم، ويتخيل صورة هذه المجالس وما فيها من جوار قبل أن تصبح رسوماً دارسة، ويتوقف عند الجواري، وهو يرسم لهنّ صورة متخيلة قبل حلول الفتنة. فهنّ كنّ كالغصون اعتدالاً أو كالظباء جمالاً، أما الآن فليس لهذا الجمال أثر، فقد أصبحت هذه الأجسام تراباً(٢١): «واين أسراب تلك الجواري الكنس، في مروط السندس، كأنها ما استعارت من الكثبان أكفالا، ولا من الأغصان اعتدالا، ولا من الروض أردانا، ولا من الظباء أجفانا.... والآن قد كحلت تلك العيون بالتراب، وكان كحلها كَحَلا، ولصقت تلك الخدود بالكثبان، وكان تقبيلها أملا...».

ونلاحظ أن الأسى والحزن ينبع في رسالة ابن مسلم من المفارقة الشديدة بين الصورتين اللتين رسمهما الكاتب لمدينة قرطبة وأهلها، أولهما: صورة قرطبة الحاضرة بوجهها القاتم ومصابها الجلل، وما انطوت عليه من خراب ودمار وموت، وثانيهما: صورة قرطبة الماضية بوجهها الزاهي المشرق، وما انطوى عليه من لهو وترف وأنس وسعادة(٢٢).

ونلاحظ أيضاً أن ملامح صورة قرطبة بعد انهيار الخلافة الأموية التي قدمها الكاتب هنا، لا تختلف عن تلك الملامح التي رسمها الشعراء لقرطبة عقب الفتنة البربرية(٢٣).

---

(٢١) المصدر نفسه، ق٣ م١، ص٤٤٢.

(٢٢) انظر: احسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي، عصر سيادة قرطبة، ص٣٠١.

(٢٣) انظر: عمر الدقاق، ملامح الشعر الأندلسي، دار الشرق، بيروت، ١٩٧٥، ص٢٧٣-٢٧٨.

اهتم الكتّاب في دانية والجزائر الشرقية بمعالجة جوانب الحياة الاجتماعية في هذا العصر، فكتبوا في المناسبات الاجتماعية المختلفة من تهنئة وتعزية وفرح وحزن وغيرها. وكانت هذه الرسائل التي تعالج مظاهر الحياة الاجتماعية على نوعين: رسائل خاصة أو ذاتية، يتبادلها. الكتاب فيما بينهم، ورسائل ذات بعد شبه رسمي يتبادلها الكتاب مع الأمراء أو الأمراء مع الأمراء فيما بينهم.

ومن الرسائل ذات البعد شبه الرسمي التي كان يتبادلها الأمراء مع بعضهم البعض، تلك الرسالة التي بعثها إقبال الدولة إلى المعتصم بن صمادح، حيث يمدح فيها المعتصم ويتحدث عن شمائله، من كرم، ووقار وهيبة وتواضع وسيادة، وغيرها من الصفات التي يتميز بها هذا الأمير في إمارته، والرسالة من انشاء أبي عبدالله محمد بن خلصة الشذوني، الذي يقول فيها[٢٤]: «ومما ضَرحَ القذاة من شرْبي، واستنزح الأذاة عن سِرْبي، وزوى رَوْعَة روعي، وروّى بماء الثقة عودي، حتى رسَخَتْ في أرضها أصولي، ورفّت فروعي، ما حلاّك به من عميم الفضائل، وكريم الشمائل، فأقرُّ صحةَ ما بلاه منك في فؤادي، وأشربهُ ذاتي، فوحياتك التي بها حياة الكرم، لقد اسمعوا من لطائف البر، وأودعوا من غرائب الثناء والحر، ونشروا من كرم الخلال، مع ركانة الوْقار ومهابة الحال، وإعظام الجليس، والتزام التواضع والتأنيس، بعد توفيه الرياسة حَقَّها، وتقضية السيادة أجَلَّ واجباتها وأدقها».

ثم يتحدث الكاتب على لسان إقبال الدولة عن الفرحة العظيمة، هو يستمع إلى أخبار المعتصم في دولته، وما ينعم به من استقرار وأمن مع وزرائه وأركان دولته، وهي إشارة إلى مدى التواصل والمحبة، والعلاقة الحميمة بين إقبال الدولة والمعتصم، فيقول الكاتب[٢٥]: «ثمَّ استوصفتهم التذاذاً بطيب أنبائك، صورة مَجْلِسك مع وزرائك، وأحبائك، فأوردوا من ذلك ما هو أشهى من السعادة، وأحلى من الحياة المعادة، وأسبى

(٢٤) ابن بسام، الذخيرة، ق٣ م١، ص٣٢٢-٣٢٣.

(٢٥) المصدر نفسه، ق٣ م١، ص٣٢٣.

للنفوس من مراضِ الحدق، وأجلى للشكوك من غُرَّة الفَلَقِ، فطارت بين هزة الشوق كلُّ مطير، وأصارتني غرَّة الفرح بين روضةٍ غنَّاء، وواد مطير وقلت: الحمد لله قد وُفِّقْتُ أمري، وقام عند العواذل عذري، وسطع شهاب حجتي بأن خلعت عليه نفسي، وأودعتُ يديه مهجتي..».

وتستمر الرسالة على هذا الشكل، فيذكر الكاتب مزيداً من الصفات والشمائل التي تميز بها المعتصم، ثم يختتمها بمقطوعات شعرية من إنشاء الكاتب، يمدح بها هذا الأمير(٢٦).

وقد كان الرثاء والتعازي من الموضوعات التي تناولها الكتاب في رسائلهم هذه، فعبروا في ذلك عن احساس صادق بالمصاب، وصوروا لواعج نفوسهم المتصدعة الحزينة بوقع الفجيعة أو المصيبة تصويراً مؤثراً، وقد جمعت رسائل الرثاء والتعزية التي كتبها الكتاب على ألسنة الأمراء بين المديح والرثاء.

ومن هذه الرسائل رسالة أبي محمد بن عبدالبر عن علي بن مجاهد العامري إلى المنصور بن أبي عامر الأصغر في التعزية بوفاة أحد أبنائه، وقد حاول الكاتب في هذه الرسالة أن يخفف من وقع المصيبة، ويقوي من العزيمة، فالمنصور من أعلم الناس بتغير الأحوال وتقلب الأيام، ولا يكون الأجر لا بالصبر وتحمل الآلام والشدائد، حيث يقول(٢٧): «لو استغنى -أعزك الله بالصبر، وأيّدك بالنصر- أحَدٌ عن التعزية واكتفى مصابٌ عن التسلية، لأصالة رأي، وسَعَةِ علمٍ، وجلالة قَدْر، و جزالة نفس وشدة كظم، لكنتَ أنت الغنيُّ عن ذلك، لإحاطة علمك بتقلب الأيام، وتصرف الأحوال، وارتفاع قَدْرِكَ عن أنْ يملأ الزمان صدرك».

ثم يحاول الكاتب أن يخفف عن المنصور بن أبي عامر، ويدعوه إلى الصبر احتساباً للأجر عند الله عز وجل، حيث يقول(٢٨): «ولئن جَلَّ الخطب، وعَظُم الكَرْبُ، فالثوابُ بقدر المصاب، والعطيّة بحسب الرزيّة، وإنما الأجر بالصبر، والجزاءُ مع

---

(٢٦) انظر الرسالة كاملة في المصدر السابق، ق٣ م١، ص٢٢٢-٢٢٣.

(٢٧) المصدر نفسه، ق٣ م١، ص٢٢١.

(٢٨) المصدر نفسه، ق٣ م١، ص٢٢٢.

العزاء، وإن كان اللهُ قد أخذ ابناً فقد ترك أبناءً، وإن كان قد سلب نعمة، فقد وهب نعماء...»

ومن رسائل التعزية والرثاء تلك الرسالة التي كتبها أبو عبدالله بن مسلم إلي المظفر يعزيه بوفاة خاله المنصور حيث يقول فيها(٢٩): «يا مولاي وسيدي المنعم، ومن لا زالت وجوه الكوارث عنه مصدودة، وأيدي الحوادث دونه مسدودة، بقاء المرء -أيدك الله- لفناء أسلافه، ونماء أخلافه كراهة للأدب، وسعادةٌ للعقب، فما للإنسان يكون هلوعاً، إذا مسّه الخير منوعا، وإذا مسّه الشرُّ جزوعا».

ثم يتحدث الكاتب عن صفات المنصور، فقد كان بحكمته محمود الصفات، سيداً، في قومه معروفاً بحكمته، فقد قوّى دعائم دولته، وأقام سنة نبيّه، وحمى الأمة ودافع عنها، يقول(٣٠): «وإن كان المنصور مات فقيداً، فقد عاش حميداً، أو أمسى ملحوداً فطالما أصبح معموداً، لبث في أهله سنيناً، وأقام في سلطانه مكيناً، بين شفاء نفس واستيفاء أنس، وتوطيد دولة وإقامة سنة، وحماية أمة، حتى كَمُلَ جَدُّهُ، وأتاه بالموت وعدُه..».

وكثيراً ما كان الكتاب يمزجون في رسائل الرثاء والتعازي بين رثاء المتوفي ومدح أهله، فيكتب الكاتب الرسالة فيمزج بين صفات الممدوح ومحاسن المرثي، فابن عبدالبر يكتب رسالة عن علي بن مجاهد إلى المظفر بن الأفطس، يعلمه فيها بوفاة والده مجاهد العامري، ويصف مصاب الناس به، وخاصة الأدباء والعلماء وأصحاب الرأي والمشورة، فالرسالة تتحدث عن الفقيد وصفاته من جهة، وعن المخاطب وخصاله من جهة أخرى، فإذا مات مجاهد، فإن وجود المظفرّ يخفف من هول المصيبة، بصفاته الحميدة وخصاله الكريمة، التي هي امتداد لما اتصف به مجاهد العامري في حياته، يقول(٣١): «وما أشُكُّ في ما ذكرتَ من أخذك معي بالنصيب والأوفَرِ والقسط الأكبر من المصاب بفقد الموفق مولاي ومعظِّمُك، كان -لقّاه اللهُ رضوانه وألحفهَ عَفْوَه

---

(٢٩) المصدر نفسه، ق٣ م١، ص٤٣٩-٤٤٠.

(٣٠) المصدر نفسه، ق٣ م١، ص٤٤٠.

(٣١) المصدر نفسه، ق٢ م١، ص١٧١.

وغفرانه- فقد كان إذا عُدَّ الأفاضل لا يثني خِنْصَرَهُ إلا عليك، وإذا ذُكِرَ الرؤساء لم يُشِرْ بتصحيح الوفاءِ إلا إليك، فنحن لا نستوحش بفقدِ فاضلٍ وذاتُهُ موجودةٌ، ولا نرتاعُ لموتِ جليلٍ، وحياتُهُ محدودةٌ، فإنك إذا قال قائلٌ منّا، كَسَدَتْ لوفاة الموفق -سوقُ الأدبِ- وبارتْ بضاعة الطلب، وهوى نجم العلم، وكبا زَنْدُ الفهم، وعفا رسمُ الحلم، وطُفِيءَ سِرَاجُ الرأي استثنى بك المجيبُ، وعُزِّيَ بمكانك المصيب، وأطبق الإجماعُ، أنك جماعُ الفضائل ونظامها، وفي يديك لواؤُها وزمامها».

ومن الرسائل الأخرى التي كان يتبادلها الأمراء لتوثيق العلاقات الشخصية بينهم، وللتعبير عن معاني الوفاء والود التي تربط بينهم تلك الرسالة التي بعثها إقبال الدولة إلى صهره المنصور بن أبي عامر، وهي من انشاء ابن أرقم، حيث يؤكد الكاتب على لسان إقبال الدولة مكانة المنصور لديه، وصفاء معدنه وكرمه، وطيب شمائله التي لأجلها اختاره ليكون صهراً له، حيث يؤكد مبادلته الودَّ والحبَّ والوفاء والصفاء، يقول(٣٢): «من اختار-أيدك الله- لخلتّه أزكى المعادن، واعتمد لمِقَتِهِ أسنى المواطن، كان جديراً أن يغتبط بجناها، ويرتبط بفوز عقباها، ويعلمَ أنها على الأيام، صقيلة الارجاء لا يصدئها الإهمال، صَدْقَةُ المضارب لا يفلُّها الإعمال، وأنت الذي لا يداني شرفه، ولا يُسَامي سَلَفُه، ولا تجارى أعراقُهُ، ولا يبارى إعراقه، فمن ظَفِرَ بصفاتك عماداً، وبوفائك عتاداً، فقد أصْمَى سهمه وقرطس».

ومن هذا اللون من الرسائل أيضاً رسالة لابن عبدالبر إلى المظفر بن الأفطس عن علي بن مجاهد، يتحدث فيها عما يجمع بينهما من دوام العهد واستمرار الود والوفاء، ولا سيّما إنهما متشابهان في كثير من الظروف المحيطة بهما، يقول(٣٣): « إذا تشاكلت -أيدك الله- الأحوالُ والضروب، تقاربت الأهواءُ والقلوبُ، وقد قيل: الشكولُ أقاربُ والمذاهب مناسبُ... وما تشتت لنا، بحمد الله شَمْلٌ، ولا انقطع بنا حَبْلٌ... وقد نظمتنا من الأحوال المشاكلة والأسباب الواشجة، ما كلانا له مُرَاعٍ، وإلى قضاءِ الحقِّ فيه وحفظ الحظ منه ساعٍ، والله يصلُ ما بيننا بالدوام والثبات،

---

(٣٢) المصدر نفسه، ق٣م١، ص١٦٥-١٦٦.

(٣٣) المصدر نفسه، ق٣م١، ص١٦٦.

ويحرسه من الانصِرَام والانبتات».

ومن هذه الرسائل أيضاً رسالة كتبها أبو محمد بن عبدالبر عن علي بن مجاهد، حين زُفَّت ابنته إلى محمد معز الدولة بن صمادح، حيث يتحدث عن هذه الهدية الكريمة التي أهديت، محفوظة بالرعاية والمكارم، ثم يوصيه بابنته خيراً، لتلقى الرعاية والتقدير منه وهو الصهر الجديد، فيقول(٣٤): « قد انتظمنا – أيّدك الله – انتظام السلك، وضرحنا من مشارب الحال الجامعة لنا قذاة كلّ شكٍّ وإفك، وظهر الحق المبين من المَيْن، وتبيَّن الصبح لذي عينين، وأُنفذت الهديّة المقتضاة، محفوفة بالحرم والمحارم، مكنوفة بالكرائم، ثُمّ بالأعلام الأكارم، وأناأسأل الله في متوجهها، ومُنقلبها الرعاية الموصولة بك، والكفاية المعهودة منك، حتى يفيء عليها ظلُّك، ويبوِّئُها مثوى الحفاية مَحَلُّك ...فهي الآن مِلكك، وأنت الكريم المسجح...»

وقد تحدّث الكاتب على لسان إقبال الدولة عن حزنه الشديد على فراق ابنته، غير أنّه سعيد مطمئن على مستقبلها، إذ هي سوف تعيش في ظلّ رجل شجاع، ينتسب إلى أسرة رفيعة ذات مجد تليد، فيقول(٣٥): «وعندك ثمرة النفس، وفلذة الكبد، فارقتها عن شدّة وضنانة، وأسلمتها بعد طول صيانة، وما زُفَّت إلا إلى كريم، يحملها محمل الأمانة، ويقضي منها حقّ الديانة، ويرعى لها انقطاعها عن أهلها، واغترابها عن ملأها ومنشأها.»

وقد أرسل علي بن مجاهد رسالة أخرى بقلم ابن عبدالبر إلى صهره معز الدولة بن صمادح، تتعلّق بهذا الزواج، حيث يتحدّث فيها عن شعوره بالحزن لفراق ابنته، ويكشف فيها عن دخيلة نفسه، وكيف أنّ هذا الزواج قد أزال الكلفة بينهما، إذ أصبح ابن صمادح جزءاً منه، ومتمماً لأسرته، يقول في هذه الرسالة التي تعبِّر عن كثير من معاني السرور والاستبشار(٣٦): «وقد توغّلت معك في أسباب الألفة، وهتكتُ بيني وبينك ستارَ المراقبة والكلفة، فأنا أستريح إليك بخفيات سرِّي، وأجلو عليك

---

(٣٤) المصدر نفسه، ق٣ م١، ص١٢٧..

(٣٥) المصدر نفسه، ق٣ م١، ص١٢٧-١٢٨.

(٣٦) المصدر نفسه، ق٣ م١، ص١٣٠-١٣١.

بنيّات صدري، خروجاً إليك مما عندي، وجرياً معك على ما يقتضيه اخلاص ودي... وَيُتَصَوَّرُ لي أن قطعةً مني، باتتْ منفصلة عني، وأن جزءاً من أجزائي ذهب، بصبري وعزائي، حتى إذا تفكرت في خروجها إليك، وانت مَنْ أنت، تراجعت وتماسكت».

ومن الرسائل الإخوانية ما كان يكتبها الكتاب على لسان الأمراء في وصف العلماء والأدباء، والاشادة بمكانتهم العلمية والأدبية، ومن الأمثلة على ذلك رسالة كتبها أبو محمد بن عبدالبر على لسان مجاهد العامري إلى المظفر بن الأفطس، يمدح فيها العالم الفقيه أبا الوليد الباجي ويصف شمائله وصفاته ومكانته العلمية في المشرق والمغرب، يقول[٣٧]: «والفقيه الحافظ أبو الوليد الباجيُّ غَذيُّ نعمتك، ونشأةُ دولتك ،هو من آحاد عصره في علمه، وأفرادِ دهره في فهمه، وما حصل أحدٌ من علماء الأندلس. متفقهاً على مثل حَظِّهِ وقسمه، وقد تقدم له بالمشرق صَيتٌ وذكر، وحصل بجزيزتنا، ولك فيه جمال وفخر، فإنَّه إليك تنعطفُ أسبابه، وعليك تلتقي وتلتفُ آرابه، لكن شددتُ عليه يدي، وجعلته عَلَمَ بلدي، يشاور في الأحكام، ويُهتْدي إليه في الحلال والحرام، فقد ساهمتُك به، وشاركتك فيه، كما تساهمنا وتشاركنا في الأموار السلطانية والأمور الدنياوية».

وتشير هذه الرسالة إشارة واضحة إلى اهتمام مجاهد العامري بالعلماء والفقهاء والأدباء في دولته، واعطائهم المكانة التي يستحقونها. كما أنها تشير إلى مشاركة الفقهاء، ومنهم هذا الفقيه بشؤون الحكم والقضاء، ومساعدة الأمراء والولاة في تصريف أمور الدولة واصدار الأحكام.

---

(٣٧) المصدر نفسه، ق٢ م١، ص٩٧.

وصف الكتّاب في دانية والجزائر الشرقية مظاهر الطبيعة الصائتة (الحية) ومظاهر الطبيعة الصامتة، كذلك وصفوا بعض المظاهر الطبيعية والصناعية كالمساجد وغيرها. فوصف الكتّاب بعض مظاهر الطبيعة الصائتة، كالخيول، حيث نجد هذا الوصف، في رسالة بعثها مجاهد العامري إلى مقاتل العامري من إنشاء ابن أرقم، وهي في وصف مهر، أهداه مقاتل العامري لمجاهد، حيث يبدأ الكاتب رسالته هذه بالإخبار عن وصول هذا المهر، ثم يتحدث عن صفات هذا المهر، ويمزج الكاتب بين صفات الطبيعة الصامتة بمظاهرها المختلفة، وبين صفات هذا المهر الجميل، فهو في لونه يشبه الورد جمالاً وحسناً، ويشبه الذهب تلألؤاً وصفاءً والقمر إشراقاً وبهاءً، ويشبه الفجر بغرته، وقد أخذ من الظلام سواده، فجمع هذا المهر الصفات هذه ليبدو جميلاً في منظره وشكله وحركته وسرعته، يقول الكاتب[38]: «وَصَلَ -أيّدك الله- البرُّ المولى على الأرب، وأتى الوَرْدُ المحلى بالذهب يَسْبَحُ في حَلْيه، ويمرحُ في محاسن زيّه، فقمتُ أمسحُ بردائي على وجهه وأطرافه، وأخذتُ ناظراً في نعوته، وأوصافه، فإذا بالقمر قد أعطاه غرَّته، والصباح قد حباهُ بُلْجَتَهَ، والغَلَس قد كساه دُلْجَتَه، فجمع بين دهمة الليل وشقره الشفق، ووضع فلقة القمر على صهوة الغَسَق، ومدَّ جلال الزلفة إلى حجلة الفلق».

ثم يتحدث الكاتب عن سرعة هذا المهر، فهو يسابق الريح، بل إنَّ الريح أصبحت أجنحة له، وهو مهر أصيل رفيع النسب، فيقول[39]: «وأردت إفعاله فإذا الرياح قد أنْعَلَتْهُ أجنحةً، وتفقدت جلاله فإذا الفراهة قد ألحفتْهُ أوشحة، فلو عزي إلى الأعوج لأنف، أو نميّ إلى العصا لوَجَفَ، ولو كان من خيل سليمان، لما عَدَل بالصامتات العتاق، ولا طفق لها مسحاً بالسوق والأعناق».

واتخذ الكاتب وصف هذا المهر وسيلة لمدح الأمير والثناء عليه، حيث ربط بين

---

(٣٨) ابن بسام، الذخيرة ق٣ م١، ص٣٦٥..

(٣٩) المصدر نفسه، ق٣ م١، ص٣٦٥.

صفات المهر وصفات مقاتل العامري، وجعل هذا المهر يستعير صفاته من صفات مقاتل العامري، حيث يقول(٤٠): «الذي استعيرت سُرعته من إسراعك إلى المكارم، وأخذ سَبْقه مْن سَبْقك إلى ندى حاتم، وعلم لين قيادك للصاحب، واسترقَتْ جَوْدته من سماع جودك على الطالب».

ووصف الكتاب مظاهر الطبيعة الصامتة المختلفة، كالليل والنهار والصبح والشمس والنجوم والقمر والمطر والرياح والثلج وغيرها، فقد وصف أبو عبدالله ابن مسلم المطر وشدة انهماره وقوته، وبين أثر السيول على أهل مدينة أوريولة، إذ غدت حبّات المطر كأنها حجارة من سجيل، وغدا الناس كعصف مأكول، أو بقايا من أصحاب الفيل، أو نفاية من قوم لوط، وقد نجح الكاتب في تصوير حال الناس اثر المطر مستعيناً بهذه الصور القرآنية، حيث يقول(٤١): « وتيممنا أوْريولة على الفج العميق، فإذا بصماءَ منه قد انكدرت، فأمطرت علينا حجارة من سجيل، كادتْ تجعلنا كعصف مأكول، فقومٌ شُدِخَتْ رؤوسهم، وقوم ضمّت عليهم رُمُوسُهُمْ، كأنهم كانوا بقيةً من أصحاب الفيل، أو نفايه من قوم لوط، فجئنا فلانة وقد سُدَّ بابها، ونام بوّابها، والسيل قد طَمى يحملُ غثاءٍ أحوى».

ويتحدث الكاتب نفسه عن الثلج وهو يتساقط عليه، إذ غدا والثلج يلفه من كل جانب، كأنه من أصحاب الأكفان، وحبات الثلج كأنها القطن المتناثر أو الكافور المنثور ويتحدث عن كثافة الثلج وارتفاعه على الأرض، مما جعله يوشك على الهلاك، يقول(٤٢): «وما شكَّ غمامُ الثلج المنثور، أني من أصحاب القبور، فجعل يهدي إليّ حَنُوطاً وَذَرَوراً، وَيَنْدِفُ عليّ قطناً وينثرُ كافوراً».

ثم يستمر الكاتب في وصف الأيام الماطرة، وما فيها من برق وأمطار شديدة تتساقط بغزارة، وكأن البحر أصبح في السماء من شدة المطر يقول(٤٣): «وصرنا بين

---

(٤٠) المصدر نفسه، ق٢ م١، ص٣٦٤.

(٤١) ابن بسام، الذخيرة ق٣ م١، ص٤٣٠.

(٤٢) المصدر نفسه، ق٢ م١، ص٤٣٦.

(٤٣) المصدر نفسه، ق٢ م١، ص٤٢٨.

صعيد زلق، وسماءٍ طبق، ينثرُ قطرُه نبالا، ويمطر وبله وبالا، وما زال الرعد يقصف والمزنُ يكفُ حتى خلتُ البحر صار سقفاً، والسماء قد اسقَطَتْ عليّ كِسْفا، واستنجز القضاء، والتقى الماء بالماء، فكلما أوينا إلى جدارٍ كادَ ينقضُّ، أولجأنا إلى قرار خُسِفتْ به الأرض...».

وصف الكتاب في دانية والجزائر الشرقية بعض المظاهر الحضارية التي شاهدوها في الأندلس من مساجد وقصور، وما يتصل بها من مجالس لهو وطرب وأوانٍ وغيرها...

كانت رسالة أبي عبدالله بن مسلم خير مثال على وصف بعض هذه المظاهر، التي كان قد شاهدها في رحلته عبرالأندلس، فقد توقف عند المسجد الجامع بقرطبة، فوصف هذ المسجد وبيَّن معالمه وزخارفه ونقوشه وقبابه التي تشير إلى روعة البناء وعظمته، وتقف شاهدة على عظمة الفن الاسلامي في عصر الخلافة الأموية، حيث يقول(٤٤): «ثمَّ جئنا إلى المسجد، ونظرتُ منْ تلك المصانع، فرأيتُ بنياناً بديعاً، وإيواناً رفيعاً، شاده ذو عزم وتأييد، وبناه أولو قوة، وأولو بأسٍ شديد، فكأنما أرْسته عاد، أو بنته ملائكة غلاظ شداد، ومشينا من رتبة إلى رتبة، ومن قُبَّةٍ إلى قبة، حتى انتهينا إلى المقصورة، فألفينا سقفاً من فضة، ومعارجَ إلى الجنة، قد قُرّط سمكها بالذهب الأحمر والفلز الأخضر، وبُلِّطَ سطحُها بماء الجوهر، وكافور المرمر، فكأن قبابها قد عقدت بالجفون الدّعجُ، والحواجب البلج، وكأن درجات منبرها تكاسير الشعور، مالتْ على متون الحور، أو مناطقُ الأعكان».

ثم يصف الكاتب مصحفاً يزعم الناس أنه مصحف عثمان بن عفان ثم يقف عند خطّه وترتيبه وزخرفته الفنية فيقول(٤٥): «ثم اعتمدنا إلى المحراب، فكلٌّ خرَّ راكعاً وأنابُ وجيء بمصحف عثمان ذي النورين، يُحْمَل على المفرق واليدين، فلما خلعت مطارفه، وفتحت صحائفه، إذا بمُدْرَج من فردوس الجنّات أنبت نباتاً أخضر، وطُرِّز كخدود الولدان كما اطلعت الشّعر، وكأنما خُطّت بمجارس النحل، ونُضِّدت من روادف النمل، فاستمد مدادها من قلوب الكافرين، وخُلِق خلوقها من عيون الشهداء والصديقين، فلذلك لم يحتج بيانُهُ إلى ضَبْط ونَقْط، ولا افتقر قرآنه إلى أكثر من

(٤٤) ابن بسام، الذخيرة ق٣ م١، ٤٤٢-٤٤٣.

(٤٥) المصدر نفسه، ق٣ م١، ص٤٤٣.

ورق وخط، جرى فيه كاتبه على سجية لسانه، فأمن اللحن، وأخذ بسنّة أهل زمانه فترك العَجْمَ والشكل».

ونلاحظ هنا أن الكاتب لا يقدّ لنا رسماً معمارياً لهذا المسجد، بل يقدم لنا من خلال رسالته هذه ومشاهداته وصفاً فنياً لهذا المسجد كمَعْلَمَ حضاري إسلامي.

ومن المْظاهر الحضارية التي وصفها ابن مسلم في رسالته هذه، مجالس الأمراء ومكوناتها، وما فيها من بدائع الصنع، كالشجر الصناعي الذي يزين هذه المجالس والمجامر والمواقد والأواني وأدوات الشرب والمصابيح والأباريق، فيعطينا الكاتب وصفاً دقيقاً لهذه المجالس في حضرة الأمير وكيف تبدأ هذه المجالس وماذا يقدم فيها من طعام وشراب؟ حيث يركز الكاتب على الأدوات المستخدمة، وما ظهر في هذه المجالس من أدوات حضارية أبدع الأندلسي في وصفها، يقول(٤٦): « وميل بنا إلى التاج، وهو مصنع على مَفْرق القصرْ، من جانب البحر، مُرَدَّ من قوارير، وأُلْبِسَ الصبحَ المستنير، وقُلِّدَ قلادة الطاووس، ونقِّط نَقْط العروس.... واخذنا مراتب القعود إلى الطعام، يطاف علينا بصحاف من فضة وذهب، وجفانٍ كالجواب، أُتْرِعَتْ من كلٍّ أرب».

ثم يتحدث الكاتب عن أباريق الوضوء والغسل، فيصف ذلك وصفاً جميلاً حيث يقول(٤٧): «فلما أتينا على الريّ قمنا إلي الوضوء ، فجيء بطسّاسٍ من التبر، وأباريق رُصِّعَتْ بالدر، ووضئنا بماءٍ قوامه ببِلُّور، ومزاجُه كافور».

ثم ينتقل الكاتب إلى الحديث عن المصنع الزاهر المعدّ للشراب، فيصف الأطباق والكؤوس، ويتحدث عن الشجر الصناعي الذي زيّن هذا المجلس، وهي أشجار

---

(٤٦) المصدر نفسه، ق٣ م١، ص٤٣٢.

(٤٧) المصدر نفسه، ق٣ م١، ص٤٣٢.

مصنوعة من الحلي المزخرف المزيّن، ويصف سيقان هذه الأشجار، وأغصانها وأوراقها وأزهارها، ثم يتحدث الكاتب أيضاً عن المجامر التي وجدت في جذوع هذه الأشجار، وهي تخرج الدخان المعطر، الذي تنبعث منه الرائحة الطيبة، دون أن ترى النار فيها، يقول[٤٨]: «ثم قمنا إلى المصنع الزاهر، وهو نظير التاج من الجانب الآخر، لما أُعِدَّ فيه للشراب، ما بهر الألباب، فألفينا مورداً عذباً، ومحلاً رحَباً، كأنَّ أطباقهُ مُقَلُ الجفون، مُلِئَتْ من قُرَّة العيون، وأكواسه مراشفُ الحور، تُعَلُّ بِنُطَفِ الثغور، طَلَعَتْ منها شجرة مباركةُ النوى «أصلُها ثابتٌ وفرعُها في السماء» صيغَ عُودُها من الحلي المنيل، وقام عمودها كأنبوب السّقيِّ المذلل، والتفّت أغصانها التفاف الذوائب الجعدة، والتقت أفنانُها التقاء الصَّعْدَة، بالصَّعدة فبينا نحن نعجب من شأنها، ونستغرب مناظرها زهرها وأفنانها إذ سطع من جرثومتها دخانُ المجمر، وارتفع من خلال لبسها غُبار العَرْف المعطر من دون أن يبدو إلى العيان نارها».

ويصف الكاتب بعض آلات الغناء التي كانت تستخدم في مجالس اللهو والغناء، خاصة المزمارُ والآلات الوترية وغيرها، وبين مدى اهتمام الأندلسيين بزخرفة هذه الالآت وتزينها، يقول[٤٩]: «وأوحي إلى المزمار أن ينطق، وإلى الأوتار أن تخفق، وإلى الغناء أن يذيب القلوب ويشق الجيوبَ، ويحثُّ الشمولَ، ويكفي الساقي أن يقول، وقد أُسْبِلَتْ على بهو السَّماع، وقبة الغناء قطعةٌ من الخسروان اللازوردية (الحرير)، قد أُلهبَ بالذهب نحورها وحواشيها، وقُرِنَتْ بالمسجد أسافلُها وأعاليها، وكُحلت بأسلاك الجوهر خطوطُها ورسومها، وَوُصِلَتْ بالياقوت الأحمر دوائرها ورقومُها، فجاءت كطرّة الصباح، نُقِّطَتْ بالنجم، ولَبَّةِ الفجر، رصِّعتْ بغير كواكب الرجوم، فاندفعت منها بلابل المداري تغرد، وحمائم الأوتار تصوِّبُ وتصعِّد».

---

(٤٨) المصدر نفسه، ق٣ م١، ص٤٣٢-٤٣٣.

(٤٩) المصدر نفسه، ق٣ م١، ص٤٣٤.

أ. المفاضلة بين السيف والقلم

كان ابن برد الأصغر أول من كتب في هذا الموضوع في الأندلس ،فقد كتب رسالة إلى مجاهد العامري، أقامها على المفاضلة بين السيف والقلم، والمناظرة بينهما، وفي أحقية كل منهما بالسيادة والزعامة[٥٠].

وافتتح ابن برد رسالته بالحديث عن أهمية السيف والقلم في الحياة، فهما طريقان موصلان إلى المجد والرفعة والسيادة، حيث يقول[٥١]: «وإنّ السيف والقلم لما كانا مصاحبين، يهديان إلى القصد، مَنْ بات يسري إلى المجد، وسُلّمين يلحقان بالكواكب، من ارتقى لساميات المراتب، وطريقين يشرعان نهج الشرف لمن تقرّى إليه».

ثم انتقل الكاتب إلى اجراء الحوار والمناظرة بين السيف والقلم، حيث يحاول كل واحد منها، أن يذكر مآثره ومفاخره، التي تميز بها على الآخر، حيث يستند كل منهما على الحجة، والبرهان، التي تؤكد أهميته وتفوقه على الآخر، وقد جعل ابن برد القلم أول المتحدثين في ذلك، إشارة إلى أهمية دور القلم في الحياة، وتفوقه على السيف، الذي اعتمد عليه مجاهد العامري في حكمه وإدارة شؤون إمارته، يقول ابن برد[٥٢]: «الأفضل مَنْ فضّله الله عز وجل في تنزيله، مقسماً به لرسوله، فقال (ن القلم وما يسطرون)، وقال: (اقرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم)، ... لقد أخذت الفضل برمته، وقدت الفخر بأزمته...»

ثم يجيب السيف قائلاً إن[٥٣]: «قيمة كل امرئ ما يحسن، إن عاتقاً حمل

---

(٥٠) انظر: ياقوت الحموي، معجم الادباء، ج٦، ص١٠٦، فايز القيسي، أدب الرسائل في الأندلس، ص٢٠٦.

(٥١) ابن بسام، الذخيرة ق١ م١، ص٥٢٣.

(٥٢) المصدر نفسه ق١ م١، ص٥٢٤.

(٥٣) المصدر نفسه، ق١ م١، ص٥٢٤.

نجادي لَسَعِيد، وإن عضداً بات وسادي لسديد، وإنَّ فتى اتخذني دليله لمهدي، وأنَّ امرأ صيرني رسيله لمفدي».

ويرد عليه القلم معدداً مفاخره وفضائله(٥٤): «وهل أنا إلا قطب تدور عليه الدول، وجواد شأوه يدرك الأمل، شفيع كلِّ ملك إلى مطالبه، ووسيلته إلى مكاسبه، وشاهد نجواه قبل كل شاهد، ووارد معناه قبل كل وارد».

ويحتدُّ السيف فيعدد بعضاً من مساوئ القلم وصفاته الدميمة، حيث يقول مخاطباً القلم:(٥٥): «لقد تحاول امتداداً بباعٍ قصيرة، وانتفاضاً بجناح كسيرة، أمستعربٌ والفلسُ ثمنك، ومُسْتَجْلَبٌ وكل بقعة وطنك، جسم عار ودمع بار..».

ويشتدُّ الجدال وتمتد المناظرة بينهما، حتى يتعاقب كل منهما على القول، وهم يتبادلون من خلال ذلك، السباب والتهم، ويعرِّض كل منهما بالآخر، ناسباً كل فضل إلى نفسه، سالباً كل محمدة من خصمه، حيث يرد القلم(٥٦): «إن ازدراءك بتمكن وجداني، وبخس أثماني، لنقص في طباعك، وقصر في باعك، ألا وأن الذهب معدنه في العفر، وهو أنفس الجواهر، والنار مكمنها في الحجر، وهي إحدى العناصر، وإن الماء هو الحياة أكثر المعايش وجداناً، وأقلها أثماناً»وقلمّا تُلْفَى الأعلاق النفسية إلا في الأمكنة الخسيسة»

وبعد جدال طويل استفرغ كل منهما جهده في النيل من صاحبه، والتقليل من شأنه، وجدا أن من الأنسب أن يجنحا إلى السلم والإئتلاف ونبذ الخلاف، إذ أنهما سويا في يد مجاهد العامري، فهو صاحب سيف وقلم جمعهما بيد واحدة، وقد اقترح القلم أن يُبْرِما عقداً، يدونان فيه مبادئ اتفاقهما، التي أهمها نبذ الخلاف، فوافقه السيف على ذلك، وقد تولى القلم تدوين هذه المعاهدة شعراً؛ لأنه شدو الحادي، وزاد الرائح والغادي، وقد جاء هذا الشعر في مدح مجاهد العامري،

---

(٥٤) المصدر نفسه، ق١ م١، ص٥٢٤.

(٥٥) المصدر نفسه، ق١ م١، ص٥٢٥.

(٥٦) المصدر نفسه، ق١ م١، ص٥٢٥.

حيث يقول(٥٧):

قد آن للسيف ألاّ يَفْضُلَ القلما   مذ سخَّرا لفتىً حاز العُلى بهما

ومهما يكن من أمر فإن هذه الرسالة قد تضمنت مناقشات طويلة، حشد لها الكاتب ضروباً من الحجج والبراهين، التي تدفع حجة الخَصم بأسلوب المناطقة، ولقد تفنن الكاتب في تشخيص السيف والقلم، حتى يبدو للقارئ أن هذه الرسالة ضرب من الحديث الخيالي المصطنع، وذلك بما بثه الكاتب من حيوية في الحوار والجدل، وما خلعه على السيف والقلم من المعاني الإنسانية، والعواطف البشرية، وما نسب إليهم من الوان السلوك الإنساني(٥٨)

ويبدو لنا أن ابن برد قد نجح في استخدام الأسلوب الرمزي لوصف الأحوال السيئة، التي شهدها كتّاب الأندلس في القرن الخامس الهجري، فقد اعتمد ملوك الطوائف ومنهم مجاهد العامري على أرباب السيوف في توطيد سلطانهم، وقد أدى ذلك إلى تأخر منزلة أصحاب الأقلام(٥٩).

وهذا الرأي جاء مفسراً بصورة واضحة سبب انشاء هذه الرسالة في هذا القرن، ولمجاهد بالذات، فقد أراد ابن برد أن يشيد بدور الكتاب في توطيد السلطان، ومساعدة الأمراء في إدارة شؤون بلاده، وأن يحض مجاهداً العامري إلى المساواة بين أصحاب السيوف وأرباب الأقلام(٦٠).

---

(٥٧) المصدر نفسه، ق١ م١، ص٥٢٨.

(٥٨) انظر علي بن محمد، النثر الادبي الأندلسي في القرن الخامس الهجري، مضامينه وأشكاله، دار الغرب الاسلامي، بيروت، ج١، ص٤٥٣، فايز القيسي: أدب الرسائل في الأندلس، ص٢٠٨. مصطفى محمد أحمد علي السيوفي، ملامح التجديد في النثر الاندلسي، ص١٣٤.

(٥٩) انظر: فايز القيسي: أدب الرسائل في الأندلس، ص٢٠٨ وانظر

Fayiz Al-Qaysi, Islamic Almeria, Its Historical Background and its Arabic Litetature During the 5th A. H./ 11th century A. D. Mu'tah University PP. 86-88.

(٦٠) مصطفى السيوفي: ملامح التجديد في النثر الأندلسي، ص١٣٧.

- فايز القيسي: أدب الرسائل في الأندلس، ص٢٠٨-٢٠٩.

- جمعه شيخة: الحياة الفكرية والأدبية في الجزائر الشرقية في القرنين، ٥ ، ٦هـ، ص٩٦-٩٧.

ظهرت النزعة الشعوبية في كتابات الأدباء الأندلسيين في القرن الخامس الهجري، في مدينة دانية، وتمثلت هذه النزعة في الرسالة المشهورة التي كتبها أحمد ابن غرسية، وقد خاطب بها أبا جعفر بن الخراز معاتباً أيّاه لتركه مدح مجاهد العامري، وانصرافه إلى مدح المعتصم بن صمادح أمير المرية.

وكان لهذه الرسالة أثر كبير في الفكر الأندلسي، حيث انبرى عدد من كبار الكتاب الأندلسيين للرد على ابن غرسية، وما جاء في رسالته(٦١).

وإلى ذلك يشير ابن بسام بقوله(٦٢): «وهي رسالة ذميمة غرّب في تسطيرها، فلم يسبق لكثرة غلطه فيها، وزلله إلى نظيرها، وذمّ فيها العرب، وفخر بقومه العجم، وأراد أن يعرب فأعجم...».

وبدأ الكاتب رسالته بالسخرية والاستهزاء من العرب، متخذاً من هجاء ابن الخراز وسيلة لذلك، يقول(٦٣): «سلامٌ عليك ذا الرّويِّ المَرْويّ، الموقوف قريضهُ على حَلّةِ بجّانة أرْش اليمن(٦٤)، بزهيد الثمن، كأن ما في الأرض إنسان إلا من غسان، أو من آل ذي حسان، وإن كان القوم أقْنَوْك، وعن العالم أغْنَوْكَ على حسب المذكور...».

ثم كشف الكاتب عن معاتبته لابن الخراز على تركه مدح مجاهد، حيث يعقد الكثير من المقارنات بين العرب والعجم، مفتخراً بالعجم، من فرس وروم، معتزاً بشجاعتهم وبأسهم وقوتهم في الحروب والقتال، وقد اعتمد الكاتب في رسالته

---

(٦١) انظر: ابن بسام، الذخيرة ق٣ م٢، ص٧١٥، عبدالسلام هارون، نوادر المخطوطات، المجموعة ٣، ص٢٤٦، وما بعدها.

(٦٢) ابن بسام، الذخيرة، ق٣ م٢، ص٧٠٤-٧٠٥.

(٦٣) المصدر السابق، ق٣ م٢، ص٧٠٥.

(٦٤) أرْش اليمن: إقليم في شرق الأندلس، أنزل الأمويون فيه بني سراج القضاعيين، وجعلوا إليهم حراسة ما يليهم من البحر، وحفظ الساحل، فكان ما ضمنوا حفظه يسمى أرْش اليمن (انظر: الحميري، الروض المعطار، ص٣٧).

على أسلوب المقابلة بين حياة العرب وحياة العجم في القصور العامرة، فالعرب القدماء عاشوا مع الإبل والشاة، أما الأكاسرة والقياصرة فقد عاشوا في ظل الحروب والقتال، فيصف ابن غرسية هؤلاء القياصرة والأكاسرة، بأنهم(٦٥): «الصُّهْبُ الشُّهْب، ليسوا بعُرب، ذوي أينُق جُرْب، بل هم القياصرة الأكاسرة، نُجُد، بُهَمٌ، رعاة شويهات ولا بَهَم، شغلوا بالماذيّ والمرّانِ عن رعي البعران، وبجلب العز عن جلب المعز، جبابرة قياصرةٌ، ذوو المغافر والدروع، للتنفيس عن رَوْعِ المروع، حماةُ السروج، نماة الصروح، صقورةٌ غلبت عليهم شقورة، وصقورة الخرسان، لكنهم خَطَبَةٌ بالخرصان».

وانتقل الكاتب بعد ذلك إلى المقابلة بين مظاهر الحياة العربية، ومظاهر الحياة العجمية من حيث، المأكل والمشرب والمسكن، والمطعم، إذ يمتاز العجم في ملابسهم ومشاربهم وطعامهم ومساكنهم على العرب، الذين لا يهتمون بهذه المظاهر الحضارية، وهم في نظر الكاتب يقتصرون على حبهم للشهوات، كالطبل والغناء ومعاقرة الخمر، فيقول ابن غرسية(٦٦): «شُدهُوا برّنات السيوف، عن ريّات الشّنوف، وبركوب السُّروج عن الكلب والفُرُوج وبالنَّفير عن النَّقير، والجنائب عن الحبائب، وبالخبُّ عن الحب، وبالشليل عن السليل، وبالأمر والذمر عن معاقرة الخمر والزمر، وباللقيان عن العقيان، وعن قنيان القيان،و طبّاتهم خطيّاتهم، وعلاّتهم آلاتهم، وحصونهم حُصُنُهم أقيالٌ، آباؤهم من بين الأنام أقتال».

ويرى الكاتب تميُّزَ العجم عن العرب في المكانة والشهرة والزعامة والرياسة والنسب، الرفيع والشرف العظيم، ليس فيهم عيب، أو مذمّة، لا تشوبهم شائبة، فيقول(٦٧): «بُصَرٌ صُبرٌ، تزدان بهم المحافل والجحافل، كواكبُ المواكبِ، قُيُولٌ على خيول، كأنهم فُيُول، نجومُ الرُّجُوم، من العجم ضراغمةُ الأجم، بنو غاب، منتفون من كلِّ عاب، لم تلدْهُم صواحُب الرايات، تَبَجْحَتْ عنهم سارةُ الجمال والكمال، ربَّةُ

---

(٦٥) ابن بسام، الذخيرة: ق٣ م٢، ص٧٠٦.

(٦٦) المصدر نفسه، ق٣ م٢، ص٧٠٩.

(٦٧) المصدر نفسه، ق٣ م٢، ص٧٠٨-٧٠٩.

الأباة، شُمَّخٌ بُذَّخٌ، بَرَرَةُ أقْيالٌ، جَرَرَةُ أذيال، بخٍ بخٍ أحلّتْهم سيوفُهُم، سِطَةَ الأرضين، فما قنعوا بذلك ولا رضين، حتى دوَّخوا المشارق والمغارب، فاستوطنوا من المجد الذروة والغارب، وألجأوكم إلى سكنى الحجاز ذات المجاز».

ثمَّ يفتخر الكاتب بمعرفة العجم وثقافتهم الواسعة في العلوم المختلفة، وينكر على العرب معرفتهم هذه العلوم والمعارف، فهم(٦٨): «ذوو الآراء الفلسفية الأريضية والعلوم المنطقية الرياضية، حملة الاسترلوميقى، والجومطريقي، والعَلَمَة بالارتماطيقي، وأنولوطيقا، والقَوَمَةُ بالموسيقى والفوطيقا، والنهضة بعلوم الشرائع والطبائع، والمَهَرَة في علوم الأديان والأبدان، ما شئت من تدقيق وتحقيق، حبسوا أنفسهم على العلوم الدينية والبدنية، لا على وصف الناقة الفَدَنيّة»(٦٩).

ويفتخر الكاتب في رسالته بالنبي -صلى الله عليه وسلم- الذي كان له الفضل على العرب والعجم، في انتشالهم من الغواية والشرك والضلال، غير أنه يرى أنه لا فخر للعرب بذلك النبي، وإن كان عربياً؛ لأن التبّر من التراب، والمسكَ بعض دم الغزال. فيقول(٧٠): «لكنْ الفخرُ بابن عمِّنا، الذي بالبركة عمَّنا، الاسماعيليِّ الحَسَب، الإبراهيمي النسب، الذي به إنما انتشلنا الله تعالى، وإياكم من الغواية والعماية، ولا غرو أن كان منكم جِبْرُه وسِبْره، ففي الرغام يلقى تبره، ، والمسك بعض دم الغزال، والنطافُ العِذابُ مستودعاتٌ مَسْكَ العَزّال»(٧١).

---

(٦٨) ابن بسام، الذخيرة ق٣ م٢، ص٧١١-٧١٢.

(٦٩) الاسترلوميقى: علم الفلك. (انظر المصدر السابق، ق٣ م٢، ص٧١٢ (حاشية رقم ١).

الجومطريقي: الهندسة. (انظر المصدر السابق، ق٣ م٢، ص٧١٢ (حاشية رقم ١).

الأرتماطيقى: علم الحساب. (انظر المصدر السابق، ق٣ م٢، ص٧١٢ (حاشية رقم ١).

الأنولوطيقا: تحليل القياس. (انظر المصدر السابق، ق٣ م٢، ص٧١٢ (حاشية رقم ١).

الفوطيقا: أو البوطيقا: الشعر. (انظر المصدر السابق، ق٣ م٢، ص٧١٢ (حاشية رقم ١).

الفدنية: الضخمة، الفدن هو القصير (انظر: لسان العرب، مادة فدن).

(٧٠) ابن بسام، الذخيرة، ق٣ م٢، ص٧١٢.

(٧١) مسك العزال: المسْك هو الجلد، العَزّال: القِرْب (لسان العرب، مادة مَسْك، عزل).

ثم يتحدث الكاتب في نهاية رسالته عن النبي -عليه السلام- محاولاً أن يضفي التقوى والورع على رسالته، وهو يمدح الرسول عليه السلام، حيث يقول(٧٢)« بهذا النبي الأمي أفاخر من يفخر، وأكاثر جميع من تقدم وتأخر... وكذلك أصلي على واصلي جناحه، سيوفه ورماحه، صحابته الكرام، عليهم من الله أفضل السلام».

ثم يختتم الرسالة بتعنيف ابن الخراز لأنه انصرف عن مدح مجاهد العامري، إلى مدح المعتصم بن صمادح ومتخذاً من ذلك وسيلة لمدح مجاهد وبيان صفاته وخصائله الحميدة في الادارة والحرب والزعامة، فيقول(٧٣): « لقد غم أخرك ، لكن بالرغم أخرك، إذا أضربْتَ عن مديح هذا العِلقْ الرّميح، سهمنا النفيس، وشهمنا الرئيس، معز الدولة، المولى الأعظم، والموئل الأعصم، قَيْل الأمم، وسيل العرم، مغني المغاني، ومعنى المعاني، ذي النفاسة النفسانية والرياسة الساسانية».

ثم يعنف ابن الخراز ويؤنبه على فعلته هذه، ويحذره من مغبة الاستمرار في مدح المعتصم، ويطالبه بسرعة ليمدح مجاهداً العامري وينصرف إليه حتى تأمن بطشنا، فيقول(٧٤): «فاذهب يا غث المذهب، وابتغ في الأرض نفقاً أو في السماء مرتقى، أوْحُكْ من المديد والبسيط، في الملك ذي الخلق البسيط، ما تستجير به من بطشنا، إذ نحن معشر الموالي لا نوالي، إلا من هو لعظيمنا مُوَالي، فاستأخِرْ أو تقدمْ، وحذار أن تقرع سن الندم، قبل أن تَجْمع ذُنوبَك في ذَنوبك(٧٥)، وكُرَبك في كَرَبك(٧٦)، فمن أبصر أقْصَر».

---

(٧٢) ابن بسام، الذخيرة، ق٣ م٢، ص٧١٣.

(٧٣) المصدر نفسه، ق٣ م٢، ص٧١٣.

(٧٤) المصدر نفسه، ق٣ م٢، ص٧١٣-٧١٤.

(٧٥) الذَّنُوب: الدلو (انظر: لسان العرب، مادة ذنب).

(٧٦) الكَرَب: الحبل الذي يشد على عراقي الدلو (انظر: لسان العرب: مادة كَرَب).

تحدث الكتاب الأندلسيون عن الرحلات والأسفار التي قاموا بها في بلاد الأندلس، وتناولوا وصف ما شاهدوه من مظاهر الحياة السياسية والاجتماعية السائدة في المناطق التي زاروها، كما وصفوا مظاهر الطبيعة المختلفة من رياض وأنهار وأشجار وأزهار والأيام الماطرة التي كانوا يواجهونها في أسفارهم هذه.

كذلك وصفوا ما شاهدوه من مظاهر حضارية مختلفة، من مدن وقصور ومجالس لهو وغناء، ومساجد وغيرها، ثم دوّن هؤلاء الكتاب انطباعاتهم النفسية عن هذه الأسفار.

ويعدُّ الكاتب أبو عبدالله بن مسلم أشهر كتّاب دانية والجزائر الشرقية في هذا القرن الذين كتبوا رسائل في هذا اللون من الوصف، فقد كتب رسالة سماها (طي المراحل) خاطب بها أغلب عامل مجاهد العامري على ميورقة. ويبدو أن الكاتب كان سفيراً ورسولاً لإقبال الدولة علي بن مجاهد إلى بعض أمراء الطوائف [77]. حيث أتاحت له هذه السفارة الفرصة لوصف قصة ترحاله بين المدن الأندلسية المختلفة، وانتقاله من بلاط أمير إلى بلاط أمير آخر.

أما سبب هذه السفارة فيعود إلى قيام المقتدر بن هود بمنازعة إقبال الدولة على أحد الحصون، حيث يظهر ذلك من فقرة من هذه الرسالة يقول فيها الكاتب[78]:
«لما صفا الحصن الفلاني إلى مَنْ أيّده الله أجلب عليه المقتدر بخيله ورَجْله، وأحدق حوله بضبطه ومنعه، حتى صار كالسماء ملئت حرساً شديداً وشهباً».

ثم يشير إلى طلب إقبال الدولة العون من إخوانه، فلم يجد من يعينه، فقد عزم على تحريره، فاستعاده من المقتدر دون قتال أو حرب، حيث جهز إقبال الدولة جيشه للقتال واستعادة الحصن، لكن المقتدر تركه قبل المواجهة كما يظهر من هذه

---

(٧٧) انظر: ابن بسام، الذخيرة ق٣ م١، ص٤٢٩.

(٧٨) المصدر نفسه، ق٣ م١، ص٤٢٩.

الرسالة[79].

ويبدأ الكاتب رسالته هذه بالاعتذار للأغلب صاحب ميورقة عن تأخره في المكاتبة وإرسال الرسائل، ويعبر له عن مشاعره وأحاسيسه، التي يكنّها له، فيقول[80]: «أن أغببتُ على بعد الديار مكاتبتك، وأقللتُ مع شحْطِ المزار مخاطبتك، فإني أخاطبك بلسان وداد، وأنا جيك فؤادا لفؤاد، وانما يتخاطب أهل بُعْد المكان، ويتكاتب ذوو النأي عن العيان، وأنت في الضمير جائل، فما تزيد الرسائل، وبين الجفون ماثل، فما تفيد الوسائل، فهذا يجب على الصديق تأكيدُ العهد ولو بإهداء السلام...».

ثم يتحدث له عن الرحلة والأسفار التي قام بها، وما لقي من عذاب ومتاعب ومشقّة وأمور جسام، فيقول[81]: «ولكني بين حل وترحال، ورجوعٍ وإقبال، لا يجعلان إلى أمنية سبيلا، ولا يوجدان إلى مأربة وصولا، ولعلك أيها الفاضل - ممن يظن هذه الأسفار فُرْجة، ويخالُ لها بهجة، وكيف والسفر قطعة من العذاب...».

ثم يتحدث لكاتب في ثنايا رسالته عن المدن الأندلسية التي دخلها، والأمراء الذين لقيهم وقابلهم في أسفاره هذه، فيتحدث عن إحدى المدن الأندلسية، التي لم يذكر اسمها، وكان دخوله لها في فصل الشتاء حيث الأمطار والرياح والسيول، إذ وجد بابها مقفولاً، وحارسها نائماً، فشعر ومَن معه بالهلاك، وحين أعلم صاحب الحصن بوجود الكاتب، أمربفتح هذا البـــاب، ولقي كل رعاية وتقدير منه، حيث يقول[82]: «فجئنا فلانة، وقد سُدَّ بابها، ونام بوّابُها، والسيلُ قد طمى، يحملُ غثاءً أحوى، فلم تشكُّ القلوبُ أنّ نفوسنا ذائقة الموت، حتى إذا بلغت النفوس التراق، والتفت الساق بالساق، وقيل من راق، وأشعر صاحب حصن بمكاني، وقصَّ عليه شاني، فأمر بفتح باب المدينة، وآواني إلى دار حصينة، وتقدَّم بالضرام فأجّج،

---

(79) انظر: المصدر نفسه، ق٣ م١، ص٤٢٩.

(80) المصدر نفسه، ق٣ م١، ص٤٢٧-٤٢٨.

(81) المصدر نفسه، ق٣ م١، ص٤٢٨.

(82) المصدر نفسه، ق٣ م١، ص٤٣٠.

وبالطعام فروّج، وبالمدام فشبٌ وأُسرج، وقلنا (الحمد الله الذي أذهب عنا الحزن) وكفانا المحن».

ويظهر من الفقرة السابقة أن الكاتب لم يكن وحده، بل كان على رأس وفد، يشمل عدداً من الأعضاء الذي أوفدهم إقبال الدولة إلى عدد من ملوك الطوائف؛ لشرح وجهة نظره حول الصراع الذي اشتد بينه وبين المقتدر بن هود، كذلك نجد من الفقرة السابقة إشارة إلى طبيعة تنظيم المدن الأندلسية، فكل مدينة لها سور يحيط بها، وبوابة يقف عليها حارس، يدقق في الداخل إليها والخارج منها، وتغلق هذه الأبواب في الليل، ولا تفتح إلا بإذن من صاحب المدينة.

ثم ينتقل الكاتب إلى وصف رحلته إلى المرية ولقائه المعتصم بن صمادح، الذي رحب به، وأكرم وفادته، وطلب منه البقاء عنده، لكنه اعتذر عن ذلك، لأنه ماض لحاجته، وتأدية مهمته، حيث يقول[٨٣]: «... حتى جئت المرية، وكان عهدي بها عهد طيف الكرى، بما بين العقيق إلى الحمى... ولما لقيت المعتصم بالله – فتح الله له في البلاد، كما شرح بودّه قلوب العباد– قال: مرحباً بالولي الحميم، والصديق الحديث القديم، أعنَّتْ لك عندنا أسبابٌ أوجبت إقبالاً، أو نَحَتْ بك نحونا ركابٌ طلبت فعالاً، حُلَّ عن ذاتك ، وأرِحْ يَعْمَلاتِكَ، فقلت: أيَّد الله مولاي، ما أجاءَني حُبُّ الراحة، ولا طلبُ الإراحة، وإنما أنا في حُكم شرعٍ، وأداءِ فرض...».

ثم يصف الكاتب بعض مظاهر الطبيعة الجملية التي شاهدها أثناء خروجه من المرية، ويصور من خلال ذلك، أحاسيسه ومشاعره الذاتية، فقد بعثت هذه الطبيعة الجملية السعادة والسرور في النفس، فهي تزيل الغم، وتزيد العمر، وتشرح الصدر، وتشفي من الكظم، وتزيل الحسن بهوائها العليل، وأنوارها الجميلة، وأنهارها المتدفقة، حيث يقول[٨٤]: «حتى وصلنا إلى دار منفرجة الأقطار، مستوفزة الأنوار، متدفقة الأنهار، هواؤها جلاءٌ للغم، وزيادة في العمر، وضياؤها شفاءٌ للكظم، وانشراح للصدر.».

---

(٨٣) المصدر نفسه، ق٣ م١، ص٤٣٠-٤٣١.

(٨٤) المصدر نفسه، ق٣ م١، ص٤٣١.

ثم يصف الكاتب رحلته، ويصور الأيام التي أمضاها عند المظفر الرئيس أبي مناد، صاحب غرناطة، فيصف مجالس اللهو والخمر والغناء هناك، وما نعم به من فرح وسرور في هذه المجالس، حيث يقول(٨٥): «فبتنا فاكهين فرحين، نزمر بالكؤوس، ونرقص بالرؤوس، ونثاقف الإخوان، ونواقف الندمان مواقفة الكرام، بشرب المدام لا بحدِّ الحسام، نسقي ودَّ الصديق للصديق، ونطلب الصَّبوحَ بثار الغبوق، حتى أخجلتنا الشمس بضياءَ الراح، وقمنا نقدّ السراج من ضوء الصباح... وما زلنا نسمع باقتراح، ونشرب على ارتياح، ونصلُ اغتباقا واصطباح، حتى شُبِّتْ مصابيحنا لقفّال، وحان أوان ظعنٍ وارتحال.....».

ثم يصف الكاتب ما لقيه حال خروجه من غرناطة، فقد انتقل من الراحة والسعادة، ومجالس اللهو والخمر، والغناء إلى العذاب الأليم، إلى الجبال الموحشة والرياح الشديدة، حيث أدركه شتاء قارس وبرد شديد، وأوشك هو ومن معه على الموت والهلاك، فيقول(٨٦): «فخرجت كالمقلة استلّت من الأشفار، والنفس انتزعت من خلود أعشار، ثم ارتحلت من الغدِ عن مقام كريم إلى عذاب أليم، لا أملك فيه أدمعي، ولا أجد نفسي معي، وسرنا بين جبالٍ وحشة، ومياه دهشة، فصاردتنا من ريح عاد، ذات صرٍّ وأبراد، أضرمت نار البرحاء، وكظمت أنفاس الصُّعَداء، ومن أخذ بكظمة، كيف يرجو الحياة؟...».

ثم خرج ابن مسلم بعد ذلك على الحاجب سيف الدولة أبي الفتوح، فوصف حسن استقباله له، وإكرامه إياه، يقول(٨٧): «فقمتُ وقد انجلت عني المحن، وانتفضتُ فطارَ القبرُ والكفن، ومدّ إليّ يد الرضوان، وغمسني في نهر الحيوان، فجعلت أطرفُ كما يطرف الفجرُ في سُدْفةِ الليل، وأنبتُ منا تنبتُ الحبّةُ في حميل السيل، ورأيت ملكاً تقرأُ النفاسةَ بين عينيه، وتبصر الرياسة طَوْع يديه، حُلِّيَ السيف باسمه، فرقّت مضاربه، وتوّج المُلْكَ مَفْرِقَهُ فعزّتْ جوانبه».

---

(٨٥) المصدر نفسه، ق٣ م١، ص٤٣٥-٤٣٦.

(٨٦) المصدر نفسه، ق٣ م١، ص٤٣٦.

(٨٧) المصدر نفسه، ق٣ م١، ص٤٣٦.

ثم يتحدّث الكاتب عن مدينة قرطبة التي دخلها، وقد كان يتمنّى في السابق أن يدخلها ويراها ويشاهد قصورها ومساجدها، فيقول[88]: « وكثيراً ما كنت اقترح باتيانها، وإن كانت على هرم، وأتمنّى وقفة فيها ولو على قدم، وأرغب زيارتها ولو لماماً، وأودّ رؤيتها ولو مناماً، لألمح دار الخلافة، وأرى بيت الرياسة ».

ويصوّر لنا ابن مسلم في رسالته هذه بعض مظاهر الترف والمجون، التي شهدتها قصور الأثرياء في الأندلس في القرن الخامس الهجري، ومن ذلك وصفه الإسراف والتبذير في إقامة المآدب والاحتفالات، حيث يقول[89]: «وأخذنا مراتب القعود إلى الطعام، يطاف علينا بصحاف من فضة، وذهب وجفان كالجواب، أترعت من كلّ أرب، فلمّا أتينا على الريّ قمنا إلى الوضوء، فجيء بطساس من التبر، وأباريق رُصّعت بالدر...» .

ويمكن القول إنّ أهمية هذه الرسالة تكمن في أنها أعطت وصفاً دقيقاً لبعض مظاهرة الحياة العمرانية، من مدن وقصور ومساجد وغيرها، كذلك صورت بعضاً من مظاهر الحياة الاجتماعية كالترف والبذخ ومجالس اللهو والخمر والغناء، التي كانت تعقد في قصور الأمراء والأثرياء.

كذلك استطاعت هذه الرسالة ان تصور كثيراً من مظاهر الطبيعة الصامتة، من أنهار وجبال وأمطار وثلوج، ورياح، ورياض وغيرها. وحين صورها الكاتب لم يصوّرها أو يصفها وصف المشاهد لها، المستمتع بها، ولكنه صوّرها وهو يحسّ بأثرها الذي كان يؤدي به إلى الهلاك والموت، ومع ذلك فقد قدّم لنا صوراً جميلة لهذه المظاهر، وخاصة حديثه عن المطر والرياح والثلج والسيول، وهي مظاهر أشرنا إليها عند الحديث عن مظاهر الطبيعة الصامتة.

---

(٨٨) المصدر نفسه، ق٢م١، ص٤٤١.

(٨٩) المصدر نفسه، ق٢م١، ص٤٣٢.

سابعاً: المناقضات

غدا فن المناقضة لوناً من ألوان ردود الأفعال، والمواجهات الكتابية، التي عرفها أدب الرسائل في القرن الخامس الهجري، وهو يقوم على أساس أن يكتب كاتب ما رسالة، يرد بها على كاتب آخر، لينقض الآراء الواردة في رسالته، ويقلل من شأنها، لما يرى في ذلك من أباطيل وأوهام، ومجافاة للحق(٩٠).

ومن الأمثلة على ذلك مجموعة الردود التي أثارتها رسالة ابن غرسية في الشعوبية(٩١)، التي سبق أن تحدثنا عنها.

وأشار ابن بسام في كتابه الذخيرة إلى هذه الظاهرة في ترجمته للوزير الكاتب أبي الإصبغ بن أرقم، إذ ذكر أنه جرت بينه وبين طائفة من أهل صنعة الكتابة، في ذلك الزمان هنات، إذ انتقدوا عليه استخدام بعض الألفاظ والكلمات، والاستعارات البعيدة في كتابته الفنية، وقد اسندت تلك الطائفة إلى ابن سيده مهمة الرد على هذا الكاتب(٩٢).

فكتب ابن أرقم رسالة على لسان إقبال الدولة إلى المعز بن باديس صاحب إفريقية، وقد انتقد ابن سيده استخدام ابن أرقم بعض الألفاظ، ومتتبعاً ما رآه من أخطاء لغوية ونحوية وقع فيها، فرصدها، وحاكمها محاكمة لغوية ونحوية، مستعيناً على ذلك بثقافته اللغوية ومن ذلك قول ابن سيده(٩٣): «ذكر الخضاب فعابه، وذكر من خضب فسفّهه وجانبه، وقال: هذا خطيب اليونانية غليانش، وهو الذي يُوثق بكلامه، ويُستأنس، قد قال: إن التسويد من الزينة الأنيثة، فلا يستعمله

---

(٩٠) انظر: لسان العرب مادة نقض، علي بن محمد، النثر الأدبي الأندلسي في القرن الخامس الهجري: مضامينه وأشكاله، ج٢، ص٥٢١-٥٤٨.

- فايز القيسي، أدب الرسائل في الأندلس، ص٢٥٢

(٩١) انظر: ابن بسام، الذخيرة، ق٣ م١، ص٧١٥-٧٧٥.

(٩٢) انظر المصدر نفسه، ق٣ م١، ص٣٦٠.

(٩٣) المصدر نفسه، ق٣ م١، ص٣٨٩.

من الأنام إلا أهل الطينة الخبيثة».

الرد: تأملوا واعتبروا يا أولي الأبصار، قد علم الكبير والصغير، والخطير والحقير، أن الشيب معيب، وأن السواد مرغوب، وأن آدم – عليه السلام–، لما رأى شيبةً بلحيته فزع منها، وأن الرسول الله –صلى الله عليه وسلم، روي عنه الخضاب».

فردّ ابن سيده على ابن أرقم الذي عاب الخضاب واستعماله، وعدّه زينة للإناث، إذ لا يستعمله إلا أهل الطينة الخبيثة من البشر. ورأى ابن سيده أن الخضاب لا شيء فيه ولا عيب، وليس مقتصراً على فئة دون أخرى، والدليل أن آدم عليه السلام فزع من شيبة رآها في لحيته، وروي أن الرسول –عليه السلام قد استخدم الخضاب.

وكان ابن سيده في ردّه يأخذ فقرة أو عبارة وردت في رسالة ابن أرقم، ثم يحللها ويبين ما فيها من أخطاء أو آراء، ومن ذلك قوله وهو ينقل فقرة من تلك الرسالة(٩٤): «يَرْهَبُ ألا تُرْجح أعمالهُ يوم القيامة قُسْطَاسه، وألا تنجح آماله، فيؤتى غير ذات اليمين قُرْطاسهُ» الرد: ضم قاف قرطاس كما ضم قاف قسطاس للمشاكلة على دناءَة اللغة، ووحاشة التقفية، وفساد المقابلة، وجَوْر القسمة لم يَدْرِ أن القِسْطاس –بكسر القاف– لغةٌ شائعةٌ قرأتها بها القراء، ونطقت بها الفصحاء، ولو علمها لما احتاج إلى هذا المرمى البعيد، والمنحى الزهيد والوجه الشتيم، والغرض الذميم».

ويستمر ابن سيده على هذا النهج في الرد على هذه الرسالة، فيتناول الأخطاء، خطأً خطأً فيحلله ويرده بالدليل والبرهان(٩٥).

ولم تنتهِ المناقضة عند هذا الرد، بل نجد أن ابن أرقم يرد على مناقضة ابن سيده في رسالة سماها (عقاب المتَسَوِّر)،(٩٦) أجاب فيها على انتقادات ابن سيده لرسالته السابقة.

---

(٩٤) المصدر نفسه، ق٣ م١، ص٣٩١–٣٩٢.

(٩٥) انظر بقية الرسالة في المصدر السابق نفسه، ق٢ م١، ص٣٨٩–٣٩٢.

(٩٦) انظر المصدر نفسه، ق٣ م١، ص٣٧٢.

ووجّه هذه الرسالة إلى الفقيه أبي بكر بن صاحب الأحباس، وشرح فيها الكلمات التي انتقده فيها ابن سيده، يقول في بدايتها(٩٧): «لما كنت -أعزك الله- في أكف الآداب علماً، وعلى لسان العرب وغيره حفيظاً قيماً، لاقتباسك العلم من كتب، ووارثتك إياه عن كلالة أب، ولم تزل تتلقاه كابراً عن كابر، وتترقاه باهراً عن باهر».

ثم يشير الكاتب إلى صفات أخرى لهذا الفقيه، محاولاً من خلال ذلك النيل من ابن سيده واللغويين الذين كانوا في صفِّه، فيقول(٩٨): «لستَ ابن سمعك، ولا عبَد طبعك، تقلِّدُ كاتباً ساذجاً، وتعتقدُ قارئاً هازجاً، وتقبل البصر بلا بصيرة. وتقفو الأثر على غير وتيرة، تراعي الحروف، ولا تبالي عن التحريف وتتلوا الصحف، ولا عليك مم التصحيف، ولم تقتصر على حفظ سطور من كتاب سيبويه (وشرحِ الفصيح) لابن سيبويه، واستظهار أوراق من الغريب...».

ثم يوضح الكاتب للفقيه أبي بكر قصة رسالته السابقة، التي انتقدها ابن سيده، فقد أُمر بكتابتها، فكانت رسالة عظيمة لا يمكن لأحد أن يأتي بمثلها، فحسده الحاسدون، واجتمعوا على مواجهته؛ للتقليل من شأنها، يقول (٩٩): «وطاروا طيران الفراش حول النار، وجالوا جولان الذباب بين الأزهار، مرّة، يستفتون الفقهاء، ومرة يشهدون السفهاء، ومرة يقولون: هذا يُسْألُ عنه إن كان قال، وربما كان له في مضمار اللغة مجال، ويتسوَّرون ويتشورون، حديث النساء بعد البعول... فاتفق رأيهم واستمر حديثهم، إلى سؤال أبي الحسن بن سيده، فلم يفكر أبو الحسن في العواقب، ولم ينظر نظر أهل التجارب، فسلّم لهم واغترّ بمثل وشي الحيّات، وانقاد في زمام الزخارف والترهات....».

ثم يتناول الكاتب ردود ابن سيده، وانتقاداته عليه، رداً رداً، فيفنّده، ويأتي بالشواهد والأدلة على صحة ما يأتي به، وما أتى به في رسالته السابقة.

---

(٩٧) المصدر نفسه، ق٣ م١، ص٣٦٨.

(٩٨) المصدر نفسه، ق٣ م١، ص٣٦٨.

(٩٩) المصدر نفسه، ق٣ م١، ص٣٧١.

ومن أمثلة ذلك أن ابن سيده كان قد أنكر على ابن أرقم استخدامه كلمة (تحدياً) في قوله: (الحمدالله تيمناً بحمده، وتحدّيا لحدّه)، واستعاض عنها بكلمة (تصدّياً)، حيث يدافع ابن أرقم عن صحة استخدامه لهذه الكلمة، فيأتي بالشواهد الشعرية والأدلة اللغوية من المعاجم العربية للدلالة على صحة هذا الاستخدام([100])

ثم يتناول الكاتب رداً آخر لابن سيده، وهو استخدامه كلمة (الحادي) وقد كان ابن أرقم قد استخدمه في رسالته السابقة، فيقول ابن سيده ([101])«الحادي ليس من صفات الله، ولا يجوز أن يوصف إلا بما وصف به نفسه تعالى، أو بما وصفه رسوله» وبدّل (الحادي) بالمرشد.

فيرد ابن أرقم على هذا الانتقاد بقوله ([102]): «انظر ما أعظم هذا السهو، وما أضيق هذا الشأو، وما أقبح هذا البَهْت، وما اخشن هذا النحت، وماذا على من قال: الحمدُ لله منقذنا من الغمرات، ومبرئنا من العلل الفادحات، ومرشدنا إلى سُبُل الهدى، وسائقنا لما يحبُّ ويرضى، والله مُسَدِّدُنا وعصمتنا وملاذنا وشبهه، وليس شيء من هذا في القرآن، ولا في حديثه عليه السلام، واسم الفاعل العامل في ما بعد، كالفعل يجري مجراه وينحو منحاه...».

ثم يأتي ابن أرقم بشواهد وأدلة على صحة استخدام صفة (الحادي) في وصف الله سبحانه وتعالى.

ويستمر ابن أرقم في مناقضاته هذه حتى يصل إلى نقض كل ما جاء في رسالة ابن سيده، معتمداً على نهجه السابق، يعرض الرد، فيرد عليه، ويأتي بشواهده وأدلته([103]).

وفي الرسالة هذه يدافع ابن أرقم عن رسالته السابقة، واصفاً جمالها

---

(١٠٠) المصدر نفسه، ق٣ م١، ص٣٧٢-٣٧٣.

(١٠١) المصدر نفسه، ق٣ م١، ص٣٧٣.

(١٠٢) المصدر نفسه، ق٣ م١، ص٣٧٣-٣٧٤.

(١٠٣) انظر هذه الردود في الرسالة، الذخيرة، ق٣ م١، ص٣٧٠-٣٨٩.

وتناسق ألفاظها، ومعانيها وانسجام صورها وتشبيهاتها، فيقول: ([104]): «وما أنكر عليّ إلا كلُّ لفظةٍ جاءت مع أختها، كما اقترن الكوكب والسعد، والتقى الجِيْد الأغْيد والعُقْد، وشانوا ببعرهم الدرر، وبحممهم الغرر، وكان كلامهم كالبَرَص في أديمه، والكسرف في نجومه».

ثم يشير في رسالته أيضاً إلى أنه يقبل النقد الموضوعي، ويتقبل كل رد، إذا كان صحيحاً مقبولاً، ولو فعل الناقد ذلك لما رددت عليه بهذه الرسالة، فيقول:([105]) «وعلم الله أنهم لو ردوا مرداً، وتحدوا متحدًّى، وذهبوا صدداً، لما أنِفْتُ ولا قلقت، ولا حرجت، ولا ضجرت، ولأنصتّ وأنصفت وانقدت، فقد قال السلف الصالح: رحم الله من أهدى إلينا عيوبنا. وقالوا: الفاضل من عُدَّت سَقَطاته، وقال عليه السلام: ما هلك امرؤ عرف قدر نفسه، والمرء في سَعَة من عقله، ما لم يقل شعراً وينشيء كلاما. وما أبرِّيء نفسي، ولا أُعجبُ بأمري، ولا أفخر، ولا أذبّ ذب المزدهي بما حبر، فما أحَدٌ أنشأ نثراً، ولا قال شعراً إلا استدرك عليه».

ثم يأتي -ليؤكد رأيه هذا- ببعض الشواهد من التاريخ لعلماء ولغويين وكتاب وقراء لحنوا في قراءاتهم، ومصنفاتهم وخطبهم فمن يكثر كلامه يتعثر وتكثر زلاّته([106]).

وتكمن أهمية هذه المناقضات، وهذا اللون من الرسائل بشكل عام، وهذه الرسالة بشكل خاص في أنها إشارة واضحة إلى نشاط الحركة الأدبية واللغوية التي شهدتها مدينة دانية والجزائر الشرقية في هذا القرن، وما لقيه العلماء واللغويون والكتاب من مكانة عظيمة في بلاد مجاهد العامري، وابنه اقبال الدولة، حيث هُيِّئَتْ لهم البيئة المناسبة للمساهمة في هذه الحركة اللغوية والأدبية، من خلال فنون الكتابة والمناقضة والانتقاد وغيرها من ألوان التعبير عن الرأي الذاتي.

---

(١٠٤) ابن بسام، الذخيرة، ق٣ م١، ص٣٨٤.

(١٠٥) المصدر نفسه، ق٣ م١، ص٣٨٤-٣٨٥.

(١٠٦) انظر: المصدر نفسه، ق٣ م١، ص٣٨٥.

الفصل الثاني

الخصائص الفنية واللغويّة لأدب الرسائل في دانية والجزائر الشرقية في القرن الخامس الهجري

أولاً: البناء الفني للرسائل

أ- البدء والعرض والختام:

اتفق النقاد العرب على أن للرسالة الفنية بناءً خاصاً، وشكلاً فنياً معروفاً، وسمات محددة، هي بمثابة الأركان الأساسية، التي تبنى عليها الرسالة، فالرسالة الفنية قطعة نثرية واحدة تتكون من ثلاثة عناصر متصلة اتصالاً وثيقاً، هي البداية أو الصدر والمتن والخاتمة[٥٠].

ولكل عنصر من هذه العناصر سمات أو صفات يتميز بها، فالبداية غالباً ما يخاطب الكاتب من أرْسِلتْ إليه الرسالة، وفي المتن يعرض الكاتب الموضوع الذي تدور حوله الرسالة، أما الخاتمة أو النهاية فيدعو فيها الكاتب بالسلام لمن كتبت إليه الرسالة[٥١].

وقد اتخذ الأندلسيون طريقة خاصة بهم في بناء رسائلهم، وجعلوا لها شكلاً جديداً يختلف في بعض جزئياته عما شاع في الرسائل المشرقية، إذ ابتعدوا في معظم رسائلهم عن تقليد المشارقة في بناء الرسائل، من حيث البدء بالبسملة والتحميدات والصلاة علىْ الرسول عليه السلام.

وكانت بعض رسائل كتّاب دانية والجزائر الشرقية، تبدأ بعبارة (سلام عليك) ومن الأمثلة على ذلك رسالة ابن غرسية إلى ابن الخراز التي بدأها بقول[٥٢]:

« سلامٌ عليك ذا الروي المري،....»

وقد تبدأ الرسالة بالدعاء للمرسل إليه، ذكر الجمل الدعائية، ومن أمثلة ذلك، رسالة ابن عبدالبر التي كتبها على لسان علي بن مجاهد العامري إلى المنصور بن أبي عامر يعزيه بوفاة أحد أبنائه، حيث يقول في مقدمتها[٥٣]

«لو استغنى- أعزك الله بالصبر، وأيدك بالنصر- أحد عن التعزية واكتفى مصاب عن التسلية».

وقد نجد بعض الكتاب يبدؤون رسائلهم بالتحميدات متبعين نهج الكتاب

---

(٥٠) انظر: فايز القيسي، أدب الرسائل في الأندلس، ص٨٥.

(٥١) انظر: المرجع السابق، ص٨٥.

(٥٢) ابن بسام: الذخيرة ق٣ م٢، ص٧٠٥.

(٥٣) المصدر نفسه، ق٣ م١، ص٢٢١.

المشارقة، ومن الأمثلة على ذلك رسالة ابن أرقم التي بعثها على لسان إقبال الدولة إلي المعز بن باديس صاحب افريقية، إذ يقول في مقدمتها(٥٤):

«الحمد الله تيّمناً بحمده، وتحدّياً لحدّه، الهادي من ارتضاه سُبُلَ رضاه، الحادي من انتقاه إلى علم تقاه...»

أما الأنتقال إلى غرض الرسالة وموضوعها، فنجد أن الكتّاب كانوا يعتمدون بعض الكلمات أو العبارات أو الجمل، التي يتخلصون بها من المقدمات إلى الغرض، وقد اتخذ الكتاب طريقتين أو منهجين في ذلك: أولهما أن يبدأ الكاتب بكلمة كتابي أو كتبت أو ما شابهها من ألفاظ تدل على هذا المعني(٥٥).

ومن الأمثلة على ذلك، رسالة مجاهد العامري إلى المعتضد، وهي من انشاء ابن عبدالبر، حيث يقول(٥٦): «كتابي -أعزك الله- عن حال قد أطلَّ جناحها».

ومن هذه الرسائل أيضاً رسالة إقبال الدولة إلى المعتصم بن صمادح وهي من إنشاء أبي عبدالله محمد بن خلصة، حيث يقول(٥٧):

« كتبت -أدام الله إعزازك، وصان ارتياحك للمحامد واهتزازك»

أما الطريقة الثانية التي اتبعها الكتاب للتخلص من المقدمات إلى الموضوع فهي ردّ الجواب؛ أي أن يشير الكاتب إلى أنه في رسالته هذه، يرد على رسالة المرسل إليه وكتابه السابق، مثل ذكر كلمة: وافتني، أو وصل أو ما يشير إلى هذا المعنى(٥٨).

ومن الأمثلة على ذلك رسالة إقبال الدولة إلى المعتضد، حيث يخبره فيها

---

(٥٤) ابن بسام، الذخيرة، ق٣ م١، ص٣٧٢.

(٥٥) انظر: الكلاعي: أبو القاسم محمد بن عبدالغفور الإشبيلي الأندلسي (ت ق٦هـ): إحكام صنعة الكلام، تحقيق، محمد رضوان الداية، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٥، ص٧٨.

- فايز القيسي: أدب الرسائل في الأندلس، ص٣٧١.

(٥٦) ابن بسام، الذخيرة ق٣ م١، ص١٢٩.

(٥٧) المصدر نفسه، ق٣ م١، ص٣٢٢.

(٥٨) الكلاعي: إحكام صنعة الكلام، ص٧٩، فايز القيسي، أدب الرسائل في الأندلس، ص٣١٧-٣١٨.

بوصول كتابه الذي سبق أن بعثه إليه، والرسالة من إنشاء ابن أرقم حيث يقول([59]):
«وافتني- أيَّدك الله- مساهمتك الكريمة ومشاركتك السليمة...»

ومن الأمثلة الأخرى على هذا اللون من التخلص، رسالة مجاهد العامري إلى مقاتل العامري الذي أهدي لمجاهد مهراً، فيرد مجاهد بهذه الرسالة على مقاتل يخبره بوصول المهر، وهي من انشاء ابن أرقم، الذي يقول([60]): « وَصَلَ -أيدك الله- البِرُّ المولي على الأرب، أتى الورد المحلى بالذهب...»

أما خاتمة الرسالة فتختلف من كاتب لآخر، ولكن معظمها يدور حول الدعاء للمرسل إليه. ومن الأمثلة على ذلك رسالة ابن عبدالبر إلى المظفر بن الأفطس على لسان إقبال الدولة حيث يختتمها بقوله([61]).« والله يصل ما بيننا بالدوام والثبات، ويحرسه من الانصرام والانبتات»

ونجد ذلك أيضاً في رسالة ابن عبدالبر على لسان إقبال الدولة إلى المنصور بن أبي عامر، حيث اختتمها بالدعاء للمرسل إليه لتبقى هذه العلاقة قائمة، ويدعو الله لحماية هذه العلاقة، فيقول([62]): «والله يحرس حظي من وفائك، ويرفع المضارّ عن جَوْبائك بمنّه».

وقد نجد بعض الكتاب من يختتم رسالته بأبيات من الشعر كما فعل ابن غرسية في رسالته الشعوبية([63]).

ب- استخدام الجمل الدعائية والمعترضة

لقد أكثر الكتاب الأندلسيون في دانية والجزائر الشرقية من استخدام الجمل الدعائية والمعترضة في رسائلهم بصورة عامة، وقد تضمنت هذه الجمل تعظيم الله

---

(٥٩) ابن بسام، الذخيرة، ق٣ م١، ص١٥٠.

(٦٠) المصدر نفسه، ق٣ م١، ٣٦٥.

(٦١) المصدر نفسه، ق٣ م١، ص١٦٦.

(٦٢) المصدر نفسه، ق٣ م١، ص١٦٦.

(٦٣) المصدر نفسه، ق٣ م١، ص٧١٤، عبدالسلام هارون، نوادر المخطوطات، ص٢٤٦.

سبحانه وتعالى، والدعوة للمرسل إليه بالقوة والمنعة والنصر والسعادة، وقد تكون الجمل الدعائية خاصة بالمسلمين، والدعاء لهم بأن يحفظهم الله ويحميهم من أعدائهم. أما الجمل المعترضة فقد يأتي بها الكاتب بين عبارات رسالته وهي في أغلبها جمل دعائية(٦٤).

ومن الأمثلة على ذلك قول ابن عبدالبر على لسان علي بن مجاهد في رسالته إلى المنصور بن أبي عامر حيث يقول(٦٥): «وإن الموفق مولاي -رضي الله عنه- كان رمى إليّ بعهده...»

ومن الرسائل الأخرى التي ظهرت فيها الجمل الدعائية رسالة كتبها أبو عامر بن التاكرني على لسان إقبال الدولة إلى المعز بن باديس، يقول فيها(٦٦): «أطال اللهُ بقاءَ سيدنا الأجلّ، رافع أعلام الهدى، ومحيي كلمة التقوى، وقوام أمر الدين، ونظام شمل المسلمين...»

وقد لاحظنا أيضاً في بناء الرسائل أن الكثير من الكتاب يستخدمون الجمل الدعائية في خواتيم هذه الرسائل.

ـ- التنويع بين الشعر والنثر

زاوج الكتاب في دانية والجزائر الشرقية بين الشعر والنثر في كتاباتهم ورسائلهم الفنية، وضمنوا رسائلهم أبياتاً، ومقطوعات شعرية مختلفة، تتناسب وموضوع الرسالة وهدفها، وكانوا يهدفون من وراء ذلك التدليل على المعاني التي يأتون بها، والتأكيد على الأفكار التي يبسطونها(٦٧).

ويشير الكلاعي إلى أن الشعراء كانوا يضمنون رسائلهم أبياتاً شعرية من

---

(٦٤) الكلاعي: إحكام صنعة الكلام، ص٨١، فايز القيسي: أدب الرسائل في الأندلس، ص٣٢٠.

(٦٥) ابن بسام: الذخيرة، ق٣ م١، ص١٦٩.

(٦٦) المصدر نفسه، ق٣ م١، ص٢٤٥.

(٦٧) فايز القيسي، أدب الرسائل في الأندلس، ص٣٢٢.

نظمهم أو أبياتاً شعرية لشعراء آخرين، وخاصة الشعراء المشارقة[68]

ويختلف موقع هذه الأشعار في الرسالة، فقد تكون في بداية الرسالة، وقد تكون في العرض وأثناء تناول موضوع الرسالة، وقد تكون في الخاتمة والنهاية.

ومن الأمثلة على الرسائل التي زاوج فيها الكتاب بين الشعر والنثر رسالة ابن أرقم إلى الفقيه أبي بكر بن صاحب الأحباس ، التي يتحدث فيها عن العلماء والأدباء الذين انتقدوا رسالته إلى المعز بن باديس صاحب إفريقية، حيث يقول مضمناً ذلك شعراً يؤكد صحة استخدامه كلمة الأرج[69]: «ومن مضحكاته وضعه (أرجها) مكان ريّاها) والأرَجْ طيب الرائحة، وعطرها، قال كثير:

تأرّجَ الحي إذ مرّتْ بظعنهِمُ ليلى ونمَّ عليه العنبر العَبِقُ[70]

وقد ظهر هذا التضمين للشعر في هذه الرسالة في أكثر من موضع حيث يجعل هذا الشعر دليلاً وبرهاناً، على صحة استخدامه لهذه اللفظة أو تلك، فحين ينتقده ابن سيده على استخدامه كلمة (تحدّياً) في رسالته يرد عليه مستشهداً بالشعر، فيقول[71]: «ويكفي في هذا قول بشار في سيبويه:

أسيبويه يا ابن الفارسية ما الذي تحدّيت من شتمي وما كنت تنبذُ[72]

وتظهر في هذه الرسالة الكثير من الأمثلة والشواهد الشعرية التي جاء بها كاتبها أدلة والبرهين على صحة ما جاء به من لفظ أو معنى أو استعارة أو تركيب[73].

أما رسالة ابن سيده، التي ناقض بها ابن أرقم رسالته السابقة، فقد ضمنها أبياتاً شعرية، جعلها في مواضع مختلفة، وجاءت دليلاً أو برهاناً على تأكيد ما وقع فيه ابن أرقم من أخطاء لغوية أو نحوية أو بلاغية[74].

(٦٨) إحكام صنعة الكلام، ص٧١.

(٦٩) ابن بسام، الذخيرة، ق٣ م١، ص٣٧٨.

(٧٠) ديوان كثير عزّة، تحقيق إحسان عباس، بيروت، ١٩٧١، ص٤٦٧.

(٧١) ابن بسام: الذخيرة، ق٣ م١، ص٣٧٢.

(٧٢) ديوان بشار بن برد (جمع بدر الدين العلوي) بيروت، ١٩٦٣، ص٩٨.

(٧٣) انظر ابن بسام: الذخيرة، ق٣ م١، ص٣٦٧-٣٨٩.

(٧٤) انظر: المصدر نفسه، ق٣ م١، ص٣٨٩-٣٩٢.

وقد ظهر التنويع بين الشعر والنثر في رسالة ابن غرسية في هجاء ابن الخراز التي هجابها العرب ومدح العجم، حيث يتحدث مفتخراً بقومه فيقول مستشهداً بالشعر(٧٥): « ألقيتهم ذَمَرة الناس، عند احمرار الباس، الطعن بالأسَلِ، أحلى من العسل

مستسلمين إلى الحتوف كأنما بين الحتوف وبينهم أرحام »(٧٦) »

وتستمر هذه الرسالة على هذا النهج، حيث يتناول فكرة أو معنى، ويعززها ببيت من الشعر أو مقطوعة شعرية، وقد ختم رسالته هذه بأبيات شعرية(٧٧).

والمتتبع لهذه الرسائل في دانية والجزائر الشرقية والأندلس بشكل عام يجد كثيراً من الشواهد الشعرية التي ضمنها الكتاب رسائلهم، لتأكيد المعاني التي يذهبون إليها، أو للدلالة عى الأفكار التي يطرحونها.

ويعد هذا التنويع بين الشعر والنثر دليلاً من الكتاب الاندلسيين على قدرتهم على الجمع بين المنظوم والمنثور. كما يُعَدُّ الجمع بين المنثور والمنظوم في الرسالة محاولة لجلب انتباه القارئ، ودفع السأم والملل عنه(٧٨)

ويمكن القول أن «تضمين الرسائل أشعار المشارقة يجعل للرسالة قيمة كبيرة في نظر الأندلسيين، ويكشف عن مدى تقديرهم واعجابهم للمبرزين من شعرائهم»(٧٩).

---

(٧٥) المصدر نفسه، ق٣ م٢، ص٧٠٨.

(٧٦) البيت لأبي تمام، انظر: ديوان أبي تمام، تحقيق: محمد عبده عزام، مصر ١٩٥١-١٩٦٥، ج٣، ص١٣٦.

(٧٧) انظر، ابن بسام: الذخيرة، ق٣ م٢، ص٧٠٥-٧١٤.

(٧٨) فايز القيسي: أدب الرسائل في الأندلس، ص٣٢٦.

(٧٩) المرجع نفسه، ص٣٢٧.

د. الاقتباس والتضمين

كان للقرآن الكريم والحديث الشريف أثر كبير في أساليب الكتاب في دانية والجزائر الشرقية، وقد تجلى هذا الأثر في اهتمامهم بالاقتباس من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف عند كتابتهم لرسائلهم. واتخذ هذا الاقتباس طريقتين: الطريقة الأولى: الاقتباس من القرآن الكريم والحديث الشريف نصاً ولفظاً. والطريقة الثانية: ايراد هذه الآيات والأحاديث دون النص بلفظها وعباراتها[80].

وكانت هذه الظاهرة بطريقتيها واضحة في معظم موضوعات الرسائل وأغراضها ومن الأمثلة على الطريقة الأولى رسالة ابن مسلم (طي المراحل) التي يقول في بعض فقراتها[81]: « لما صفا الحصن الفلاني إلى مَنْ أيده الله أجلب عليه المقتدر بخيله ورَجله، وأحدق حوله بضبطه ومنعه، حتى صار كالسماء ملئت حرساً شديداً وشهباً، (فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصدا)[82]، فدعا إقبال الدولة إخوانه لانجاده... »

وفي الرسالة نفسها يقول الكاتب مقتبساً بعض آيات القرآن الكريم[83]: «وحسبنا أن يكون من أصحاب المشئمة، فتواصينا بالصبر والمرحمة، وتذكرنا قوله تعالى «وأما إنْ كان من أصحاب اليمين، فسلام لك من أصحاب اليمين»[84] فأخذنا يمنة الطريق... »

ويظهر الاقتباس أيضاً في رسالة ابن أرقم التي أنشاها على لسان إقبال الدولة إلى المعتضد حيث يقول[85]: «وقال الله تعالى لنوح عليه السلام بعد قوله «إنَّه ليس من أهلك، إنَّه عملٌ غيرُ صالحٍ. فلا تَسْئَلْنِ ما ليس لك به علمٌ إنّي أعِظُك أن تكونَ من

---

(٨٠) فايز القيسي: أدب الرسائل في الأندلس، ص٣٢٧.

(٨١) ابن بسام، الذخيرة، ق٣ م١، ص٤٢٩.

(٨٢) سورة الجن، آية ٩.

(٨٣) ابن بسام، الذخيرة، ق٣ م١، ص.٤٣٠.

(٨٤) سورة الواقعة، آية (٩٠-٩١).

(٨٥) ابن بسام: الذخيرة، ق٣ م١،ص١٥٢.

الجاهلين»([86]) وقوله للخضر عليه السلام، «فأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا ربُّهُما خَيْراً منه زكاةً وأقْرَبَ رُحْماً([87])».

ومن الأمثلة على الاقتباس ماورد في رسالة أبي محمد بن عبدالبر التي كتبها عن إقبال الدولة إلى المعتصم بن صمادح، حيث يقول فيها([88]): « ولنا في رسول الله -عليه السلام- أسوة حسنة، وفيما قاله في مثل هذه قدوة يقتدي بها، وسنة يحتذي عليها، إذ تلا قوله تعالى «وهو الذي خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً([89])».

ومن الأمثلة على الاقتباس من الحديث الشريف ما ورد في الرسالة السابقة، حيث يقول الكاتب على لسان إقبال الدولة مبيناً مكانة ابنته عنده([90]): «وقال – عليه السلام – (إنما فاطمة بضعة منّي، فمن أكرمها فقد أكرمني، ومن أهانها فقد أهانني) اللهمّ بارك لها وبارك عليها».

ونجد أمثلة كثيرة على هذه الطريقة في الاقتباس من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف([91]).

ومن الأمثلة على الطريقة الثانية، ما نجده في رسالة ابن مسلم (طي المراحل)، حيث يصف شدّة المطر قائلاً([92]): «فإذا بصمّاء منه قد انكدرت، فأمطرت علينا حجارة من سجيل، كادت تجعلنا كعصف مأكول، فقومٌ شدخت رؤوسهم، وقومٌ ضُمّت عليهم رؤوسهم، كأنّهم كانوا بقية من أصحاب الفيل» حيث نجد أنّ ما ورد من ألفاظ وتراكيب في الفقرة السابقة مستمدّة من القرآن الكريم من سورة الفيل، ولكنهما لم ترد بنصّها، بل تصرّف الكاتب بكلماتها ونثرها في رسالته.

---

(٨٦) سورة هود، الآية ٤٦.

(٨٧) سورة الكهف، الآية ٨١.

(٨٨) ابن بسام: الذخيرة ق٣ م١، ص١٢٨.

(٨٩) سورة الفرقان، الآية ٥٤.

(٩٠) ابن بسام، الذخيرة، ق٤ م١، ص١٢٨.

(٩١) انظر: ابن بسام، الذخيرة، ق٣ م١، ص٣٦٧، ق٣ م١، ص٤٢٧-٤٤٨.

(٩٢)المصدر نفسه، ق٣ م١، ص.٤٣.

وفي جزء آخر من هذه الرسالة، يقول واصفاً المطر وشدّة انهماره([93]).

" والتقى الماء بالماء، فكلما أوينا إلى جدار كاد ينقضُ، أو لجأنا إلى قرار خسفت به الأرض، وقلنا سنأوي إلى جبل يعصمنا من الماء، ويقينا معرّة هذه البأساء"

ففي قوله " سنأوي إلى جبل يعصمنا من الماء" اقتباس من قوله تعالى على لسان ابن نوح عليه السلام « سآوي إلى جبل يعصمني من الماء »([94]).

ومهما يكن من أمر، فإنّ هذه الرسالة حافلة بالاقتباس من القرآن الكريم بهذه الطريقة.([95]).

أمّا التضمين، فإننا نجد أنّ عدداً من الكتّاب في دانية والجزائر الشرقية قد عنوا بهذا الفنّ، إذ ضمّنوا رسائلهم بعض الأمثال الحكم الشعرية والنثرية والأقوال المأثورة. من الأمثلة على هذا التضمين ما ورد في رسالة أبي محمد بن عبدالبر عن إقبال الدولة إلى المظفر بن الأفطس، التي يقول فيها([96]): "إذا تشاكلت - أيّدك الله - الأحوال والضروب، تقاربت الأهواء والقلوب، وقد قيل: الشكوك أقارب والمذاهب مناسب"

وهناك أمثلة أخرى على التضمين في رسالة ابن غرسية([97])، ورسالة (طي المراحل) لابن مسلم([98]).

---

(٩٣) ابن بسام، الذخيرة، ق٣ م١، ص٤٣٨.

(٩٤) سورة هود: الآية ٤٣.

(٩٥) انظر: الرسالة في الذخيرة، ق٣ م١، ص٤٢٧-٤٤٨.

(٩٦) ابن بسام، الذخيرة، ق٣ م١، ص١٦٦.

(٩٧) انظر: المصدر نفسه، ق٣ م٢، ص٧٠٥-٧٤١.

(٩٨) انظر: المصدر نفسه، ق٣ م١، ص٤٢٧ -٤٤٨.

حذا الكتّاب في دانية والجزائر الشرقية حذو الكتّاب الأندلسيين الآخرين، في ميلهم إلى السهولة والوضوح في اختيار ألفاظ رسائلهم وتراكيبها، والابتعاد عن التعقيد والغرابة والوحشية في الألفاظ التي تخل بفصاحة الكلام(٩٩).

وقد أثرت البيئة الأندلسية وطبيعتها الجميلة في هؤلاء الكتاب، فجاءت ألفاظهم سهلة واضحة بعيدة عن الغموض والتعقيد متفقة وميولهم النفسية والاجتماعية وأحوالهم العامة الفكرية والسياسية(١٠٠).

وقد ظهرت هذه الصفة بوضوح في رسائل الاتجاه السياسي ورسائل الاتجاه الاجتماعي من تهنئة وتعزية ورثاء، ورسائل وصف الطبيعة وغيرها.

ومن الأمثلة على ذلك رسالة إقبال الدولة إلى المعتصم بن صمادح، وهي من إنشاء أبي عبدالله بن خلصة، حيث كانت في جميع فقراتها واضحة سهلة، لا غموض فيها ولا تعقيد، حيث يقول(١٠١): « كتبت أدام الله إعزازك، وصان ارتياحك للمحامد واهتزازك، بعد قفول من قفل عنك، وحلول من صدر بما شرح الصدور من لدنك، والحال شاملة الصلاح...».

ثم يقول معبراً عن فرحته بالأخبار السارة التي وصلته عن المعتصم(١٠٢): «ثُمَّ استوصفتهم التذاذاً بطيب أنبائك، صورة مجلسك مع وزرائك وأحبائك، فأوردوا من ذلك ما هو أشهى من السعادة، وأحلى من الحياة المعادة...».

والرسالة بشكل عام تستمر على هذا النهج من وضوح الألفاظ وسهولتها

---

(٩٩) انظر: ابن الأثير، أبو الفتح نصر الله الجزري (ت٦٣٦هـ): المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: محمد محي الدين عبدالحميد، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٣٩، ج١، ص١٦٨-١٩٢.

(١٠٠) انظر: صلاح خالص: اشبيلية في القرن الخامس الهجري، بيروت، دار الثقافة، ١٩٦٥، ص٨٥، فايز القيسي: أدب الرسائل في الأندلس، ص٣٣٩.

(١٠١) ابن بسام: الذخيرة ق٣ م١، ص٣٢٢.

(١٠٢) المصدر نفسه، ق٣ م١، ص٣٢٣.

وابتعادها عن الغريب والحوشيّ.

ومن الرسائل الأخرى التي جاءت ألفاظها واضحة سهلة مبتعدة عن الغرابة والتعقيد، رسالة ابن عبدالبر عن إقبال الدولة إلى المنصور بن أبي عامر الأصغر معزياً بوفاة ابنه، حيث يقول(١٠٣):

«لو استغنى -أعزك الله بالصبر وأيدك بالنصر- أحد عن التعزية واكتفى مصاب عن التسلية، لأصالة رأي، وسعة علم، وجلالة قدر، وجزالة نفس، وشدة كظم، لكنت أنت الغني عن ذلك...».

ثم يقول في جزء أخر من هذه الرسالة مؤكداً وجوب الصبر وعظم الأجر(١٠٤): «لئن جَلَّ الخطبُ، وعَظُمَ الكرب، فالثواب بقدر المصاب، والعطية بحسب الرزيّة، وإنما الأجرُ بالصبر، والجزاء مع العزاء، وإن كان الله قد أخذ ابناً فقد ترك أبناء.».

ويتحدث الكاتب عن مناقب الفقيد، وكيف خطفه الموت، ويعبر الكاتب على لسان إقبال الدولة عن مشاركته أحزان والده عليه، فيقول(١٠٥): «فإذا خطفت يد الحمام، وأصْمَت به سهام الأيام، أيُّ سماء للعلا فُطِرت، وأي نجم للمنى كُدِّرت، وأي بحرٍ من الأسى سُجِّرتْ، وأي عين للبكاء فُجِّرَتْ ما يقاس به مثيل، ولا يضاف إليه مديل، وقد كان لي أن أصرف المقال وأضرب الأمثال، واجتلب من التعازي ما جاءت به الآثار ووردت به الأخبار، غير أنه أعلى في الفضل يداً، وأثبت في العلم قدماً، وأرجح حلماً، إذا طاشت العقول، وأشدُّ كظما إذا اضطرمت في الصدور النيران».

ونلاحظ أن الفاظ هذه الرسالة جاءت معبرة عن معاني الرثاء والتعزية؛ لأنها بسيطة سهلة لا غموض فيها، ولا تعقيد، وموضوعها لا يحتمل من الكاتب أن يضمنها الألفاظ الغريبة والحوشية، فهو يعبر بوضوح ويسر عن عواطفه وأحاسيسه اتجاه من يقدم له التعزية، ويشاركه أحزانه.

ونجد الرسائل التي اتسمت بوضوح ألفاظها وسهولتها، وابتعادها عن التعقيد

---

(١٠٣) ابن بسام: الذخيرة، ق٣ م١، ص٢٢١.

(١٠٤) المصدر نفسه، ق٣ م١، ص٢٢٢.

(١٠٥) المصدر نفسه، ق٣م١، ص٢٢٢-٢٢٣.

الغرابة، رسالة أبي محمد بن عبدالبر، عن إقبال الدولة إلى المعتصم بن صمادح عندما زفت ابنة علي إلى أحد أبناء المعتصم، يقول فيها(١٠٦)

« فهي الآن ملكك وانت الكريم المسجح... وعندك ثمرة النفس وفلذة الكبد، فارقتها عن شدّة ضنانة، وأسلمتها بعد طول صيانة، وما زُفّت إلا إلى كريم يحملها محمل الأمانة، ويقضي فيها حق الديانة، ويرعى لها انقطاعها عن أهلها، واغترابها عن ملأها ومنشأها، وهو حكم الله الواجب وقدره الغالب، وسنته المشروعة، ومشيئته المتبوعة..».

فقد جاءت ألفاظ هذه الرسالة سهلة واضحة، منسجمة مع غرضها، معبرة عن المعاني الإنسانية النبيلة المتصلة بالمصاهرة والنسب، وقد كان غرض الرسالة واضحاً لا غموض فيه، فالكاتب يصور على لسان إقبال الدولة مشاعره وأحاسيسه نحو ابنته التي فارقته، وهو يوصي صهره بها خيراً، فانعكس هذا الغرض الواضح على ألفاظ الرسالة فجاءت بسيطة سهلة واضحة.

وهناك أمثلة متعددة على رسائل كثيرة اتسمت ألفاظها بالوضوح والسهولة والابتعاد عن التعقيد والغرابة(١٠٧).

وهناك رسائل اتسمت ألفاظها بالصعوبة والتعقيد والغرابة، وقد ظهرت هذه السمة واضحة في رسائل المفاخرات والمناظرات، إذ تستدعي طبيعتها استخدام مثل هذه الألفاظ.

ومن الأمثلة على ذلك رسالة ابن غرسية، التي هجا فيها العرب، فقد حفلت بالكثير من الألفاظ الغريبة والكلمات الصعبة، التي لم يعتد الناس على استخدامها لمخالفتها طبيعة البيئة والعصر، يقول ابن غرسية(١٠٨)

« فما هذا الإعمال للكور، وترك الوُكور، وقلّ ما تأخذ الشّعَرة في الرحيل إلا عن

---

(١٠٦) ابن بسام: الذخيرة ق٣ م١، ص١٢٧-١٢٨، ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ج٢، ص٤٠٢-٤٠٣.

(١٠٧) انظر على سبيل المثال: ابن بسام: الذخيرة: ق٣ م١، ص٩٧، ق٣ م١ ص١٦٥، ق٣ م١ ص١٧١، ق٣ م١، ص٣٦٥، ق٣ م١، ص٤٢٩.

(١٠٨) عبدالسلام هارون: نوادر المخطوطات، ص٢٤٦.

الربع المحيل، ولو أن القوم خلطوك بالآل، لما أحوجكِ إلى الخَبط في الآل، مَهْ مَهْ، مَنْ أحوجك إلى ركوب المَهْمَهِ، وثَقفَ وودك لا تَقَف على مَن اضطرك إلى الايغال، وباعك بيع المسامح بك لا المُغَالِ...».

ويقول الكاتب في جزءٍ أخر من الرسالة، مستخدماً كثيراً من الألفاظ الغريبة(١١٠): « شُرِهوا بربّات السيوف، لا بربّات الشنوف، وبركوب السروج عن الكلب والفرُّوج، وبالنفير عن النقير، وبالجنائب عن الحبائب، وبالخَبِّ عن الخِبِّ، وبالشُّليل عن السُّليل...».

والرسالة حافلة بهذه الألفاظ الصعبة، والتراكيب المعقدة، وكان الكاتب حريصاً على إدخال الكثير من الألفاظ الغريبة في رسالته، وكأن الكاتب يريد أن يقول للعرب وهو يخاطبهم هنا، أنه قادر على استخدام لغتهم بقوة واقتدار رغم أني لست عربياً، فافتخاركم باللغة ليست ميزة لكم، فهناك مَنْ هم قادرون على الاضطلاع بها وتطويعها لكل عصر وبيئة.

وقد كانت بعض الرسائل الأخرى تتسم بجزالة الألفاظ وقوتها ومتانتها، فلم تكن ألفاظها بسيطة كل البساطة، واضحة كل الوضوح، ولم تكن -في المقابل- غريبة معقدة -كما لاحظنا فيما عرضنا من أمثلة.

ومن الرسائل التي نحت هذا المنحى، الرسائل ذات الاتجاه السياسي، التي تناولت العلاقات السياسية بين الأفراد والدول، والرسائل التي وصفت الخصومات والاضطرابات السياسية، وكذلك بعض رسائل المفاخرات مثل رسالة السيف والقلم، وقد جاءت ألفاظ الرسالة الأخيرة جزلة قوية تتناسب وطبيعة موضوعها، حيث وظّفَ الكاتب ألفاظها وتراكيبها توظيفاً جيداً، يخدم المعاني الرفيعة التي جاء بها الكاتب، وأراد وَضْعها بين يدي مجاهد العامري أمير دانية، يقول ابن برد على لسان القلم(١١١): «وهل أنا إلا قطب تدور عليه الدول، وجواد شأوة يدرك الأمل، شفيع كل ملك إلى مطالبه، ووسيلته إلى مكاسبه».

---

(١٠٩) المصدر نفسه، ص٢٤٩.

(١١٠) ابن بسام، الذخيرة، ق١ م١، ص٥٢٤.

ثم يقول على لسان السيف[111]: «لقد تحاول امتداداً بباع قصيرة، وانتفاضاً بجناح كسيرة، أمستغرب والفلسُ ثمنك، ومُسْتَجْلَبٌ وكل بقعة وطنك، جسم عار، ودمع جار». ونلاحظ في هذه الرسالة المتانة والقوة والجزالة في الألفاظ، التي عبر بها الكاتب عن الأفكار التي يريدها في وصف أهمية كلٍّ من السيف والقلم، ولم ينزع الكاتب إلى غريب الألفاظ، أو إلى الألفاظ البسيطة المبتذلة للتعبير عن هذه المعاني.

ونرى سمة جزالة الألفاظ واضحة في رسالة بعثها إقبال الدولة إلى المنصور الصغير بن أبي عامر، وهي من انشاء أبي محمد بن عبدالبر، التي تحدث فيها عن المؤامرة التي حاكها ضده أخوه حسن، للاستيلاء على الحكم في دانية يقول ابن عبدالبر مبيناً كيف نجا إقبال الدولة من هذه المؤامرة[112]: «إلا أن الله كان بإزائي ظهيرا، وتلقَّاني نصيراً، وبين يديّ رِفْداً، ومن ورائي مدداً ورِدءاً، فما كان إلا أن تساقط فراشُهُم في مصابيح الفرج، وأُتْعِسَتْ شُبَهُهُم في موارد الثلج، وفُزْتُ وقد انجلت الكرة عليهم...».

ونلاحظ من خلال هذه الرسالة اهتمام الكاتب باختيار الألفاظ الجزلة المعبرة الدالة على المعنى، دون أن تصل إلى التعقيد والغموض أو تنزل إلى درجة البساطة والسهولة.

وهنا رسائل متعددة اهتم الكتاب فيها بالألفاظ الجزلة القوية المتينة[113].

---

(١١١) المصدر نفسه، ق١ م١، ص٥٢٥.

(١١٢) المصدر نفسه، ق٣ م١، ص١٧٠.

(١١٣) انظر: ابنْ بسام، الذخيرة، ق٢ م١، ص١٢٩، ق٣ م١، ص٣٦٢، ق٣ م٢، ص٧٦٧، ق٣ م١، ص٤٢٧.

ومال كتاب دانية والجزائر الشرقية إلى استخدام المحسنات اللفظية، من سجع وجناس في كتاباتهم ورسائلهم التي تناولت مختلف الموضوعات والأغراض.

وقد استفاد هؤلاء الكتاب من السجع ووظفوه توظيفاً جيداً ليكون عنصراً من العناصر الجمالية اللفظية والموسيقية في رسائلهم، وقد جاء هذا الاستخدام مناسباً ومقبولاً، يخلو من التكلف والصنعة، ولم يكن على حساب المعاني التي تناولها الكتاب(١١٤).

ولقد جاء استخدام هذه المحسنات اللفظية مؤشراً على ثقافة الكاتب اللغوية وثقافته العلمية بشكل عام، لأن استخدام السجع دون تكلف يعني قدرة الكاتب على استيعاب الثقافة الأدبية والفكرية وتوظيفها في كتاباته.

ومن الأمثلة على استخدام السجع، ما ورد في رسالة أبي محمد بن عبدالبر عن إقبال الدولة إلى المنصور الصغير بن أبي عامر التي تحدث فيها عن غدر أخيه حسن به، يقول واصفاً مكانة أخيه من قلبه قبل هذه الحادثة(١١٥): «... على أنه كان بين الجفن والناظر نازلاً، وبين الضمير والخاطر جائلا، قد قاسمته العيش، نصفين، والحياة شطرين، له النوم ولي السهر، وله الأمن ولي الحَذر، وله الصفو ولي الكدر، أشقى لينعم، وأُمْتَهَنُ ليكْرم». فقد استخدم الكاتب السجع في الفقرة السابقة وجاءت الرسالة في معظم فقراتها قائمة على السجع المتناسق الطبيعي دون تكلف أو تعقيد لفظي، وجاء هذا السجع ليخدم المعاني والمقارنات والمقابلاتِ التي أظهرها الكاتب في رسالته.

ومن الأمثلة على السجع ما جاء في رسالة ابن أرقم، عن إقبال الدولة إلى المعتضد يهنئه بنجاته من مؤامرة ابنه اسماعيل عليه، يقول(١١٦). «وكثيراً ما شهدنا

---

(١١٤) انظر: محمد عبدالمنعم جفاجي: الأدب الأندلسي (التطور والتجديد)، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط١، م١٩٩٢، ص٣١.

(١١٥) ابن بسام: الذخيرة، ق٣ م١، ص١٧١.

(١١٦) المصدر نفسه، ق٣ م١، ص١٥١.

وسمعنا بقاتل نفسه، وهي أكرم النفوس عليه، وأكل جسمه، وهو أحب الجسوم إليه، وقد يفيض الداء من الدواء، ويشرق المرءُ بالماء، ويؤتى الحذر ما مأمنه، ويجتنى القبيح من حسنه...».

ويظهر السجع في الرسائل التي تناولت الصراع والجهاد مع الصليبيين، وقد ظهر هذا في الرسالة التي كتبها ابن أرقم عن إقبال الدولة إلى المعز بن باديس، حيث يصف الصراعات والحروب والفتن التي اجتاحت الأندلس، يقول(١١٧): « وقد علِمَ مبتلي السرائر، وحافظُ البواطن والظواهر، أنها بصيرتي التي استشعر، وسريرتي التي أُضمر، وحقيقتي التي أخفي وأظهر...» وفي فقرة أخرى من الرسالة يقول الكاتب(١١٨): « ومما وجب التعريف به ما عمّ أقطار ثغرنا، وغشى مجامع أفقنا، من تمالؤ النصارى وتضافرهم من كل أوب إلينا، بجمع لا عهد بمثله، ملأ الفضاء، وطبّق الأرجاء، وشغلنا بالفتنة بيننا عن تخفيف وطأتهم وتضعيف سورتهم...».

ومهما يكن من أمر فقد ظهر السجع في معظم رسائل القرن الخامس الهجري في الأندلس، وقد أحسن الكُتّاب، الأندلسيون استخدامه، فجاء بعيداً عن التكلف والصنعة(١١٩).

أما الجناس فقد استخدمة كُتّاب دانية والجزائر الشرقية بصورة كبيرة في رسائلهم، وكان الجناس عندهم وسيلة من وسائل تزيين الكلام وزخرفته وتحسينه.

ومن الأمثلة على استخدام الجناس عند كتاب دانية ما ورد في رسالة ابن خلصة التي كتبها عن إقبال الدولة إلى المعتصم به صمادح، حيث يقول(١٢٠): «. أيُّ برٍّ -أعزك الله- يُعارَضُ به برُّك، وقد عُرِضَ في المكارم بَرُّك وبحرك... أم أيّ عَرْفٍ يكون جزاء عرفك وقد فغَم الخاضعين ريًا عَرْفك».

---

(١١٧)المصدر نفسه، ق٣ م١، ص٣٦٢.

(١١٨) المصدر نفسه، ق٣ م١، ص٣٦٣.

(١١٩) انظر: المصدر السابق، ق٣ م١، ص١٦٥، ق٣ م١، ص٢٩٣، ق٣ م١، ص٣٢٣، و انظر: كذلك رسالة ابن غرسية في نوادر المخطوطات، ص٢٤٦-٢٥٤.

(١٢٠) ابن بسام: الذخيرة، ق٣ م١، ص٣٢٤.

فقد جانس الكاتب بين كلمتي (بِرُّك وبَرُّك) فبِرٌّ بمعنى الخير والعطاء والإحسان والبَرُّ الأرض اليابسة التي مضادها البحر. وكذلك جانس الكاتب جناساً ناقصاً بين كلمتي عُرْف وعَرْف.

أما ابن برد فقد استخدم الجناس في رسالة السيف والقلم ، ومن الأمثلة على ذلك قوله على لسان السيف[121]: «أمستعرب والفلس ثمنك، ومُسْتَجلب وكل بقعة وطنك، جسم عارٍ ودمع بارٍ...». فقد جانس الكاتب جناساً ناقصاً بين كلمتي (عارٍ) و (بارٍ).

وقد جانس ابن أرقم بين كلمتي (دَلق) و (زلق) جناساً ناقصاً في إحدى رسائله، حيث يقول[122]: «فقلت: حسام دلق، وسنان زلق، وشباب عصف، وجواد جمح فأسرف...».

وجانس ابن عبدالبر جناساً ناقصاً بين كلمتي (عقد) و (عهد) في إحدى رسائله، حيث يقول[123]: «وخروج صاحبها عنها من غير عقد عاصم، ولا عهد لازم...».

وكان الطباق من المحسنات البديعية التي استخدمها الكُتّاب في مدينة دانية والجزائر الشرقية للتعبير عن المعاني وإيضاحها، شأنهم في ذلك شأن الكتاب الآخرين في الأندلس.

ومن الأمثلة على الطباق في رسائل هؤلاء الكتاب ما نراه في رسالة ابن عبدالبر عن علي بن مجاهد إلى المعتصم بن صمادح بمناسبة زفاف ابنته، حيث يقول[124]: « وأنا أسال الله في متوجهها ومنقلبها الرعاية الموصولة بك...» حيث طابق الكاتب بين كلمتي (متوجهها) و (منقلبها) لتضادهما في المعنى.

ويظهر ذلك أيضاً في رسالة ابن عبدالبر عن علي بن مجاهد إلى المنصور بن

---

(١٢١) المصدر نفسه، ق٣ م١، ص٥٢٥.

(١٢٢) المصدر نفسه ق٣ م١، ص١٥٠.

(١٢٣) المصدر نفسه، ق٣ م١، ص١٢٩.

(١٢٤) ابن بسام، الذخيرة، ق٣ م١، ص١٢٧.

أبي عامر، حيث يقول(١٢٥): «ويعلم أنها على الأيام صقيلة الأرجاء، لا يصدئها الإهمال، صدقة المضارب لا يفلّها الإعمال...».

فقد طابق الكاتب بين كلمتي (الإهمال و (الإعمال).

ثم يقول فيها(١٢٦): «ووثق بأنه ورد ورداً لا تكدِّره الدّلاء، واعتقد عقداً لا يغيره الإصباح والإمساء».

حيث يظهر الطباق بين كلمتي: الإصباح والإمساء.

وقد استخدم ابن عبدالبر الطباق في الرسالة التي كتبها على لسان إقبال الدولة إلى المنصور بن أبي عامر، التي أعلمه فيها بغدر أخيه حسن، حيث يقول(١٢٧): «على أنه كان بين الجفن والناظر نازلاً، وبين الضمير والخاطر حائلا، قد قاسمته العيش نصفين، والحياة شطرين، له النوم ولي السهر، وله الأمن ولي الحذر، وله الصفو ولي الكدر، أشقى لينعم، وأمتهن ليكرم...».

فقد طابق الكاتب بين كلمتي النوم والسهر، والأمن والحذر، الصفو والكدر، وكلمتي (اشقى لينعم)، و (امتهن ليكرم) وكلها جاءت هنا لتنقل المعنى الذي أراده الكاتب وهو يُعقد مقارنات عجيبة بين الأثنين، بين نفسه وأخيه.

ويظهر الطباق في رسالة ابن خلصة عن إقبال الدولة إلى المعتصم بن صمادح، حيث يقول فيها(١٢٨): «أي بر -أعزك الله- يُعَارض به برُّك، وقد عَرُضَ في المكارم بَرُّك وبحرك».

فقد طابق الكاتب بين كلمتي (برك) و (بحرك).

وفي رسالة ابن أرقم عن إقبال الدولة إلى المعز بن باديس، تظهر بعض الأمثلة على الطباق، حيث يقول(١٢٩): «... إلى أن ارتقيت إلى سمائها، وصعدت في سوائها،

---

(١٢٥) المصدر نفسه، ق٣ م١، ص١٦٥.

(١٢٦) المصدر نفسه، ق٣ م١، ص١٦٦.

(١٢٧) المصدر نفسه، ق٣ م١، ص١٧٠.

(١٢٨) المصدر نفسه، ق٣ م١، ص٣٢٤.

(١٢٩) المصدر نفسه، ق٣ م١، ص٣٦١.

مستهلاً وعر المرتقى لسهل الملتقى، ومستعذباً مُرَّ المجتلى لحلو المجتنى..».

فقد طابق الكاتب بين كلمتي (وعر وسهل) وكلمتي (مُرّ وحلو).

ثم يقول فيها أيضاً(١٣٠): «وقد علم مبتلي السرائر، وحافظ البواطن والظواهر، أنّها بصيرتي التي استشعر، وسريرتي التي أضمر، وحقيقتي التي أخفي وأظهر، وشريعتي التّي بها أسِرُّ وأُجهر...».

فقد طابق الكاتب بين كلمتي (البواطن) و (الظواهر) وكلمتي (أخفي واظهر) وكلمتي (أسِرُّ وأُجهر).

وهناك أمثلة أخرى على الطباق في عدد كبير من الرسائل الأخرى(١٣١).

وكان فن المقابلة من الوسائل التي اتبعها كتّاب دانية والجزائر الشرقية في التعبير عن المعاني وتوضيحها، حيث يعتمد الكاتب في ذلك أسلوب المقابلة بين شيئين أو أمرين مختلفين.

ويظهر هذا الفن في رسالة ابن غرسية في هجاء ابن الخراز، حيث ينتصر فيها لقومه من العجم، ويهجو العرب، فيقابل الكاتب بين العرب في العصور السابقة، وقومه من الروم والفرس في تلك العهود، من حيث ماكلهم ومشربهم ومسكنهم وطبيعة حياتهم، فيقول(١٣٢): «وما دريت أنهم الصُّهْبُ الشُّهْبُ، ليْسُوا بعُرْب، ذوي أيْنُقٍ جُرْب بل هم القياصرة الأكاسرة ، مُجَدٌ نُجد، بُهَم لا رعاةُ شويهات، ولا بَهَم».

لقد وظّف الكاتب فن المقابلة لخدمة المعاني التي أرادها من رسالته هذه، التي قامت على نقيضين: هجاء العرب والفخر بالعجم.

أما الخيال والصور البيانية فقد ظهرا بوضوح في كثير من الموضوعات التي تناولتها الرسائل، ومنها رسائل المفاضلات المفاخرات، كرسالة السيف والقلم ورسالة ابن غرسية، ورسائل وصف الطبيعة ووصف الرحلات وغيرها.

ومن الأمثلة على هذه الصور قول ابن برد على لسان السيف، وهو يصور الأجل

---

(١٣٠) المصدر نفسه، ق٣ م١، ص٣٦٢.

(١٣١) انظر أمثلة على الطباق في الذخيرة، ق٣ م١، ص٣٦٥، ص٣٨٤، ص٣٨٩، ص٤٢٧.

(١٣٢) ابن بسام، الذخيرة، ق٣ م٢، ص٧٠٦، نوادر المخطوطات، ص٢٤٧.

بإنسان عابس الوجه متجهماً(١٣٣): «والبطل قد خرس وابتسم، والأجل قد عبس....»

ويشخص الكاتب القلم في صورة انسان يشفع عند الملوك والأمراء لكل محتاج يقول(١٣٤). «وهل أنا إلا قطب تدور عليه الدول، وجوادٌ شأوه يدرك الأمل، شفيع كل ملك إلى مطالبه، ووسيلته إلى مكاسبه...».

ثم يصور الكاتب القلم على لسان السيف بإنسان باعه قصيرة، وبطائر مكسور الجناح لا يستطيع الطيران، حيث يوظف هذه الصورة في إظهار عجز القلم وضعفه، مقارنة مع السيف الذي تعرفه أرض المعركة، وعليه تقوم دعائم الدولة وأركانها، فيقول(١٣٥): «لقد تحاول امتداداً بباع قصيرة، وانتفاضاً بجناح كسيرة، أمستعرب والفلس ثمنك...».

ثم يتكئ الكاتب على الاستعارة التمثيلية في تصوير مكانة القلم وقيمته، فالحجم والثمن الزهيد ليسا مقياسا على القيمة الحقيقة للشيء، فقد يكون رخيص الثمن، لكنه عالي القيمة، فالذهب وهو غالي الثمن مكانه التراب، والماء رخيص الثمن لكنه أصل الحياة. فيقول الكاتب على لسان القلم(١٣٦): «إلا أن الذهب معدنه في العفر، وهو أنفس الجواهر، والنار مكمنها في الحجر وهي إحدى العناصر، وإن الماء هو الحياة أكثر المعايش وجداناً وأقلها أثمانا...».

ويلجأ الكاتب إلى التشخيص في وصف القلم على لسان السيف، فيجعله إنساناً ذا وجه لئيم، وجسم نحيل ودموع سجيمة، وفي صورة أخرى يجعله إنساناً نائماً صائماً يُطلب منه أن يصحو من هذا النوم، ويفطر من هذا الصوم، يقول(١٣٧): «وجه لئيم، وجسم سقيم، ودموع سجام كأنهن سُخام، فَهُبَّ من نومك وافطر من صومك...».

---

(١٣٣) المصدر نفسه، ق١ م١، ص٥٢٤.

(١٣٤) المصدر نفسه، ق١ م١، ص٥٢٤.

(١٣٥) المصدر نفسه، ق١ م١، ص٥٢٤.

(١٣٦) المصدر نفسه، ق١ م١، ص٥٢٥.

(١٣٧) المصدر نفسه، ق١ م١، ص٥٢٥.

والأمثلة كثيرة عن الصور البيانية من تشبيهات واستعارات وتشخيص وتجسيم في رسائل كُتّاب دانية الجزائر الشرقية، ففي رسالة ابن خلصة الشذوني عن إقبال الدولة إلى المعتصم تظهر هذه الصور والتشبيهات والتجسيمات بصورة كبيرة، ومن ذلك تصويره الأيام بأناس يمرحون ويفرحون ويُسْعَدون ويسرّون وينطقون بالشكر والثناء، ويقدمون أنفسهم فداء للمعتصم، حيث يقول(١٣٨): « وقد تمنت الأيام أن لها ألسناً تُطريك، وأنْ لها أنفساً تفاديك».

ويتجلى الخيال وهذا التصوير في رسائل وصف الطبيعة الصامتة والصائتة، من ذلك ما ورد في رسالة ابن أرقم عن إقبال الدولة إلى مقاتل العامري في وصف مهر وصله منه، فهو مهر يشبه القمر في اشراقة وجهه ولونه، حيث استمد لونه هذا من بياض الفجر وسواد الليل، يقول(١٣٩): «فقمت أمسحُ بردائي على وجهه وأطرافه، وأخذ ناظراً في نعوته وأوصافه، فإذا بالقمر قد أعطاه غُرّته، والصباح قد حباه بُلْجتّه، والغلس قد كساه دُلْجته، فجمع بني دهمة الليل وشقرة الشفق».

ثم أراد الكاتب أن يبين سرعة هذا المهر فصور الريح قد منحت هذا المهر اجنحة يطير بها، فبدا هذا المهر طائراً يحلق مسرعاً، يقول الكاتب(١٤٠): ««وأردت انعاله فإذا الرياح قد أنعلته اجنحة...»».

هذه بعض الأمثلة على الصور والخيال في هذه الرسائل، وهناك رسائل أخرى حفلت بهذه الصور(١٤١).

---

(١٣٨) المصدر نفسه، ق٣ م١، ص٣٢٤.

(١٣٩) المصدر نفسه، ق٣ م١، ص٣٦٥.

(١٤٠) المصدر نفسه، ق٣ م١، ص٣٦٥.

(١٤١) انظر على سبيل المثال: رسالة (طي المراحل)، الذخيرة، ق٣ م١، ص٤٢٧، رسالة ابن غرسية، نوادر المخطوطات، ص٢٤٦-٢٥٤.

خاتمة

كان لتشجيع مجاهد العامري للعلم والأدب ورجالهما فضل كبير في ازدهار الحركة الثقافية في عصره، فعندما سقطت الخلافة غدا مجاهد العامري الملجأ الآمن والمشجع المخلص لعدد كبير من العلماء والأدباء الأندلسيين، فوفر لهم العيش الرغيد، وأغدق عليهم العطايا الجزيلة، ووفر لهم الفرص التي تساعدهم على الاستمرار في العطاء وإداء رسالتهم نحو الأدب والعلوم، فاجتمع حوله عدد كبير من الشعراء والكتّاب والعلماء في مختلف فروع العلم والمعرفة.

ولقد أصبحت دانية في ظل مجاهد العامري مركزاً للدراسات الدينية، وخاصة علم القراءات، حيث أخذ على عاتقه عبء النهوض بهذا العلم وانتشاره في الأندلس؛ فأصبح أهل دانية أقرأ أهل الأندلس، وصارت مدينتهم معدن القرّاء في الغرب الاسلامي.

وما كان تشجيع مجاهد العامري للحركة الأدبية يقل عن تشجيعه للحركة العلمية؛ وذلك لما كان لديه من حب للأدب وسعة اطلاع في المعارف، وملكة نقدية للشعر. على الرغم من أن الشعراء حينما كانوا يقفون أمام مجاهد العامري للإنشاد كانت تملأ قلوبهم الرهبة، ولم تكن لتفوته الهفوة البسيطة أو الكلمة القلقة، أو عدم انسجام الإسلوب أو سلاسة اللفظ، وكان يزن القصيدة بميزان دقيق فيجزل العطاء للشاعر المبدع، ويقل أو يمنع عطاءه للناظم، وعلى الرغم مما ذكره المؤرخون فإن الشعراء لم يقصروا عن مدحه، ولم يخلُ الشعر من ذكره كما يذكرون.

ولقد استمرّ الازدهار - الأدبي والعلمي في عهد علي إقبال الدولة بعد وفاة أبيه، واستمر تشجيع علي للعلماء والأدباء، إلاّ أن هناك فرقاً كبيراً بين الأب وابنه، فبينما كان تشجيع مجاهد يصدر عن طبع حسن وذوق رفيع كان تشجيع علي يصدر عن تطبع وتكلف.

ولم يقتصر الأمر على بلاط مجاهد وابنه علي بل كان بلاط الأمير ناصر الدولة مبشر بن سليمان في ميورقة مركزاً للأدب الرفيع والثقافة العالية، يزخر بالمجالس الأدبية والعلمية.

ولقد واكب الأدب جميع مظاهر الحياة في دانية والجزائر الشرقية، وكان انعكاساً

لها بكل أبعادها السياسية والاجتماعية والطبيعية وغيرها، وهو يمثل في جانب من جوانبه وثائق تاريخية وسياسية مهمة، تقدّم مؤشرات لكثير من الأحداث والوقائع والقضايا التي ألمت بالمجتمع في تلك الإمارة الأندلسية في إطار عصر الطوائف الذي اتسم بكثرة الفتن والحروب والاضطرابات السياسية وتدهور الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية.

فقد صور الشعر الشخصية السياسية والعسكرية للقائد /الأمير تصويراً رائعاً، فأبرز الصفات الحميدة التي اتصف بها كل من الأمراء مجاهد العامري وابنه علي إقبال الدولة ومبشر بن سليمان. غير أن صورة مجاهد العامري كانت الصورة الأكثر وضوحاً في مدائح الشعراء، فقد أبرزوا صفاته وهو يدير شؤون الحكم في الإمارة، أو يقود الجيش في ساحات الوغى البحرية والبرية؛ فهو صاحب ذكاء ودهاء وحسن تدبير وشجاعة؛ وصاحب شخصية بناءة لا يكاد يفيق من طعنة توجه إليه حتى يبدأ الجهاد من جديد، ولا يفقد الثقة بنفسه وجيشه، الذي يستمد العزم من قائده وقد وصف الشعراء الأثر الطيب الذي تركته شخصية الأمير في مجتمع الإمارة، فقد بعث الأمن والاستقرار والرخاء فيها.

ولقد استطاع الأدب ان يقدم صورة واضحة لما كان عليه مسلمو دانية والجزائر الشرقية من بأس وقوة ومحبة في الجهاد ضد الامارات المسيحية المجاورة، وخاصة في ميدان الحروب البحرية.

وكشف الأدب عن عدد من مظاهر الحياة الاجتماعية التي حفل بها مجتمع دانية والجزائر الشرقية أنذاك، ومن ذلك المناسبات والأعياد والمواسم الاجتماعية المختلفة، مثل إقامة المهرجانات البحرية واستعراض وحدات الأسطول والكتائب العسكرية البحرية والبرية ومنها أيضاً عزوف بعض أبناء المجتمع عن الدنيا وملذاتها، وقد جاء ذلك ردة فعل لتيار اللهو والمجون الذي غشي كثيراً من طبقات المجتمع الأندلسي آنذاك، ومن المظاهر الاجتماعية التي كشف عنها الأدب شيوع الغزل بالمذكر وبعض معايير الجمال الإنثوي عند الشعراء الأندلسيين عامة وشعراء دانية والجزائر الشرقية خاصة.

وقد كشفت الدراسة ان أدباء دانية والجزائر الشرقية قد نهضوا بأداء رسالتهم في خدمة الأمة، في ظل تدهور الأوضاع السياسة في الأندلس وكثرة الفتن والحروب، التي اشتعلت بين إمارات الطوائف التي أهلكت البلاد والعباد ،فوصفوا النكبات والفتن التي

حلت بالمسلمين، ودعوا إلى وحدة الصف وتعبئة الجهود لدفع العدو الصليبي الذي يسعى لاستعادة الأندلس إلى حظيرة النصرانية.

وصور الشعر والرسائل ملامح مدينة دانية والجزائر الشرقية الحضارية والطبيعية، وما ضمته هذه الإمارة من أسباب الغنى والثروة والجمال ،من موقع ممتاز، وأرض خصبة، ومبان قيمة، ومباهج كثيرة، ومفاتن متعددة، وبساتين وارفة وغيرها.

أمّا على المستوى الفني فقد بينت الدراسة أن أدباء دانية والجزائر الشرقية تأثروا بشعراء المشرق وكتّابه في أساليبهم ومعانيهم ،وقد أضافوا إليها مما أملته عليهم ظروف حياتهم الاجتماعية وبيئتهم الطبيعية، وتجاربهم الذاتية، ومعايير عصرهم الفنية.

وقد تفنن بعض الأدباء في بعض أشعارهم ورسائلهم، حيث مالوا ألى التأنق والتحسين واستعمال الألوان البديعة المختلفة من جناس وطباق ومقابله وغيرها. فقد كتب ابن اللبانة قصيدة طويلة جعلها من أولها إلى آخرها صدر البيت غزل وعجزه مدح، ومال الكتاب إلى السجع والتنميق .

ولله الحمد من قبل ومن بعد،،،

الملخص

الأدب في دانية والجزائر الشرقية في القرن الخامس الهجري

إعداد خالد سليمان الخلفات

إشراف الدكتور فايز القيسي

يهدف هذا البحث إلى دراسة الأدب في دانية والجزائر الشرقية في القرن الخامس الهجري، الذي انقسم إلى صنفين اساسين هما الشعر التقليدي وأدب الرسائل. كما يهدف إلى بيان مدى مساهمة أدباء دانية والجزائر الشرقية في الازدهار الأدبي الذي شهدته الأندلس، في القرن الخامس الهجري.

وتتكون هذه الدراسة من تمهيد، وبابين وخاتمة. درست في التمهيد الإطار السياسي والاجتماعي والفكري في إمارة دانية والجزائر الشرقية في القرن الخامس الهجري.

وتناول الباب الأول دراسة الشعر العربي في دانية والجزائر الشرقية، وجاء ذلك في فصلين. تناول أولهما دراسة أغراض الشعر وموضوعاته، التي عالجها الشعراء، ومن ذلك الشعر السياسي، والشعر الاجتماعي، والغزل، ووصف الطبيعة، وصورة دانية والجزائر الشرقية.

أما الفصل الثاني، فقد دار حول الدراسة الفنية للشعر، من حيث بناء القصيدة، والالفاظ والتعبير عن المعاني، والصورة الشعرية والخيال، والأوزان الموسيقى.

أما الباب الثاني فقد تناولت فيه أدب الرسائل في دانية والجزائر الشرقية، وقد جعلته في فصلين. تناولت في الفصل الأول اتجاهات أدب الرسائل وأغراضه، ومن ذلك الاتجاه السياسي، والاتجاه الاجتماعي، ووصف الطبيعة، ووصف المظاهر الحضارية، والمفاضلات والمفاخرات، والمناقضات. أما الفصل الثاني فقد درستُ فيه الخصائص الفنية واللغوية لأدب الرسائل. وقد ضمّنت الخاتمة النتائج التي توصلت إليها.

Abstract

Arabic Literature in Denia and Balearic Islands

During the 5th Century A. H.

Prepared by

Khalid Sulayman Al-Khalafat

CM. A Mu'tah University

Supervised by

Dr. Fayiz al-Qaysi

This thesis offers a study of Arabic literature in Denia and Balearic Islands during the period of *Muluk al-Tawa'if* provids an overall view of the contribution of the men of letters in this to the development of Andalusian literature as a whole, during the period under discussion.

The introduction deals with the Intellectual, social and political framework in Denia and Alberican Islands in the fifth century A. H.

This thesis consists of an introduction two chapters puls a conclusion.

The first chapter is divided into two parts, The first part examines the traditional Arabic poetry themes, such as political poetry, social poetry, *ghazal*, description of nature, the imge of Denia and Balearic Islands in poetry. The second part gives an analysis of the main artistic, linguistic characteristics of the traditional Arabic poetry.

The second chapter is divided into two parts. The first part deals with themes and functions of art of letter-writing in Denia and Balearic Islands, such as political, social, farternal, arguments as well as some other types.

The second part tackles the artistic and lingustics features of the art of letter-writing the study the conclusion includes the results of the study.

أولاً المصادر

١ - القرآن الكريم.

٢- ابن الأبار، أبو عبدالله محمد بن الأبار القضاعي البلنسي (ت٦٥٨هـ). إعتاب الكتاب، حقق وعلق عليه وقدم له، د. صالح الأشتر، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٩٦١م.

٣- ابن الأبار، تحفة القادم، تحقيق، د. احسان عباس، دار الغرب الاسلامي، بيروت، ط١، ١٩٨٦.

٤- ابن الأبار، التكملة لكتاب الصلة، عني بنشره وصححه السيد عزت العطار الحسيني ١٩٥٦م.

٥- ابن الأبار، الحلة السِّيَراء، حققه وعلق حواشيه، د. حسين مؤنس، دار المعارف، مصر، القاهرة، ط٢، ١٩٨٥م.

٦- ابن الأبار، المعجم في أصحاب القاضي الصدفي، أبو علي حسين بن محمد (ت٥٩٤هـ)، تحقيق: ابراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط١، ١٩٨٩م.

٧- ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبدالكريم بن عبدالواحد الشيباني (ت٦٣٠هـ): الكامل في التاريخ، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، ١٩٦٧.

٨- ابن الأثير، أبو الفتح نصر الله الجزري (ت٦٣٦هـ): المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٣٩م.

٩- الإدريسي، أبو عبدالله محمد بن محمد الحسيني (ت٥٦٠هـ): نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٩٨٩م.

١٠- الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين (ت٣٥٦هـ)، الأغاني، شرحه وكتب هوامشه: عبد، أ. علي مهنا، وسمير جابر، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط١، ١٩٨٦.

١١- ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أبو المعالي العباس أحمد بن قاسم خليفة (ت٦٦٨هـ): عيون الأنباء في طبقات الأطباء، شرح وتعليق، نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٥م.

١٢- ابن بسام الشنترتني، أبو الحسن علي (ت٥٤٢هـ): الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق، د. احسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ط٢، ١٩٧٩م

١٣- أبو معاذ، بشار بن برد العقيلي (ت١٦٧هـ)، ديوان بشار بن برد، جمع بدر الدين العلوي، بيروت، ١٩٦٣م.

١٤- ابن بشكوال، أبو القاسم خلف بن عبدالملك (ت٥٧٨هـ): الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم، عني بنشره السيد عزت العطار الحسيني، الناشر مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ١٩٥٥م.

١٥- البغدادي، صفي الدين عبدالمؤمن بن عبدالحق (ت٧٣٩هـ): مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، تحقيق وتعليق: علي محمد البجاري، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، ط١،. ١٩٥٤م.

١٦- ابن بلقين، عبدالله بن بلقين بن زيري الصنهاجي (ت٤٨٣هـ): مذكرات الأمير عبدالله المسماه بكتاب: التبيان، تحقيق: أ. ليفي بروفنسال، دار المعارف، القاهرة ١٩٥٥م.

١٧- ابن تغري بردي، أبو المحاسن يوسف (ت٨٧٤هـ): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٣٥م.

١٨- أبو تمام، حبيب بن أوس الطائي، (ت٢٣١هـ)، ديوان أبي تمام: تحقيق محمد عبده عزام (د.ن)، القاهرة، ١٩٦٥.

١٩- الجرجاني، القاضي علي بن عبدالعزيز (ت ٣٩٢هـ) الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق وشرح أبو الفضل إبراهيم، وعلي محمد البجاوي، دار إحياء الكتب، مطبعة عيسى البابي الحلبي، ط٣ (د.ت).

٢٠- ابن حزم، أبو محمد علي بن سعيد الأندلسي الظاهري (ت٤٥٦هـ): جمهرة أنساب العرب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٣.

٢١- ابن حزم، طوق الحمامة في الألفة والألآف، تحقيق فاروق سعد، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٧٥م.

٢٢- ابن حمديس، عبدالجبار بن محمد بن حمديس الصقلي (ت٥٢٧هـ)، ديوان ابن حمديس صححه وقدم له: د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٠م.

٢٣- الحميدي، أبو عبدالله محمد بن أبي نصر فتوح بن عبدالله الأزدي، (ت٤٨٨هـ): جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٦م.

٢٤- الحميري، أبو الوليد اسماعيل بن محمد بن عامر بن حبيب (ت٤٤٠هـ): البديع في وصف الربيع، تحقيق: د. عبدالله عبدالرحيم عسيلان، دار المدني للطباعة والنشر، ط١، ١٩٨٧م.

٢٥- الحميري، أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن عبدالمنعم (ت٨٦٦هـ): صفة جزيرة الأندلس (منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار)، نشر وتحقيق: ليفي بروفنسال، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط٢، ١٩٨٨م.

٢٦- ابن حوقل، أبو القاسم بن حوقل النصيبي (ت٣٦٧هـ): صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، (د.ت).

٢٧- ابن خاقان: أبو نصر الفتح بن محمد بن عبدالله بن خاقان القيسي الاشبيلي (ت٥٢٩هـ) قلائد العقيان، تحقيق د. حسين يوسف خريوش، مكتبة المنار، الزرقاء، الأردن، ط١، ١٩٨٩م.

- طبعة دار الكتب الوطنية، تقديم محمد الغساني، تونس، ١٩٦٦م.

٢٨- ابن خاقان:

مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس، تحقيق: محمد علي الشوابكة، دار عمار، ط١، ١٩٨٣م.

٢٩- ابن خُرْدَاذْبَهْ، أبو القاسم عبيدالله بن عبدالله (ت٢٨٠هـ): المسالك والممالك، ليدن، مطبعة بريل، ١٨٨٩م.

٣٠- ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد الحضرمي (ت٨٠٨هـ): تاريخ ابن خلدون، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٦م.

٣١- ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٤، ١٩٧٨.

٣٢- ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان. (ت٦٨١هـ)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٩م.

٣٣- ابن دحية، أبو الخطاب عمر بن حسن (ت٦٣٣هـ): المطرب من أشعار أهل المغرب، تحقيق: إبراهيم الأبياري، وحامد عبدالمجيد وأحمد بدوي، مراجعة، د. طه حسين، دار العلم للجميع (د.ت).

٣٤- ابن دراج القسطلي: أبو عمر أحمد بن محمد بن العاص بن دراج القسطلي (ت٤٢١هـ)، ديوان ابن دراج، تحقيق محمود علي مكي، منشورات المكتب الاسلامي، دمشق ط١، ١٩٦١م.

٣٥- الدلجي، أحمد بن علي شهاب الدين (ت٨٣٨هـ): الفلاكة والمفلوكون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٣م.

٣٦- الذهبي: أبو عبدالله شمس الدين محمد الحافظ (ت٧٤٨هـ): تذكرة الحفّاظ، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٧٧هـ.

٣٧- الذهبي:العبر في خبر من غبر، تحقيق صلاح الدين المنجد، الكويت، ١٩٦٣.

٣٨- ابن رشيق، أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني (ت٤٥٦هـ)، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تحقيق محمد قزقزان، دار المعرفة، بيروت، ط١، ١٩٨٨م.

٣٩- ابن الزبير، أبو جعفر أحمد بن الزبير (ت٧٠٨هـ): صلة الصلة، مكتبة خياط، بيروت، (د.ت).

٤٠- ابن زيدون، أبو الوليد أحمد بن عبدالله (ت٤٦٣هـ) ديوان ابن زيدون ورسائله، شرح وتحقيق: علي عبدالمنعم، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، ١٩٥٧م.

٤١- زينب العاملي: الدر المنثور في طبقات ربات الخدور، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٣١٢هـ.

٤٢- ابن سعيد المغربي، أبو الحسن موسى (ت٦٨٥هـ): رايات المبرزين وغايات المميزين، تحقيق: النعمان عبدالمتعال القاضي، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ١٩٧٣م.

٤٣- ابن سعيد،... المغرب في حلى المغرب، تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، (د.ت).

٤٤- السلفي، أبو طاهر صدر الدين أحمد بن محمد: أخبار وتراجم أندلسية، تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ط١، ١٩٦٣م.

٤٥- ابن سيده، علي بن اسماعيل (ت٥٤٨هـ): المحكم والمحيط الأعظم في اللغة تحقيق: مصطفى السقا وحسين نصّار، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، بمصر، ط١، ١٩٥٨.

٤٦- السيوطي: جلال الدين بن عبدالرحمن (ت٩١١هـ): بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم، مطبعة عيسى الحلبي وشركاه، القاهرة، ١٩٦٤م.

٤٧- صاعد، القاضي صاعد بن أحمد (ت٤٦٢هـ): طبقات الأمم، نشر لويس شيخو اليسوعي، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩١٢م.

٤٨- صلاح الدين الصفدي، خليل بن أيبك (ت٧٦٤هـ): الوافي بالوفيات، تحقيق: محمد يوسف نجم، دار النشر فرانز شتاير، بفيسبادن، ط٢، ١٩٨٢.

٤٩- الضبي، أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة (ت٥٩٩هـ): بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس، دار الكتاب العربي، ١٩٦٧م.

٥٠- ابن عذاري، أبو عبدالله أحمد بن محمد المراكشي (ت٦٩٥هـ): البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق: ج. س كولان، و أ. ليڤي بروڤنسال، دار الثقافة، بيروت، ط٣، ١٩٨٣م.

٥١- العذري، أحمد بن عمر بن أنس المعروف بابن الدلائي: نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار، تحقيق، عبدالعزيز الأهواني، معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، ١٩٦٥م.

٥٢- العماد الاصفهاني، أبو محمد صفي الدين عبدالله محمد بن محمد (ت٥٩٧هـ): خريدة القصر وجريدة العصر، تحقيق: آذرتاش وآذر نوش، نقحه وزاد عليه محمد المرزوقي ومحمد العروسي المطوي، والجيلاني بن الحاج يحيى، الدار التونسية للنشر، تونس ١٩٧١-١٩٧٢.

٥٣- أبو الفداء، عماد الدين اسماعيل بن محمد بن عمر، (ت٧٣٢هـ): تقويم البلدان، دار صادر، بيروت، (د.ت).

٥٤- ابن فرحون، برهان الدين ابراهيم بن علي المالكي (ت٧٩٩هـ)، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث، القاهرة، (د.ت).

٥٣- ابن الفرضي، أبو الوليد عبدالله بن محمد بن يوسف الأزدي الحافظ (ت٤٠٣هـ) تاريخ علماء الأندلس، القاهرة، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٦م.

٥٥- القاضي عياض: أبو الفضل عياض بن موسى (ت٥٤٤ه): ترتيب المدرك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تحقيق، أحمد بكير محمود، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٧.

٥٦- القزويني، زكريا بن محمد بن محمود (ت٦٨٢هـ) آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، (د.ت).

٥٧- القفطي، جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف (ت٦٤٦هـ): إنباه الرواه على أنباء النحاة، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط١، ١٩٥٢م.

٥٨- القفطي،... تاريخ الحكماء، وهو مختصر الزوزني المسمى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء، مكتبة المثنى ببغداد، ومؤسسة الخانجي بالقاهرة(د.ت).

٥٩- القلقشندي، أحمد بن علي (ت٨٢١هـ): صبح الأعشى في صناعة الإنشا، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة، النشر (د،ت).

٦٠- ابن الكتاني، أبو عبدالله محمد بن الحسين (ت٤٢٠هـ): كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس، تحقيق: د. احسان عباس، بيروت، القاهرة، دار الشروق، ط٢، ١٩٨١.

٦١- الكتبي، محمد بن شاكر (ت٧٦٤هـ) فوات الوفيات، تحقيق د. احسان عباس، دار صادر، بيروت، (د.ت).

٦٢- كثير عزة، أبو محمد بن عبدالرحمن بن الأسود(١٠٥هـ)، ديوان كثير عزة، تحقيق د. احسان عباس، بيروت، ١٩٧١.

٦٣- ابن الكردبوس، عبدالملك بن قاسم بن الكردبوس التوزري (ت٣٦٧هـ): تاريخ ابن الكردبوس قطعة من كتاب الإكتفاء في أخبار الخلفاء، تحقيق أحمد مختار العبادي، معهد الدراسات الاسلامية، مدريد، ١٩٧١.

٦٤- الكلاعي، أبو القاسم محمد بن عبدالغفور الإشبيلي الأندلسي (من أعلام القرن السادس الهجري)، إحكام صنعة الكلام، تحقيق: محمد رضوان الداية، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٥م.

٦٥- ابن اللبانة، أبو بكر محمد بن عيسى الداني (ت٥٠٧هـ) شعر ابن اللبانة، جمع وتحقيق: د. محمد مجيد السعيد، منشورات جامعة البصرة، ١٩٧٧م.

٦٦- لسان الدين بن الخطيب، أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن سعيد (ت٧٧٦هـ)، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق: محمد عبدالله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٢، ١٩٧٣-١٩٧٥.

٦٧- لسان الدين بن الخطيب، تاريخ إسبانيا الاسلامية أو كتاب أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، تحقيق وتعليق، ليفي بروفنسال، دار المكشوف، بيروت، ١٩٥٩م.

٦٨- لسان الدين بن الخطيب، جيش التوشيح، تحقيق وتقديم هلال ناجي، مطبعة المنار، تونس، ١٩٦٧م.

٦٩- المراكشي، عبدالواحد (ت٦٤٧هـ): المعجب في تلخيص أخبار المغرب، لجنة إحياء التراث الإسلامي، المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية، مصر، ١٩٦٣.

٧٠- المراكشي، أبو عبدالله محمد بن محمد بن عبدالملك الأنصاري الأوسي المراكشي (ت٧٠٣هـ): الذيل والتكملة لكتابي الموصل والصلة، تحقيق، د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٥م.

٧١- المقّري، أحمد بن محمد التلمساني (ت١٠٤١هـ): أزهار الرياض في أخبار عياض، تحقيق، مصطفى السقا وآخرون، مطبعة لجنة التأليف، والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٣٩م.

٧٢- المقّري... نفخ الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٩٨٦.

٧٣- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين. محمد بن مكرم الافريقي المصري (ت٧١١هـ)، لسان العرب، دار صادر، بيروت، (د.ت).

٧٤- النباهي، أبو الحسن بن الحسن النباهي المالقي التونسي، (ت ق٨هـ)، تاريخ قضاة الأندلس أو كتاب المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتْيا، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، (د.ت).

٧٥- ابن النديم، أبو الفرج، محمد بن اسحاق بن محمد (ت٤٣٨هـ) الفهرست، مكتبة خياط، بيروت، (د.ت).

٧٦- ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبدالله الحموي الرومي البغدادي (ت٦٢٦هـ)، معجم الأدباء، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط٣، ١٩٨٠م.

٧٧- ياقوت الحموي، ....، معجم البلدان، دار صادر بيروت، ١٩٧٧م.

٧٨- اليماني، عبدالباقي بن عبدالحميد (ت٧٤٣هـ): إشارة التعيين في تراجم النحاة واللغويين، تحقيق د. عبدالمجيد ذياب، شركة الطباعة العربية السعودية، الرياض، ط١، ١٩٨٦.

٧٩- مؤلف مجهول: أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها والحروب الواقعة بينهم، تحقيق إبراهيم الأبياري، الناشر دار الكتب الإسلامية، دار الكتاب المصري القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط١، ١٩٨١م.

ثانياً: المراجع

٨٠- إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين)، دار الثقافة، بيروت، ط٧، ١٩٨٥م.

٨١- أحمد ضيف: بلاغة العرب في الأندلس، مطبعة مصر، القاهرة، ١٩٢٤.

٨٢- أحمد مختار العبادي، والسيد عبدالعزيز سالم، تاريخ البحرية الإسلامية في حوض البحر الأبيض المتوسط (البحرية الاسلامية في المغرب والاندلس)، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، (د.ت).

٨٣- أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، دار النهضة العربية للطباعة، والنشر، بيروت، (د.ت).

٨٤- أحمد هيكل: الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، دار المعارف، القاهرة، ط٧، ١٩٧٩م.

٨٥- ألبير حبيب مطلق: الحركة اللغوية في الأندلس منذ الفتح العربي حتى نهاية عصر ملوك الطوائف، بيروت، المكتبة العصرية، ١٩٦٧م.

٨٦- إميليو غيرسية غومس: الشعر الأندلسي، بحث في تطوره وخصائصه، ترجمة حسين مؤنس، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٦م.

٨٧- أنحل جنثالث بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة حسين مؤنس، مكتبة الثقافة

الدينية، القاهرة، ١٩٥٥م.

٨٨- جودت الركابي: في الأدب الأندلسي، دار المعارف، القاهرة، ط٢، (د.ت).

٨٩- حازم عبدالله خضر، وصف الحيوان في الشعر الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين)، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٧م.

٩٠- خليل ابراهيم السامرائي، وآخرون، تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة الموصل (د.ت).

٩١- خير الدين الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، (د.ت).

٩٢- سامي مكي العاني، دراسات في الأدب الأندلسي، بغداد، الجامعة المستنصرية، ١٩٧٨م.

٩٣- سعد اسماعيل شلبي: الأصول الفنية للشعر الأندلسي، دار تحفة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٨٢.

٩٤- سعد اسماعيل الشلبي: البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر/عصر ملوك الطوائف، دار نهضة مصر، القاهرة، (د.ت).

٩٥- سيد نوفل: شعر الطبيعة في الأدب العربي، دار المعارف، القاهرة. ١٩٧٨م.

٩٦- السيد عبدالعزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس من الفتح حتى سقوط الخلافة بقرطبة، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨١م.

٩٧- شكيب أرسلان: تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وايطاليا وجزائر البحر المتوسط، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت).

٩٨- شكيب أرسلان: الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، منشورات دار الحياة، بيروت، (د.ت).

٩٩- شوقي ضيف: عصر الدول والإمارات (الأندلس)، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٩م.

١٠٠- شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في الشعر العربي، دار المعارف، القاهرة، ط٩. ١٩٧٦م.

١٠١- شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في النثر العربي، دار المعارف، القاهرة، (د.ت).

١٠٢- صلاح خالص: إشبيلية في القرن الخامس الهجري، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٥م.

١٠٣- عبدالرحمن علي الحجي، التاريخ الأندلسي من الفتح الاسلامي حتى سقوط غرناطة (٩٢-٨٩٧هـ)، دار العلم، بيروت، ١٩٧٦م.

١٠٤- عبدالرزاق حسين: الأدب العربي في جزر البليار، دار الجليل، عمان، ١٩٩٤م.
١٠٥- عبدالسلام هارون: نوادر المخطوطات، المجموعة الثالثة، ط٢، شركة ومطبعة البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٧٣م.
١٠٦- عبدالعزيز عتيق: الأدب العربي في الأندلس، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، ط٢، بيروت، ١٩٧٦.
١٠٧ عبدالكريم خليفة: ابن حزم الأندلسي: حياته وأدبه، مكتبة الأقصى، المكتب الاسلامي، الدار العربية للطباعة والنشر، والتوزيع (د.ت).
١٠٨ عصام سالم سيسالم: جزر الأندلس المنسية (التاريخ الاسلامي لجزر البليار) دار العلم للملايين، بيروت، ط١، ١٩٨٤.
١٠٩ عمر الدقاق: ملامح الشعر الأندلسي، دار الشرق، بيروت، ١٩٧٥.
١١٠ عمر رضا كحالة: أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٣، ١٩٧٧م.
١١١- علي بن محمد، النثر الأندلسي في القرن الخامس الهجري، مضامينه وأشكاله، دار الغرب الاسلامي، بيروت، (د.ت).
١١٢ فايز القيسي: أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري، دار البشير للنشر والتوزيع، عمان، ط١، ١٩٨٩م.
١١٣- فايز القيسي: تاريخ المرية الإسلامية إطارها التاريخي وأدبها العربي في القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي (باللغة الانجليزية)، منشورات جامعة مؤتة، ١٩٩٤م.
١١٤- فوزي سعد عيسى، الهجاء في الأدب الأندلسي، دار المعارف، القاهرة (د.ت).
١١٥- كيليليا سارنللي تشركوا، مجاهد العامري قائد الأسطول العربي في غربي البحر الأبيض المتوسط في القرن الخامس الهجري، لجنة البيان العربي، القاهرة، ط١، ١٩٦١م.
١١٦- لويس أرشيبالد: القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط، ترجمة أحمد محمد عيسى، مكتبة النهضة المصرية بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٠م

١١٧- محمد عبدالله عنان: الآثار الأندلسية الباقية في اسبانية والبرتغال، دراسة تاريخية أثرية مؤسسة الخانجي، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط٢، ١٩٦١.

١١٨- محمد عبدالله عنان: دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي، دار الكاتب للطباعة والنشر، القاهرة، ط٢، ١٩٦٩م.

١١٩- محمد عبدالله عنان: دولة الاسلام في الأندلس ، ج١، ق٢، مؤسسة الخانجي، القاهرة، ١٩٦٠.

١٢٠- محمد عبدالمنعم خفاجي: الأدب الأندلسي (التطور والتجديد)، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٩٢م.

١٢١- محمد مجيد السعيد: الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالاندلس، الجمهورية العراقية، منشورات وزارة الثقافة والأعلام، دار الرشيد للنشر، ١٩٨٠م.

١٢٢- محسن جمال الدين: أدباء بغداديون في الأندلس، مكتبة النهضة، بغداد، ١٩٦٢م.

١٢٣- مصطفى الشكعة: الأدب الأندلسي، موضوعاته وفنونه، دار العلم للملايين، بيروت، ط٣، (د.ت).

١٢٤- مصطفى محمد أحمد علي السيوفي: ملامح التجديد في النثر الأندلسي خلال القرن الخامس الهجري، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٩٨٥م.

١٢٥- منجد مصطفى بهجت: الاتجاه الاسلامي في الشعر الأندلسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٨٦م.

١٢٦-منجد مصطفى بهجت: الأدب الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة، دار الكتب، الموصل، ط١، ١٩٨٨م.

١٢٧- نافع عبدالله: الهجاء في الشعر العربي الأندلسي، جامعة بيرزيت، ط١، ١٩٨٤م.

١٢٨- هنري بيريس، الشعر الأندلسي في عصر الطوائف، ترجمة الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، القاهرة، ط١، ١٩٨٨.

١٢٩- Arther Foss: Ibiza and Minorca, London, 1975.

١٣٠- NYKL, A. P., Hispano-Arabic poetry and its Relations with the Troo badours, Baltimore, 1946.

ثالثاً: الرسائل الجامعية المخطوطة:

١٣١- أحمد عبدالقادر صلاحية: البحر في الشعر الأندلسي، جامعة دمشق، ١٩٩٠، رسالة ماجستير، إشراف: علي ذياب.

١٣٢- سلمى سليمان علي: المرأة في الشعر الأندلسي، عصر الطوائف، رسالة ماجستير، الجامعة المستنصرية، بغداد، ١٩٨٦.

١٣٣- فيروز الموسى، قصيدة المدح الأندلسية بين التجديد والتقليد، رسالة دكتوراه، إشراف عصام قصبجي.

١٣٤- محمد مولود خلف المشهداني: الشعر الاجتماعي في الأندلس من الفتح إلى نهاية عصر الطوائف، رسالة دكتوراه، إشراف سامي مكي العاني، الجامعة المستنصرية، ١٩٩٠.

١٣٥- دائرة المعارف الإسلامية، إصدار أحمد الشنتناوي، إبراهيم زكي خورشيد، وعبدالحميد يونس، مراجعة، محمد مهدي علام، دار الفكر، ١٩٨٠.

١٣٦- الموسوعة العربية الميسرة، دار الجيل والجمعية المصرية لنشر المعرفة والثقافة العالمية، إشراف محمد شفيق غربال، ١٩٩٥

رابعاً: المقالات والبحوث والدراسات

١٣٧- أحمد الطاهري: «ثورة العامة في قرطبة في أواخر عصر الخلافة»، مجلة البحث العلمي، جامعة محمد الخامس، الرباط، العدد ٣٦، ١٩٨٦، (ص٩١-١١٩).

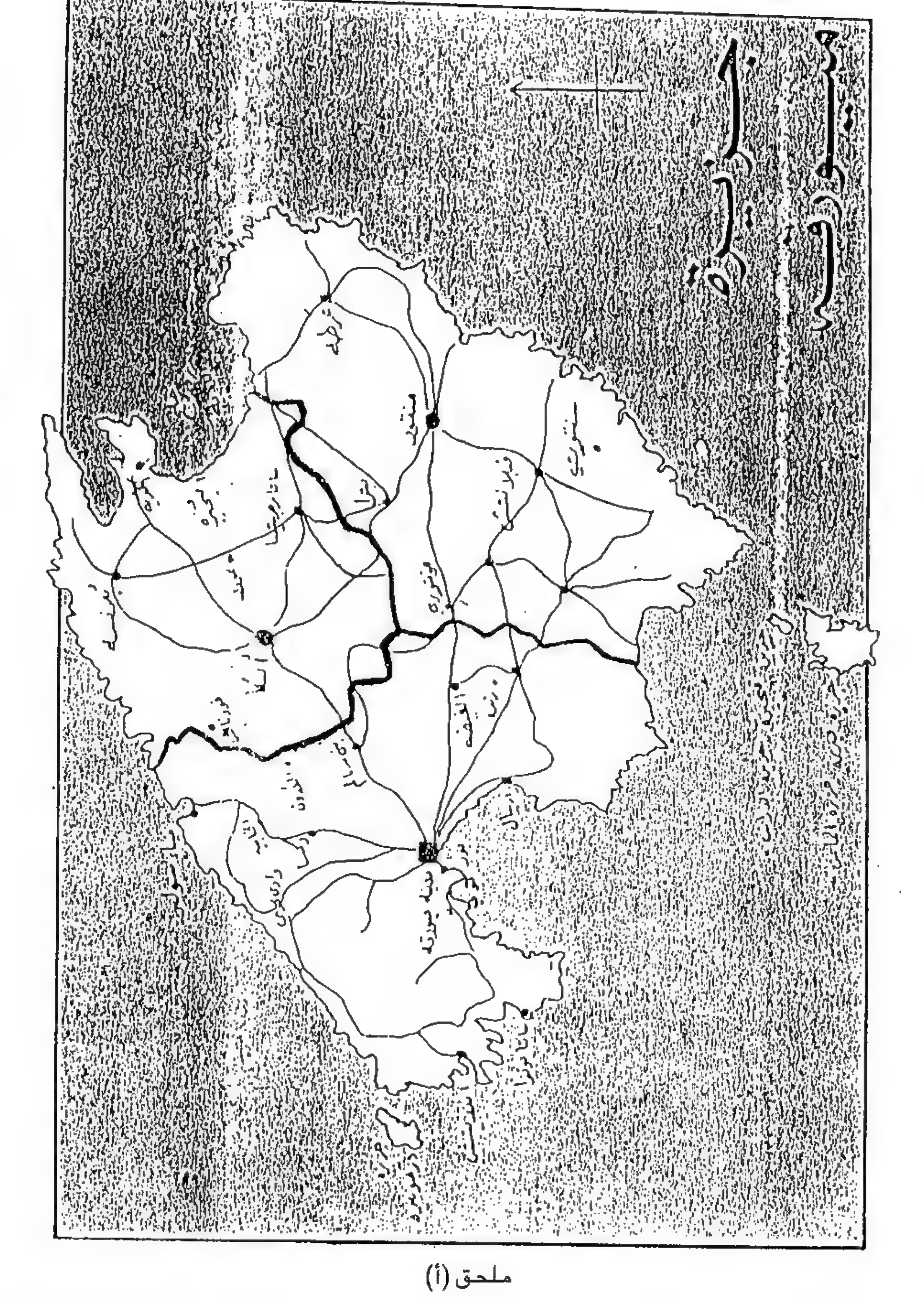
١٣٨- جمعه شيخة: «الحياة الفكرية والأدبية بالجزائر الشرقية»، في القرنين (٥، ٦هـ)، أعمال الملتقي الرابع الإسباني التونسي، ١٩٨٣، ص(٤٩-١٠٨).

١٣٩- عبدالسلام الهراس: «ابن اللبانة»، مجلة البحث العلمي، جامعة محمد الخامس، الرباط، السنة الأولى، ١٩٦٤، العدد الثاني، ص(٢٤٥-٢٥٣)، العدد الثالث، ص(٢١٣-٢٤٠).

١٤٠- فؤاد جبور: «العرب في ميورقة» مجلة الأديب اللبنانية، العدد الخامس، ١٩٦٥، السنة ٢٤، ص٢٦-٢٨.

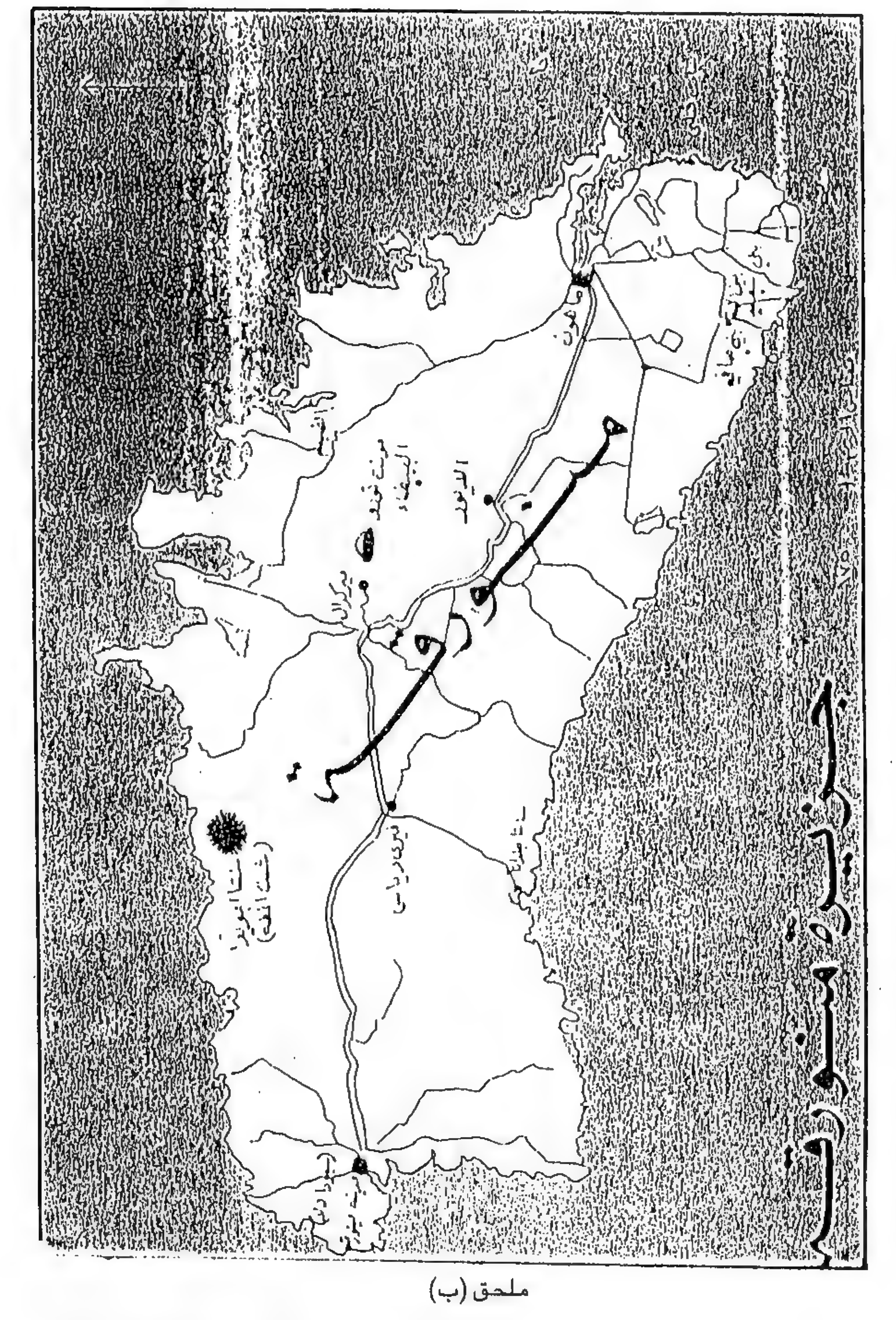
141- John Yaylon, "Majorca",, in The Encyclopedia Americana, Grolier Incorporated Danbury, U. S. A., 1989, vol. 18, pp, 146-147.

142- Seybold, C.F, "Danya" In Encyelopaedia of Islam, new edition, ed. by B. Lewis, Ch. Pellat and Schacht, Leiden, E. J. Brill, 1983, vol, 11, pp 111-112.



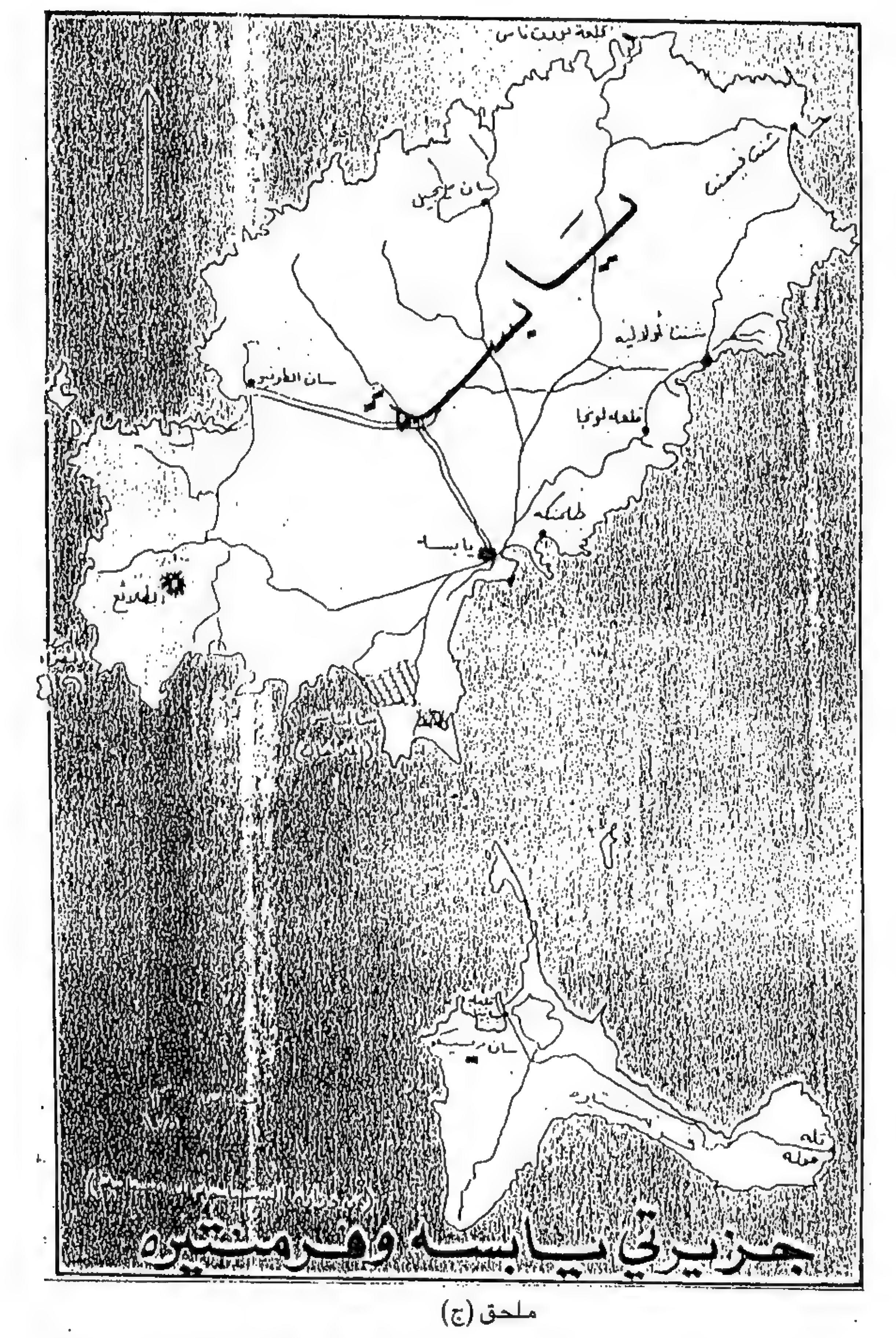
ملحق (أ)

هذه الخريطة صوّرت من كتاب د. عصام سالم سيسالم «جزر الأندلس المنسية» دار العلم للملايين، بيروت، ط١، ١٩٨٤



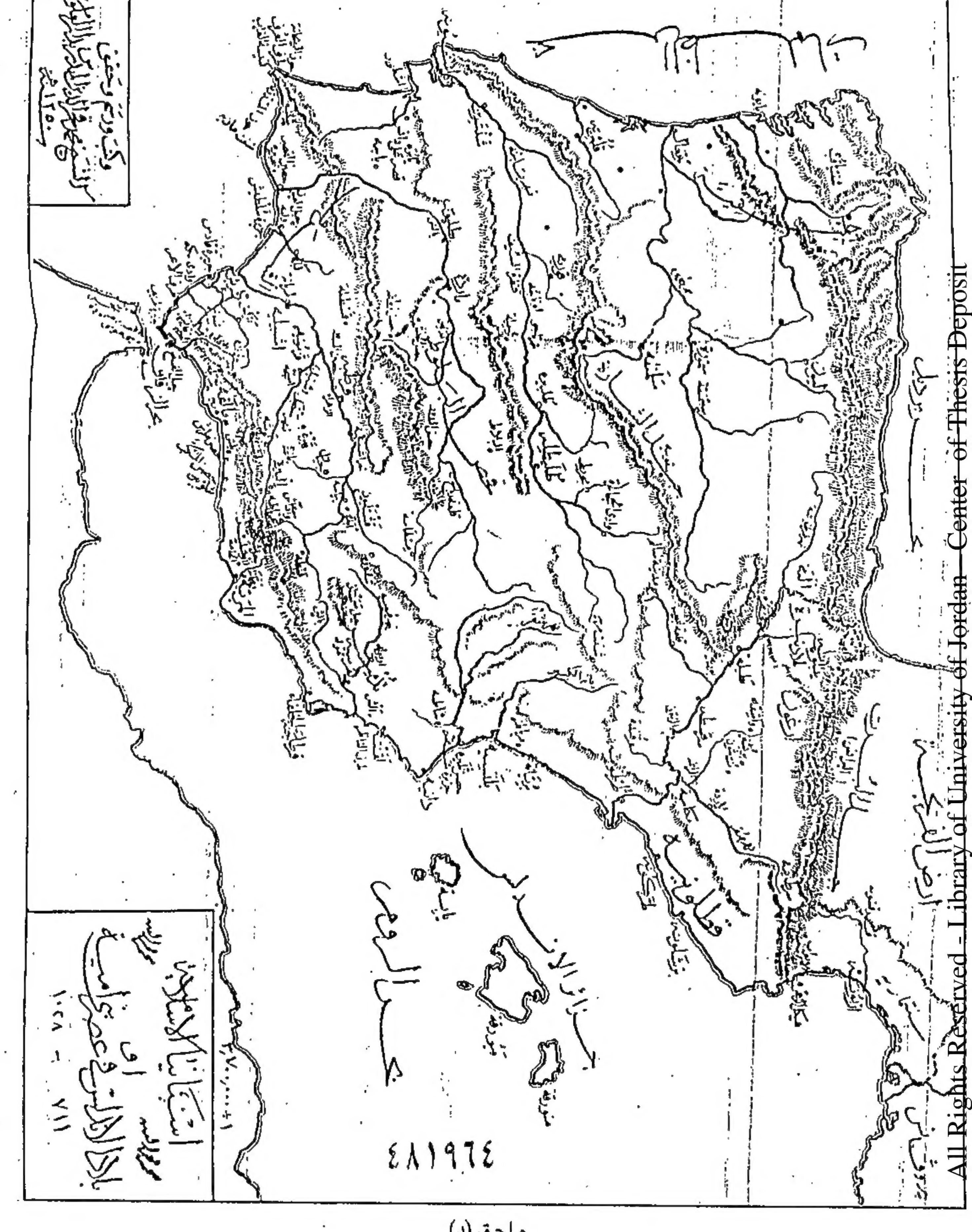
ملحق (ب)

هذه الخريطة صوّرت من كتاب د. عصام سالم سيسالم «جزر الأندلس المنسية» دار العلم للملايين، بيروت، ط١، ١٩٨٤



ملحق (ج)

هذه الخريطة صوّرت من كتاب د. عصام سالم سيسالم «جزر الأندلس المنسية» دار العلم للملايين، بيروت، ط١، ١٩٨٤



ملحق (د)

هذه الخريطة صوّرت من كتاب «أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها رحمهم الله والحروب الواقعة بها بينهم» لمؤلف مجهول، تحقيق ابراهيم الأبياري، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط١، ١٩٨١.

المحتويات